



ذكرياتي مع

الشهيد مطهري

تأليف : علي دواني

ترجمة : خالد توفيق

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

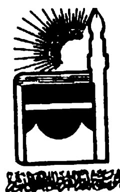
ذكرياتي
مع
الشهيد مطهري

تأليف: علي دواني

ترجمة: خالد توفيق



مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



١٥

مؤسسة أُم القرى للتحقيق والنشر

ذكرياتي مع الشهيد مطهري

تاليف : علي دواني

تعريب : خالد توفيق

المطبعة : القدس

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ. ش ـــ ١٠٠٠ نسخة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المترجم

كيف يستطيع الكاتب أن يقدّم لكتاب هو في محتواه مجموعة متصلة من الذكريات والخواطر التي تدور حول شخصية فكرية خصبة؛ بحيث يقول الذي يريد قوله من دون أن يخلّ بعنصر الجاذبية؟ طبيعي أنّ ذلك لا يكون إلا إذا جاءت المقدمة في مستوىً يرتفع من حيث المحتوىٰ والأداء علىٰ مادة الكتاب نفسها، أو يستوي معها على الأقل.

في ضوء ذلك، رأينا أن لا تتخطّى المقدمة أسلوب الكتاب القائم على أساس سرد الذكريات والخواطر، بل تنتظم وإياه، وإن تغاير المحتوىٰ وتبدّل المضمون.

كيف؟ نعرف جميعاً أنّ الشهيد مطهري عاش حياته الفكرية ومارس دوره الاجتماعي والسياسي بين ثلة من أهل العلم والقلم، ولكل واحدٍ من هؤلاء خاطرة أو ذكرىٰ يرويها عن جانب أو أكثر من جوانب حياة الشهيد الشخصية أو العامة. وفي تلك الذكريات مؤشرات دالّة علىٰ أبعاد نشاطه الفكري والاجتماعي والسياسي، نستطيع سوقها بما يحقق المقاصد التي تنشدها المقدمة.

ذكريات شخصية

نبدأ أولاً فيما بين آية الله السيد علي الخامنئي والشهيد مطهري من آصرة، حيث ينحدر كلاهما من خراسان؛ هذا الإقليم الذي يمدّ البلاد باستمرار بتيار من العلماء والمفكرين والمثقفين البارزين. على خلفية هذا المنحدر يعيد السيد الخامنئي أولىٰ خيوط العلاقة مع الشهيد مطهري إلى الموطن المشترك، حيث يقول: كان الشهيد مطهري ينزل في بيتنا أحياناً، حين كان يأتي إلىٰ مشهد. كان يمضي الليل في غرفة تفصلها باب عن الغرفة التي ننام فيها، لم يكن يترك تلاوة القرآن ليلاً قبل أن ينام. وفي منتصف الليل كنا نستيقظ من النوم على صوت بكائه وهو يتهجد ويقيم صلاة الليل.

تجتمع كلمة أصدقاء الشهيد مطهري ومن يعرفه عن قرب، علىٰ أنّه كان مواظباً على أداء صلاة الليل منذ أن التحق بالدراسة الحوزوية في مدينة قم، ولم يكن يترك تلاوة شيءٍ من القرآن قبل أن ينام.

ومن طريف ما يذكره أحد رفاقه في أيام الدراسة الأولىٰ، حيث أضحىٰ الآن من أعلام الاجتهاد، أنّ مطهري كان يحثّه على قيام الليل، فكان صاحبنا يتعلل بأنّ ماء حوض المدرسة مالح وملوّث وهو يضر بسلامة عينيه، فما كان من مطهري إلا أن أيقظه منتصف الليل، وقال هذا ماء حلو جئت به من النهر، لكي يقطع عذره ويدفعه لصلاة الليل. وهذا ما كان.

نعود الآن إلى ذكريات السيد الخامنئي الذي يقول إنّ رفقتهما عن قرب امتدت لما يناهز أربعين سنة، وهو يحدثنا عن واقعة وإن كانت صغيرة إلا أنّها تكتنز معاني

غنية في البعد الروحي، إذ يذكر أنّ غرفة الشهيد مطهري كانت تحوي كلمة لفظ الجلالة «الله» وقد خُطّت بحروف خضراء فسفورية تلتمع وتضيء وقت الظلام. وكان مطهري يستفيد من التماع لفظ الجلالة في هدأة الليل حينما يطفئ المصابيح وينهض لصلاة الليل، إذ يكون في منظر متألق روحياً حيث تلمع أمامه كلمة «الله» باللون الأخضر.

ومما يحدثنا به أنه اجتمع والشهيد مطهري في مشروع فكري لكتابة مجموعة دراسات عن الرؤية الكونية الإسلامية، وكان ممن حضر جلسات الإعداد والمدارسة الشهيد بهشتي والشهيد باهنر والشيخ هاشمي رفسنجاني وآخرون، وقد أثمر المشروع فيما بعد سلسلة كتبٍ صدرت للشهيد مطهري تحت العنوان نفسه.

ومما يذكره السيد الخامنئي أيضاً، أنّ مطهري كان يؤكد على الصلة التي تربط الجانب السياسي والاجتماعي في الإسلام، مع البناء الفكري التحتي المتمثل بالجانب العقيدي، أو ما كان يُطلِق عليه مطهري بالبناء الآيديولوجي والفلسفي للإسلام.

وهذه الصلة بين الجانبين لا زالت تشكّل حتىٰ اللحظة إحدىٰ نقاط الفراغ في ممارسة الفكر الإسلامي، إذ نجد لدى البعض إما توجّهاً اجتماعياً وسياسياً وحركياً منفصلاً عن البناء العقيدي، أو بالعكس حيث نجد توغلاً عميقاً وتفصيلياً في البناء العقيدي من دون قدرة على تمثّل معطيات العقيدة، في الجانب الاجتماعي والسياسي. مطهري ـ فيما يراه السيد الخامنئي ـ كان يؤكد علىٰ إيجاد الصلة بين الجانبين من خلال تفعيل العقيدة في بعدها الاجتماعي والسياسي، وفي المقابل إعادة تأسيس النشاط الاجتماعي والسياسي في ضوء المرتكز العقيدي.

وحين نعود مع السيد الخامنئي في تعليله لطبيعة التركيز الذي اكتسبه البعد

الروحي والمعنوي في تكوين شخصية الشهيد مطهري، نراه يعزوه إلى البيئة الأسرية أولاً، ثم إلى الأساتذة الممتازين الذين حظي بالتلمّذ عليهم، وربما كان أبرزهم الميرزا علي الشيرازي الذي كانت صورته معلّقة في غرفة الشهيد مطهري، وكان يذكره ويثني عليه باستمرار، ثم السيد محمد حسين الطباطبائي، والشيخ القوجاني (صاحب كتابَي سياحة الغرب، وسياحة الشرق) بالإضافة إلى الإمام الخميني الذي يقول عنه مطهري نفسه، وهو يصف عظيم تأثيره الأخلاقي والمعنوي عليه: «بعد أن هاجرت إلى مدينة قم وجدتُ ضالّتي في شخصية أخرىٰ. فقد كنت دائماً أجد في الشخصية الجديدة معالم شخصية المرحوم الميرزا مهدي بالإضافة إلىٰ بعض الخصال التي تزيد عليها. وقد خيّل إليّ حين تعرفت على هذه الشخصية أنّ نفسي سترتوي مما يتدفق من معينها الزلال. لم أكن حين وصلت إلى مدينة قم قد انتهيت بعد من دراسة المقدمات؛ لأكون مؤهلاً للدخول في دائرة «المعقولات» بيد أنّي كنت أنتشي وأشعر باللذة تملأ وجودي وأنا أحضر الدرس الأخلاقي في يومي الخميس والجمعة، الذي كان يلقى من تلك الشخصية المحبوبة إلىٰ نفسي.

وفي الواقع لم يكن الدرس درساً في الأخلاق بمفهومها العلمي بل كان درساً في المعرفة والسلوك.

أستطيع أن أقول دون مبالغة أنّ ذلك الدرس كان يسيطر عليّ ويضعني في دائرة نفوذه إلى الحدّ الذي يستمر تأثيره عليّ حتىٰ الاثنين والثلاثاء من الأسبوع التالي.

أشعر أن جزءاً مهماً من شخصيتي الفكرية والروحية تشكلت من خلال ذلك الدرس وما لقيتُه من ذلك الأستاذ الربّاني من دروس أخرىٰ طوال مدة اثني عشر

عاماً؛ وأشعر بأنّي مدين له على الدوام. إنّه كان بحق روح الله القدسية[1].

والمقطع الاول من النص ـ الذي حذفناه ـ كان يشيد فيه مطهري بتلمذه علىٰ يد المرحوم ميرزا مهدي شهيدي الرضوي أستاذ الفلسفة الإلهية في مدينة مشهد آنذاك.

في مجلس الثورة

لم تتهيأ لكبار رجال الثورة الفرصة لكتابة مذكراتهم، بيد أن كلمتهم تجتمع على أن مطهري كان محور «مجلس الثورة» الذي قاد المراحل الأخيرة من النضال، وأشرف على تأسيس الدولة بعد الانتصار.

الشيخ هاشمي رفسنجاني يتحدّث بشكل موسّع عن هذا الجانب من شخصية مطهري، ويشير إلىٰ أنّ الإمام الخميني كلّف الشهيد مطهري أثناء زيارة الأخير إلى باريس، أن يبادر إلى تشكيل نواة سداسية تضم: الشهيد بهشتي، السيد الخامنئي، السيد موسوي أردبيلي، الشهيد باهنر، الشيخ مهدوي كني والشيخ هاشمي رفسنجاني، على أن يكون محورها الشهيد مطهري ثم تضم من تراه مناسباً من القيادات الأخرىٰ بحيث تتحوّل هذه النواة إلى مركزٍ لقيادة الثورة ووضع البدائل العملية للنظام البائد من خلال صياغة برنامج واضح للنظام الجديد.

يؤكد الشيخ رفسنجاني أنّ الإمام كلّف مطهري شخصياً للاضطلاع بهذه المهمة، وبالتالي كان هو المحور والرابط بيننا وبين الامام.

---

(١) علل گرايش به ماديگري، مرتضى مطهري، ص ٨ ـ ٩ (بالفارسية) ولم يصرّح مطهري باسم الامام واكتفىٰ بالكناية نظراً للأوضاع السياسية التي كانت سائدة وقتذاك.

أما الشيخ أنواري أحد العلماء البارزين والعضو المؤسس لجماعة علماء طهران المجاهدين، فيقول بشأن دور مطهري في تشكيل مجلس قيادة الثورة، إنه كانت له حظوة كبيرة لدى الإمام، وعندما قدم إلى باريس أظهر الإمام عناية خاصة به، وعندما بدأ الحديث يدور حول تشكيل حكومة أو مجلس للثورة ينهض بإدارة شؤون البلد وتوجيه الحدث في تلك الفترة، طلب منّا الإمام أن نجلس معاً ونتدارس الموضوع، ثم نخرج باقتراح محدّد.

يضيف أنواري: اجتمعنا بالفعل أنا والدكتور يزدي والأستاذ مطهري والسيد مجد محلاتي وآية الله صدوقي وشخصان آخران، وقد تمخض هذا الاجتماع عن تبلور فكرة مجلس قيادة الثورة التي بتّ فيها الإمام أخيراً، بالصيغة المعروفة.

أشدّ ما يلفت نظر الشيخ رفسنجاني ـ وكذا أعضاء المجلس الآخرين من أعضاء النواة التأسيسية ـ هي حساسية مطهري إزاء التيارات الفكرية غير الإسلامية. فقد كان يؤكد على بقاء مجلس الثورة بعيداً عن تأثيراتها، وبالتالي كان حريصاً على أن لا يفسح المجال لنفوذها.

وتنفيذ هذا الأمر عملياً كان شاقّاً في ذلك الوقت، فالخطوط متشابكة وجميع التيارات تستبد بها رغبة عارمة في الالتفاف على الثورة والاقتراب من مركز القرار، وبالذات من المجلس الثوري.

يذكر رفسنجاني أنه كانت هناك أطروحة تريد لجميع التيارات أن تجد تمثيلاً لها في مجلس الثورة، بدءاً من الخط الجامعي والليبرالي إلى الخطوط اليسارية وغيرها، بل طمع حتىٰ «التكنوقراط» (أهل الاختصاص) من بقايا النظام البائد أن يكون لهم ممثل في المجلس.

وقف مطهري بحزم أمام هذا الاتجاه، ثم خاض المعركة على جبهة ثانية هي جبهة وزراء الحكومة الموقتة، إذ برز تصوّر يقول بضرورة تشكيل الحكومة الائتلافية، فما كان من مطهري إلا أن واجه هذا التفكير داخل المجلس مؤكداً خطورته فيما يستتبعه من إسباغ شرعية على جميع الاتجاهات والخطوط، فضلاً عن المشكلات التي يقود إليها.

وعلى ذكر الحكومة الموقتة، ننقل على ذمة الشهيد محلاتي ما كان ذكره عن تقييم مطهري لهذه الحكومة، في مجال حديثه عن وضوح مطهري وصرامته وعدم إيمانه في العمل السياسي بالضبابية والمواقف المواربة وأنصاف الحلول. فبعد أن أشار إلى مجموعة خواطر، عاد ليقول بالنص: هناك نقطة ربما لم أذكرها في مكانٍ حتىٰ الآن ترتبط بتقييم الأستاذ للحكومة الموقتة، إذ كان يقول: لكل حكومة من الحكومات السابقة اسم تعرف به، فهناك حكومة الائتلاف الوطني...؛ أما الحكومة الموقتة فأنا أسميها «حكومة البُلّه والحمقىٰ» لأن الغرور بلغ بهؤلاء حداً جعلهم يرون لأنفسهم رأياً مستقلاً مقابل رأي الإمام!

ومما يذكره رفسنجاني من حساسية مطهري في هذا المجال ما يعود إلى الأيام الأولىٰ لانتصار الثورة، حيث أخذ رفسنجاني ومطهري على عاتقهما إدارة بيت الإمام الخميني، لأيام قلائل، أظهر فيها مطهري حذراً كبيراً من اختراق غير الإسلاميين من رموز ومجموعات لبيت الإمام، بحيث أبدىٰ للحيلولة دون ذلك يقظة ووعياً كبيرين.

ومما له دلالة على حساسية مطهري لنفوذ الاتجاهات غير النقية إلى بيت الإمام، أو محاولتها محاصرة الإمام في دائرة نفوذها، ننتقل إلى حادثة مهمة يذكرها

الشهيد محلاتي عن الأيام الأولى لقدوم الإمام إلىٰ طهران، إذ يقول: كانت لجنة استقبال الإمام ـ عد قدومه من باريس ـ تدار من قبل ثلاثة أشخاص؛ هم: الشهيد مطهري، والشهيد مفتح، وأنا، وقد كان الشهيد مطهري بمثابة العقل المفكر لمراسم الاستقبال.

لقد أحسّ في ذلك الوقت أنّ مجموعة خاصة تحاول أن تحاصر الإمام تحت نفوذها عبر ترتيب مسألة استقراره في مدرسة «رفاه». فاتح مطهري الشيخ المنتظري بذلك، فاتفقا على نقل الإمام من مدرسة «رفاه» إلى مدرسة «علوي» بشكل بدا عادياً لا يثير حفيظة الآخرين، بيد أن هذه الخطوة أفشلت نوايا تلك المجموعة.

ثمة تصوّر قد يرمي أهل القلم ـ خصوصاً من هم كمطهري لصيق الصلة بالفلسفة والمنطق وبالتحليل العقلي الصارم ـ بالقساوة وجمود العاطفة والبعد عن الإحساس الإنساني المرهف. بيد أنّ السيرة الشخصية لهذا الرجل تكذّب هذا التصوّر. واللقطات التي تروىٰ كثيرة، في الدلالة على الخصوبة العاطفية والإحساس المرهف لديه؛ من ذلك: ما يذكره هاشمي رفسنجاني في ذكرياته من أن نظام الشاه اعتقله (الشيخ رفسنجاني) وأرسله مع مجموعة من المعممين الآخرين للخدمة العسكرية الإجبارية، وذلك في خطوةٍ هدِف منها مواجهة المدّ العلمائي المعارض وضرب الحوزة في صميم وجودها.

وقد حصل أن زاره مجموعة من الأصدقاء؛ من بينهم مطهري، ثم جاءت بعد ذلك عائلة الشيخ (رفسنجاني) لزيارته، وكانت ابنته الكبيرة لا تتجاوز الثلاث سنوات يومئذ، فلم تعرف أباها وتميّزه وهو يرتدي البدلة العسكرية، فما كان من

الشيخ إلا أن حملها ولاعبها، فلما أنست به وعرفته، التفتت إليه تقول: بابا! هل أصبحت شرطياً؟ يقول الشيخ رفسنجاني: أثار هذا الموقف عاطفة الحضور، وكان الشهيد مطهري أشدّهم تأثراً، بحيث أخذ يبكي.

التوازن مع العبادي

من مشكلات البعض أنّه ينزع نحو حالة من اليبوسة والجمود والقسوة إذا قدّر له أن يشتغل بممارسة العمل الفكري، خصوصاً إذا كان الفكر من النسق الذي يتصل بالفلسفة والعقليات؛ كما هو شأن مطهري مثلاً الذي نيّفت آثاره وكتاباته الفلسفية على العشرين كتاباً بين هوامشه على كتاب «أصول الفلسفة» للسيد الطباطبائي وشروحه للمنظومة والأسفار وشفاء ابن سينا، وقد يصاب بحالٍ من الغرور والاستعلاء تخلقان فيه شعور الاستغناء عن الطاعة والعبادة والدعاء والذكر والتوسّل والنوافل وغير ذلك، أو على الأقل تخف لديه هذه الممارسات.

وفي مثال الشهيد مطهري تجتمع كافة الآراء على الشهادة له، بالتوازن بين الفكري والعبادي. فبالإضافة إلى صلاة الليل والتلاوة اليومية لكتاب الله، كانت له مع أهل البيت (عليهم السلام) علقة خاصة؛ ومع نهج البلاغة رحلة يصفها بكلامٍ ممتع.

نعود إلىٰ مثال سبق أن أشرنا إلى بعضه؛ حيث يذكر الشيخ المنتظري أنّ علاقته مع الشهيد مطهري تعود إلى الأيام الأولىٰ في الدراسة الحوزوية، حيث بدأ شوطها باقتراح تقدم به مطهري إلى منتظري أن يتباحثا معاً في درس «الكفاية» اذ كانا يحضرانه عند السيد محمد الداماد في المدرسة الفيضية.

يقول منتظري: تلقيت في البداية هذا الاقتراح ببرود، ولكن سرعان ما أخذت علاقتنا تنمو وتطّرد، بحيث ازداد أُنسنا ببعض، وباتت المباحثة بيننا لا تقتصر على مسائل الدرس، بل تتعدىٰ ذلك إلى مختلف المسائل الإسلامية، وحتىٰ المسائل الفلسفية والعرفانية على قدر استعدادنا آنذاك. ثم تطورت إلىٰ علاقة حميمة بحيث انتقلتُ للسكن في المدرسة الفيضية بعد أن ألحّ الشهيد مطهري عليّ، وأصبحنا زملاء في الدرس والبحث، وفي حضور المجالس والزيارات، وفي قضاء أوقات الفراغ، وحضرنا معاً درس الإمام الخميني في الأخلاق عصر يومي الخميس والجمعة.

يشير الشيخ المنتظري بعد ذلك إلى المواصفات الأخلاقية والمعنوية العالية التي كان الشهيد مطهري يتحلّىٰ بها، وكيف أنّه بقي علىٰ هذه الصفات حتىٰ بعد أن عاش في طهران طويلاً، بحيث لم يتأثر سلبياً بالمحيط، بل أثّر هو إيجابياً فيه.. إلى أن يقول: من خصائص المرحوم التزامه الشديد بالذكر والدعاء والتهجد وقيام الليل وعلاقته المفرطة بذلك.

فلازلت أذكر ـ يقول الشيخ منتظري ـ أنه كان ملتزماً بأداء صلاة الليل منذ الأيام الأولى التي جمعت بيننا، وكان يحرّضني على الالتزام بها أيضاً، فكنت أتعلل بأنّ ماء حوض المدرسة مالح وملوّث يؤذي عيني. وقد استمر تعللي حتىٰ رأيت في إحدىٰ الليالي، في المنام، عثمان بن حنيف، وقال لي: أنا رسول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إليك، وهو يأمرك بالنهوض وأداء صلاة الليل، وقد بعث إليك بهذه الرسالة. وقد كانت قطعة صغيرة كتب عليها بخطوط خضراء مضيئة: «هذه براءة لك من النار». اعترتني الحيرة وأنا في المنام من هذه الرؤيا، وفي هذه اللحظة أيقظني

المرحوم آية الله المطهري من نومي، وهو يحمل بين يديه إناءً فيه ماء، وقال: هذا ماء حلو جئتُ به من النهر، انهض وأقم صلاة الليل ولا تتعلل.

والمهم في هذا الالتزام هو عدم التظاهر به، أو أن يتحرك صاحبه بطريقة مثيرة تلفت النظر إليه.

وفي ذلك يقول الشيخ مهدوي كني في إلماحة مهمة عن هذا الجانب: واحدة من خصائص المرحوم مطهري أنّه لم يكن يتظاهر بالتقدّس، تماماً كالإمام الخميني، خصوصاً وإنّ ما يعرفه بعضهم من خلال ظاهره يتجاوز ما هو عليه فعلاً وفي الباطن.

يضيف: ربما أكثرنا لم يكن يعرف أنّ المرحوم مطهري كان من أهل التهجّد، لأنه لم يكن يتظاهر بذلك. والذي تذكره السيدة زوجته، أنّه كانت له غرفة يمضي فيها الليل بالتهجد وقراءة القرآن في جوف الليل. فبعد أن يأتي المنزل ليلاً وقد انتهىٰ من مهامّه في الجامعة وفي المجالس العامة، كان يتوضأ ويقرأ آياً من القرآن ثم ينام، لينهض بعد ساعات لأداء صلاة الليل.

يضيف الشيخ كني: أجل، هكذا كان هذا الفقيه والفيلسوف والعارف.

كثيرون يمكن أن يفقدوا صفاءهم الباطني حين يصبحون أهل فلسفة واصطلاح، فيصابون بالغرور العلمي ويبتعدون عن المسائل العبادية. أما الذي ينظر إلىٰ العبادة كركن ثابت وقارّ، فلن يكتفي أبداً بالعلم والاصطلاحات العلمية.

إنه لخطأ ما يردده الكثير من طلبة العلوم الدينية من القول: ما دمنا ندرس فلا حاجة لنا بالعبادة. هذا خطأ. فالدرس بدون عبادة وتضرع يتحول إلى حجاب. هذا هو المراد ـ من قولهم ـ العلم هو الحجاب الأكبر.

لقد كان مطهري أستاذاً فاقنا جميعاً بأضعاف في الدراسة والكتابة، بيد أنّه لم يترك عبادته ومستحباته وقرآنه.

ومما يذكره السيد عبد الكريم موسوي أردبيلي أنّ رفقته مع الشهيد مطهري بدأت منذ عام ١٩٤٠ وقد كان ملتزماً بأداء صلاة الليل منذ عرفه حتىٰ تأريخ استشهاده. ومما ينقله أيضاً أنه زار منزل الشهيد لتقديم التعازي لأهله، فذكرت زوجته أنّه حصل للشهيد مطهري قبل ليلتين من استشهاده أن نهض بحالٍ عجيبة. فقد كان من عادته أن يضرب الأرض برجله حين يريد أن يستيقظ لأداء صلاة الليل، وقد انتبهت من نومي في تلك الليلة على صوت ضربات رجله، وقد لاحظت أنه استيقظ في وقتٍ مبكر، مقارنة ببقية الليالي، وكان في حالٍ عجيبة، فسألته: ما الخبر؟ أجاب: رأيت رؤيا غريبة، فقد رأيت نفسي مع الإمام الخميني، وحدنا في بيت الله الحرام، وقد فتح باب البيت الشريف ونزل منها النبي فتقدم نحوي وعانقني. أصابني الارتباك لوجود الإمام معي، فقلت: يا رسول الله، هذا ولدك. أجاب النبي الأكرم: أجل، وتقدم نحو الإمام الخميني ملاطفاً، فقبّل الإمام، ثم عاد لي، ووضع شفتيه على شفتي حتىٰ أنّني ما أزال أحس بحرارة شفتي النبي الأطهر على شفتي.

تقول السيدة مطهري، سألته: وكيف تفسّر هذه الرؤيا؟

أجاب: سيطرأ على حياتي تغيير جذري كبير.

ونبقىٰ مع الجانب العبادي والمعنوي، ولكن هذه المرّة مع (طاهري خرّم آبادي) الذي لخّص جوانب شخصية الشهيد أخلاقياً في إطار أربع نقاط هي:

١ ـ إنّه لم يخرج أبداً عن الزي المتعارف لطلاب العلوم الدينية، إذ يذكر أن طول

مكوثه في طهران وكونه أستاذاً في الجامعة زمن الشاه، لم يؤثرا أبداً عليه.

٢ ـ إنّه كان من أهل الدعاء والتضرع. ومن الوقائع الدالة، أنّهم نقلوا له يوماً خبر الحكم على الشيخ المنتظري بالسجن عشر سنوات، فتألم كثيراً، ثم أخذ القرآن ومفاتيح الجنان، وشرع بالتلاوة، حتىٰ إذا خشع قرأ له دعاء التوسل بالنبي وآل النبي (صلوات الله عليه وعليهم أجمعين).

٣ ـ كان ملتزماً بقراءة القرآن ليلياً قبل أن ينام، كما كان ملتزماً بقراءة الدعاء بالإضافة إلى القرآن في ليالي الجمعات، ولم يكن يغفل عن التزامه في حال السفر، وحتىٰ حين يكون مضطراً للمبيت خارج منزله.

٤ ـ إنّ الشهيد مطهري كان منظماً في أدائه العبادي، وفي ممارسة بقية نشاطاته الأخرىٰ، بحيث يستثمر الوقت، ويربط إنجاز الأعمال ببرامج زمنية محدّدة وواضحة.

لمحات علمية

نلمح الكثير من الخواطر الدقيقة والطريفة في ذكريات الآخرين من زملاء وتلامذة الشهيد مطهري. على سبيل المثال: يذكر الشيخ واعظ زاده عُلقة مطهري الشديدة بمدرسة صدر المتألهين الشيرازي في الحكمة المتعالية، حتىٰ بلغ الأمر إلى ضربٍ من التعصّب كما يلوح ذلك من واقعة دفاع مطهري عن صدر المتألهين حين ذكر بعضهم في مجلس من مجالس أهل العلم كان قد حضره الشهيد بهشتي وآخرون، أن بعض العبارات أخذها الشيرازي نصاً من الفخر الرازي، بل ثمة تطابق في العبارة بين كتاب «الأسفار» لصدر الدين وكتاب «المباحث المشرقية» للرازي.

انفعل مطهري في الدفاع عن صدر الدين، وكان التعليل الذي ساقه في هذا المقام يتلخص بأنّ هذا الأمر يحكي عن عرف متداول في مؤلفات الأقدمين، حيث كان بعضهم إذا ارتضىٰ رأياً لآخر وقبله، يدرجه بنفس عبارة من أخذ عنه.

وفي الشأن الفلسفي يذكر الشيخ واعظ زاده أنّ الفلسفة كانت عماد تفكير الشهيد مطهري ومقوماً لفكره قبل أية معرفة أخرىٰ، وكان ينظر إلى بقية العلوم من مشارف الرؤية الفلسفية.

بيد أنّه يسارع للقول: لا أقصد أنه كان يخلط مباحث العلوم الأخرىٰ، كالفقه والأصول والتفسير والحديث والتأريخ، بالفلسفة واصطلاحاتها، كما هي عادة المتفلسفة والمتظاهرين بالفضل. أبداً، بل إنه كان يبحث في كل علم عن القواعد الفكرية الأصيلة التي يقوم عليها، فهذه القواعد كانت تمثل الفلسفة بعنوان كونها الأصول الموضوعة والجذور التي تعود إليها جميع العلوم.

وفي الوقت نفسه، لم يكن ميالاً لإقحام المصطلحات الفلسفية وخوض البحوث العقلية في كل مجال ومن دون مناسبة.

ومع إيمان مطهري العميق بفلسفه الحكمة المتعالية، وهي نقطة تلاقي العرفان بالفلسفة والاتجاه الإشراقي بالمشائي، إلا أنّه كان يكتب بصيغة برهانية جافّة بعيدة كل البعد عن الوجد والأشواق العرفانية، وفي هذه الخصلة كان يتطابق تماماً مع العلامة الطباطبائي، ويختلف مع أستاذه الأسبق الإمام الخميني، بل نجد أن هذا الأسلوب يتغاير مع طريقة صدر الدين الشيرازي نفسه في الكتابة وتدوين الأفكار.

ثمة تصوّر يفصل بين الفكر الفلسفي وبين أثره في الأبعاد الأخرىٰ من حركة

الحياة، كما يرفع الفلسفة إلى رتبة المعرفة النخبوية التي يستحيل معها التبسيط، والذي يراه السيد الموسوي الأردبيلي أن من أبرز معالم التجديد في النهج الفكري لمطهري أنّه استطاع أن يدفع الفلسفة إلىٰ متن المجتمع، بحيث أهّل قاعدة اجتماعية عريضة وجذبها للولوج في مستوىً من مستويات البحث الفلسفي وما يكتنفه من قضايا.

وهذه الخصوصية ربما تعود إلى الهمّ التغييري الاجتماعي الذي اضطلع به مطهري، فلو كان همّ مطهري البحث الفلسفي المجرد، لانزوىٰ جانباً وقنع بالمعرفة الشخصية العالية، المنقطعة عن مسؤولية التغيير الاجتماعي، أما وإن المنطق هو الدين، والهدف هو التغيير الاجتماعي، فلا بد من أن يسلك السبيل الذي سلكه.

وهذه الخصلة في الواقع تعيد لنا صورة البحث الفلسفي عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر، الذي جعل المجتمع مدخله. وفي تقييم ذلك يكتب الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «إنه في (فلسفتنا) يعتبر أنّ المدخل لفكره الفلسفي هو المسألة الاجتماعية. أنا لا أتذكر أن معالجة فلسفية مؤصلة وأصيلة تجعل حافزها ومدخلها المسألة الاجتماعية. وهذا يكشف عن خصوصية أخرىٰ هي ليست لمحمد باقر الصدر بل هي لكل من ربي على القرآن والإسلام، إن الفكر الفلسفي الذي هو أعلى مستوىً من التجريد الفكري، يلتصق ويتلاحم مع الفكر الاجتماعي الذي هو أدنىٰ مستويات الكثافة الحياتية المادية الملتصقة بهذا الفكر»[1].

ومادمنا نتحدّث عن علاقة مطهري بالفلسفة، فمن المفيد أن نشير إلى أن

---

(١) لقاء مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين حول الشهيد الصدر، صحيفة القرار اللبنانية، العدد الصادر بتاريخ ٢٠ / رجب / ١٤٠٥ هـ.

تطلعات الشهيد إلى الفلسفة لم تقتصر على تياراتها الإسلامية، بل تعدّت ذلك للتعرّف على الفلسفة الغربية في تياراتها ورموزها ونزعاتها. ولكن يجب عدم المبالغة في هذا الجانب، ذلك أنّ مطهري كان يجهل مع بقية الرموز الذين تصدّوا لمناقشة الفلسفة الغربية والردّ عليها، اللغات الأصلية التي كتبت بها تلك الأفكار، خصوصاً اللغات الأم كالألمانية والإنكليزية والفرنسية. وهذه الملاحظة ليس فيها ما يقلل من كفاءة الجهاز العقلي لدىٰ مفكرينا في استيعاب الأفكار ونقدها، بل هي إشارة إلى عدم دقة تلقي تلك الأفكار وعدم الدقة في فهمها، من خلال عدم دقة الترجمة التي يعتمد عليها، خصوصاً وإن بعض الترجمات تكون بواسطتين عن اللغة الأم، إذ قد يترجم النص الفلسفي من الألمانية إلى الفرنسية أو الإنكليزية، ثم منها إلى العربية أو الفارسية.

وأما بالنسبة إلى مطهري بالذات فقد كان يعتمد في التعرف علىٰ الفلسفة الغربية على مترجماتها باللغتين العربية والفارسية، ولذلك ترىٰ الشهيد بهشتي (يقرأ ويتحدث باللغات الأوربية الأساسية وقد مكث أكثر من خمس سنوات في ألمانيا) يومئ إلىٰ هذه النقطة ويشير إلىٰ أنّ الشهيد مطهري وإن كان له اطلاع ممتاز على متون الفلسفة الإسلامية، إلا أنّ اطلاعه على الفلسفة الغربية اقتصر على ما ترجم منها إلىٰ اللغتين العربية والفارسية. وقد أكّد الشهيد بهشتي على هذه النقطة أكثر من مرّة.

وفي الواقع لا يقتصر هذا النقص على مطهري وحده، بل يشمل بقية الرموز الفكرية التي تصدّت للفلسفة الغربية في ساحتنا. فلو أردنا أن ننظر إلىٰ أعمال السيد الطباطبائي والشهيد الصدر والشهيد مطهري، بوصفها أبرز الأعمال الفكرية التي

تصدت للفلسفة الغربية في تياراتها ورموزها ومواقفها، فإنّ الذي يؤسىٰ له حقاً أنّ أيّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة الكبار لم تتسنّ له فرصة قراءة أصول الفكر الفلسفي الغربي بلغاته الأصلية؛ لعدم معرفتهم بتلك اللغات، مما أبقاهم أسرىٰ النصوص المترجمة مع ما يعتور الترجمات من عدم دقة وعدم أمانة أحياناً، ومن الوقوع في أسار ما ينتخبه المترجم من نصوص الفلسفة الغربية.

نعود الآن إلى الشهيد مطهري في خصلة أخرىٰ تتمثل بوضوح أسلوبه وسهولته في التدريس مع الحفاظ على عمق الأفكار. يقول أحد تلامذته، الشهيد محلاتي: كان الأستاذ يتحلّىٰ في الجانب التعليمي بنعمٍ وافرة، هي: الاستعداد الجيد، البيان الواضح، والنثر الجميل المكتمل. كان يُدرِّس بأسلوب الأنبياء وفق القاعدة النبوية «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»، فقد كان الالتزام بهذه القاعدة إحدىٰ خصوصيات الشهيد المطهري، الذي كان بميسوره أن يتنزل بأعقد الافكار وأعمقها إلى الحدّ الذي يفهمه السامع.

وقد حرص على هذه الخصلة في مؤلفاته، إذ كان يأخذ بالحسبان تعدد مستويات المخاطبين، ففي الوقت الذي كتب شروحه على «أصول الفلسفة» وألفّ «العدل الالهي»، تراه يكتب «قصص الأبرار» أيضاً.

يضيف محلاتي: كان طلابه ينجذبون إليه بشدّة ويقعون تحت تأثيره بعنف، لأنهم مقتنعون بعلمه وتقواه معاً.

طبيعي أنّ هناك مجموعة مكثفة من العوامل تساهم في صقل الأسلوب وتمكين الأستاذ من البيان السهل الواضح مع الحفاظ على عمق الفكرة، وربما كان في طليعة هذه العوامل استيعاب الإنسان للأفكار وتمثله لها بشكل جيد، وعدم اقتصاره على

المعرفة اللفظية أو الاصطلاحية التي تعوّد الإنسان قول المصطلحات الفخمة دون أن تكون وراءها معانٍ محدّدة.

وربما كان أفضل ما يدل على عمق الاستيعاب هي الواقعة التي ذكرها المرحوم السيد الطباطبائي من علىٰ شاشة تلفزيون الجمهورية الاسلامية، حين تحدّث عن مطهري، بعد استشهاده، حيث قال: لكي يصل المرحوم مطهري إلى عمق مسألة «القوة والفعل» التي طرحت للبحث في «أصول الفلسفة» أخذني معه إلى طهران وأبقاني في بيته أسبوعاً كاملاً، حيث تباحث معي في المسألة لكي يستوعبها بعمق ويستطيع أن يكتب حواشيه عليها، ولم يقتنع إلا بعد أسبوع كامل من البحث.

وفي كل الأحوال يجمع من استمتع بالدرس العام أو الخاص على يديه، أنّه كان يتجاوز متن الكتاب، ويحيط الدرس بثقافة واسعة وممتعة عن الموضوع، ينقل من خلالها أفق الدارس إلىٰ مجالات جديدة. أي أنه لا يكتفي بفك العبارة وشرحها وتطبيق النص، بل كان ينطلق من النص في بيانٍ ثقافي واسع يجول من خلاله في الآراء والاتجاهات التي تناولت الموضوع، كما يشير إلى ذلك، مثلاً، السيد طاهري خرّم آبادي بخصوص تدريسه لأسفار صدر الدين الشيرازي، إذ يُشبّه أسلوب مطهري في الدرس بالأسلوب المتداول في البحث الخارج، حيث كان يتناول، بعد طرح الفكرة، آراء الشيخ الرئيس والفارابي والسبزواري وشرّاح الأسفار، وكانت هيمنته على الأفكار وإحاطته بالآراء، كمن يمسك بالشمع بين يديه يُصيّره بأي شكل شاء.

هذه لمحات سريعة عن الجانب العلمي في شخصية مطهري أحببنا أن نختمها بما قاله عنه أستاذه الطباطبائي (صاحب الميزان) وبالنص: حين كان مطهري يحضر

دروسي، كنت أشعر بحالة من السرور والفرح والشوق؛ لأني أعرف أن ما سأقوله لن يذهب هدراً، بل يبقىٰ محفوظاً ـ وتعيه أذن واعية ـ ثم راح الطباطبائي يبجل بمطهري الذي رافقه وتتلمذ عليه منذ أن كان في الخامسة والعشرين من عمره.

وحين سُئل الطباطبائي عن علقته المعنوية وارتباطه الروحي بمطهري ـ وكان اللقاء تلفزيونياً ـ اعتذر عن الجواب، وقال إنه لا يستطيع أن يتحدّث عن ذلك لشدة تأثّره لفقدان الشهيد مطهري، بحيث لا يقوىٰ على تناول هذا الجانب.

الهمّ الفكري

شكّل الفكر شاغلاً أساسياً من شواغل الشهيد مطهري التي ملأت عقله ووعيه واستوعبت جوانب حياته. وقد عاش الفكر هماً دينياً؛ وعاش الفكر بوضوح والتزم به بصرامة، وراعىٰ في ممارسته الفكرية مبدأ الأولويات ما استطاع.

وهذه الصفات الثلاث: الحمية الدينية في ممارسة الفكر، والشجاعة في إبداء الرأي، والصرامة في الالتزام الفكري، وأخيراً مراعاة الأولويات، مدّت ظلالها على الممارسة الفكرية للشهيد مطهري في مختلف أشواط حياته، وكانت من القوة بحيث تركت بصماتها علىٰ جميع الذين اقتربوا إليه وتعاملوا معه. وفي هذه الفقرة نسوق من ذكريات زملاء مطهري ومن خواطر أصدقائه من العلماء والمفكرين ما يدلّ عليها.

وأوّل ما أودّ أن أذكره مما له دلالة حاسمة، هو ما كان يتمناه الإمام الخميني، في أن يرىٰ دور مطهري الفكري يتفتح ويأخذ مداه الكبير في تجربة الجمهورية الإسلامية، حيث يذكر الشهيد صدوقي أنّه سمع من الإمام قوله عن مطهري في

حياته: لي رغبة وطيدة أن أرىٰ مطهري يمارس دوره في عهد الجمهورية الإسلامية، وأن يستفيد منه المجتمع الإيراني والأخوة المسلمون بأقصىٰ ما يمكن.

وهذه الرغبة للإمام الراحل تعيدنا إلى ما كان يتمناه مطهري نفسه وما يظهره من شوق للمطالعة وعلاقة وطيدة بالكتاب والكتابة تبلغ حدّ الشوق والوجد، إذ ينقل عنه زميله في الجامعة الشهيد مفتح الذي كان يحاضر في طلاب كلية الإلهيات بعد أيام من استشهاده، أنه قال له حين كانت النهضة قد بلغت أوجها وأصبح انتصارها محققاً: والله لا أريد أيّ منصب إذا انتصرت نهضة إمامنا وقائدنا. إنني راضٍ بحياتي هذه، وإنّ أفضل لذة أتذوّقها هي حين أكون في مكتبتي. لا أريد سوىٰ الجلوس والتفرغ للكتابة والبحث والدفاع عن الإسلام العزيز.

ولم يكن الهم الفكري في حياة مطهري يعبر عن نفسه بشكل عشوائي ومبعثر، بل كان يصب في برامج وخطط عمل كلما كانت الأوضاع مؤاتية والإمكانات متوافرة؛ من ذلك: المشروع التبليغي الذي يذكره الشهيد بهشتي، يقول: اجتمعنا في غرفة الشيخ عباس ايزدي في مدرسة الملا صادق في مدينة قم في ربيع العام ١٩٤٧ ، أنا والشيخ المنتظري والمرحوم مطهري، ودار الحديث عن أهمية الانطلاق بالدعوة والتبليغ إلىٰ القرىٰ. وقد عقدنا العزم على أن نذهب إلى عدد من القرىٰ، ونزوّد المبلّغ بـ(١٠٠) تومان. ولما كان من الصعب توفير المبْلغ من خلال إمكاناتنا الخاصة، وضعنا السيد البروجردي، في صورة المشروع من خلال الإمام الخميني، فأمّن المبالغ التي نحتاج اليها.

استطعنا في تلك السنة أن نبعث من أوساطنا (١٧) مبلّغاً، وعندما عدنا من التبليغ، قررنا أن نستفيد من يومي الخميس والجمعة حيث تعطل الدروس

الحوزوية، في وضع برنامج خاص نتوفر من خلاله علىٰ مطالعة ما يغذي وعينا وما يسد حاجاتنا في ممارستنا للتبليغ. لذلك انتخبنا سبعة اختصاصات وزّعناها على مجموعتنا التبليغية (١٧ مبلّغاً) حسب الفروع التالية: الإسلام والفلسفة المادية، الإسلام والأديان الأخرىٰ، التفسير والأخلاق، التأريخ، ثم وزعنا فرع (الإسلام والأديان الأخرىٰ) إلى ثلاث شعب.

لقد عملت أنا والمرحوم مطهري والشيخ المنتظري على مبحث «الاسلام والفلسفة المادية» وكان كتاب فريد وجدي «على أطلال المذهب المادي» هو محور بحثنا.

لقد استدام هذا البرنامج البحثي ـ الفكري حتىٰ سنة ١٩٥٣، اشتركنا بعدها في بحث الأستاذ العلامة الطباطبائي، في الفلسفة، الذي دام حتىٰ سنة ١٩٥٧ وكانت محصلته كتاب «أصول الفلسفة». بيد أنّ الذي حصل أنّ المرحوم آية الله مطهري غادر قم إلى طهران سنة ١٩٥٣، ولكن مع ذلك استمرت آصرة الصداقة والعلاقة الفكرية فيما بيننا، حتىٰ انبثق في طهران مشروع عمل فكري جديد من خلال جلسات «حديث الشهر».

يضيف الشهيد بهشتي: كنا أيضاً إلى جوار بعضنا في مشروع تأليف كتاب «بحث حول المرجعية والعلماء» حيث أعددنا مادته من خلال جلسات عمل مشتركة.

مغادرة مطهري إلى طهران واشتغاله في كلية الإلهيات وفي جلسة «حديث الشهر» ودوره في حسينية الإرشاد، وصعوده المنبر للخطابه الحسينية، كل ذلك لم يمنعه من إيقاء خطوط الاتصال مع الحوزة العلمية في قم، خصوصاً وإنّ الجيل الطالع

في هذه الحوزة، المتفتح بالوعي وبهمّ التغيير الاجتماعي على أساس الإسلام، كان يجد نفسه في أشدّ الحاجة إلى فكر الشهيد مطهري.

وفي هذا المضمار يذكر السيد طاهري خرم آبادي أحد تلامذة مطهري أنّهم في حوالي سنة ١٩٧١ أخذوا يفكرون بشكل جادّ بإعادة الشهيد مطهري من طهران إلى الحوزة القمّية مجدداً، أو أن يأتي على الأقل بعض أيام الأسبوع، وذلك لمواجهة تيارات الفكر الالتقاطي والاتجاهات المتغربة، خصوصاً وإنّ الفكر الالتقاطي أخذ يروّج تفسيراً منحرفاً للإسلام والقرآن من خلال التذّرع بالثورية وبالفكر المادي.

يقول خرّم آبادي: الذي يؤسف له أنّ هذه الأفكار أخذت تطرح من قد بعض طلبة العلوم الدينية أيضاً.

انتهىٰ هذا التفكير بالاتفاق على أن يقدم مطهري إلى قم عصر الأربعاء ويمكث فيها حتىٰ عصر الجمعة، حيث شرع بدرس «أسفار» عام، وإلى جواره درس خاص في المنازل، ولكن بمستوىً أرفع، كما كان يلقي بحثاً خاصاً عن الماركسية وفلسفة التأريخ.

لقد استمر برنامج مطهري هذا حتىٰ انتصار الثورة الإسلامية، وبعد الانتصار جاء الشهيد للتدريس إلىٰ قم مرة أو مرتين، حيث بدأ ببحث موضوع «الحكومة الاسلامية»، وكان من المقرر أن يستأنف درسه العام «الأسفار» لولا أن عاجلته الرصاصات الغادرة.

وكان من مشاريعه الفكرية، المتروع الذي يذكره السيد طاهري خرّم آبادي، من أن الشهيد مطهري أخذ على عاتقه شخصياً مشروع تأسيس لجان البحث، وذلك قبل أن تتصاعد أحداث الثورة. حيث حضر إلى قم، وأعدّ بنفسه

أسئلة في مستوىً عالٍ حول الفقه والفلسفة والمنطق وغير ذلك من المعارف، وقد تم امتحان الطلبة المتقدّمين في المسجد الأعظم. وكانت بقية أجزاء المشروع تقضي بأن ينتخب المتفوقون في كل حقل من المعارف المشار إليها، ويعيّن لهم مسؤول يتحلىٰ بتأهيل علمي ممتاز في حقله، يشرف على المجموعة ويوجه نشاطها العلمي، لما يقود إلى الإنتاج الفكري. بيد أنّ الذي عطّل المشروع في منتصف الطريق هي أحداث الثورة التي تصاعدت بشدّة.

لقد كان مطهري يتحلّىٰ في معلَم آخر من معالم شخصيته الفكرية بنصاعة الخط الفكري وبالتزامه الصارم بما يؤمن به. في مرة يذكر الشهيد مفتح: دعوناه لكي يرتقي المنبر ويقرأ مجلساً حسينياً، وكان ذلك في مسجد «جاويد» شعرت بالخجل من دعوته، حيث حسبت أن في ارتقائه المنبر للخطابة تقليلاً من شأنه، الا أنه لم يهتم لذلك، بل صعد المنبر وتحدث عن مفهوم خاطئ توحي به الكلمات المتداولة «إن الحياة عقيدة وجهاد» إذ ذكر لا يصح للإنسان أن يبذل وجوده لأية عقيدة كانت، بل يكون البذل جهادا إذا كانت العقيدة المقصودة هي عقيدة التوحيد.

ومن مؤشرات الصرامة في التزامه الفكري ما يذكره الشهيد مفتح أيضاً من أنّه ـ والأصدقاء ـ كان يرجوه أحياناً أن لا يتحدّث في بعض المسائل الخلافية على مستوىٰ الوضع الاجتماعي والقوىٰ العاملة لأنّ من مصلحة الساحة أن يغضّ الطرف عن أمثال هذه المسائل، لكنه كان يصرّ على ضرورة الوضوح في التعبير عن الموقف الإسلامي، وضرورة التزام الدقّة في التميز بين ما هو إسلامي وغير إسلامي.

ومن المواقف التي تكشف عن إصراره العجيب في ذلك، ما يذكره طاهري

خرم آبادي من أن رابطة مدرسي الحوزة العلمية في قم اتفقت علىٰ إصدار بيان مشترك مع رابطة علماء طهران المجاهدين إبّان أحداث الثورة، وقد صاغ البيان الشهيد مطهري الذي حمل على التيارات الوطنية والليبرالية التي تنادي بأطروحة الإسلام من دون العلماء، فكان أن اعترض بعض السادة الموقّعين، على هذا الأسلوب ورأوا أنه لا يتناسب مع المرحلة. أصرّ مطهري على موقفه وأصرّ الطرف الثاني على اعتراضه، إلى أن نُقلت القضية للتحكيم إلىٰ الإمام الخميني في النجف الأشرف، فكان مما قاله في الجواب: «الحقّ في هذه المسألة مع الشيخ مطهري، لأنّ مثل الإسلام بدون علماء، مثل الممارسة الطبية بدون طبيب».

ولا ريب أنّ أحد عوامل هذه النصاعة الفكرية يعود إلى التوازن الداخلي في مكوّنات شخصيته، وربما كان المرحوم مهدي بازرگان دقيقاً في التعبير عن هذا الجانب في شخصية مطهري بقوله: لم يكن عالماً تقليدياً معادياً للفكر، وفي الوقت نفسه لم يكن دارساً على الطريقة الغربية، كما لم يكن مثقفاً ماركسياً مهزوماً. كان يتحلىٰ باستقلال الرأي وبالشجاعة في إبدائه من دون تكبر أو تعصب.

لقد عاش في طهران وانفتح على تيارات الفكر الآخر وتشبع بقراءة رموزه واتجاهاته، بيد أن ذلك لم يغيّر من توازنه الداخلي، ولم ينل من مرجعية الإسلام في مساره الفكري. كان ـ كما يقول تلميذه خرم آبادي ـ متعبداً بعمق بالقرآن والسنة، بحيث لم تنفذ إلى حصنه تأثيرات الفكر الأوربي. وربما كان من الأسباب الفنية لحيويته الفكرية ونباهته، هي طريقته في المطالعة، إذ كان يكثر من كتابة الهوامش والملاحظات على الكتب التي يقرأها، ويذكر خلال ذلك مصادر أفكار الكتاب، ومن أين استمد المؤلف معين أفكاره، كما كان يكتب مواطن انحراف محتوى الكتاب

عن الإسلام، بالإضافة إلى أنه كان يستجمع فهرساً لملاحظاته على الكتاب وخلاصة لمحتوياته.

يقول الشهيد باهنر: لقد قرأ الشهيد مطهري مئات الكتب علىٰ هذه الطريقة. وطبيعي أن هذه الطريقة تساعد صاحبها على تركيز أفكاره واستجماعها، كما أنها تعينه في العودة إليها، والإفادة منها حين ممارسة الكتابة أو التحضير لمحاضرة أو بحث.

يضيف باهنر: كان الشهيد مطهري يكثر من وضع الخطوط على الكتب إلى جوار ما يكتبه من ملاحظات، لكي تتميّز الأفكار، ويسهل فهرستها. وقد يحصل أحياناً أن يعطىٰ كتاب في علم الاجتماع مثلاً، فيذكر في تقييمه بعد مطالعته أن الفصل الأول مستمد من أفكار من عالم الاجتماع الأمريكي الفلاني، وأنّ هذا الجزء مأخوذ من عالم الاجتماع الفرنسي الفلاني، وهكذا إلى بقية أجزاء الكتاب ومحتوياته.

نصل في هذه الجولة إلى الحمية الدينية كباعث ومحرك للنشاط الفكري لدى الشهيد مطهري، فلم يكن يمارس الكتابة عبثاً، كما لم يكن يلهو بها، بل كان مدفوعاً بهاجس الغيرة على الدين، وتحمّل المسؤولية التي تقع على عاتق المفكر الإسلامي أزاء مجتمعه وما يعاني منه من مخاطر وتحديات، وألوان الانحراف الفكري.

الأمثلة في هذه الدائرة كثيرة؛ منها: ما يذكره زميله في الكلية الشهيد مفتح من أنّه دخل عليه في غرفته عصر أحد الايام، فقال له بقلق: علينا أن نفكّر بحل لحال شبابنا، الذي أخذ الفكر المادي يترسّخ بشكل عجيب في أذهانهم. كان يشعر بالأذىٰ وعدم الراحة، وقد مدَّ يده إلى بعض الكتابات التي كان قد همّش عليها، ثم التفت إليّ قائلاً وهو يشير اليها: انظر، إنّ هذه الجماعة تهاجم الدين باسم الدين،

وباسم التوحيد تهاجم معارف الإسلام والفكر التوحيدي.

يضيف مفتح: كان مطهري يتحدّث لي بذلك، ويريني كتابات تلك الجماعة، وهو والله يرتجف من فرط التأثر وعدم الراحة.

ومع الشهيد باهنر ننتقل إلى مثالٍ آخر، إذ يذكر أننا فيما كنّا مشغولين بالإعداد لبرامج المظاهرات والبيانات، وتوجيه حركة الأحداث في أوج أيام الثورة، كان الشهيد مطهري يفاجئنا ونحن نمارس التخطيط والإعداد، بقصاصات مما تنشره الصحف والمجلات الأجنبية عن الإسلام، ومما تذيعه أجهزة الراديو من تقارير، حيث كان يقول: انظروا ماذا يكتبون ويقولون عن الإسلام، وكيف يقلبون الحقائق ويفسرون مفاهيمه بالمعكوس. كان قلقاً من هذه الناحية، وكان لا يترك المتابعة الدقيقة حتىٰ وأحداث الثورة في ذروتها، ونحن نعد لما سنفعل غداً، ولما سنصدره من بيانات بعد انتهاء التظاهرات.

لم يرد للحدث السياسي أن يبتلع الجانب الفكري ويطمسه أو يغطّي عليه، فإلىٰ جوار التقدّم السياسي في حركة الثورة، كان مهموماً بمتابعة الشأن الفكري وما يقال ويكتب عن الإسلام.

ومما يتسم به أيضاً في الجانب الفكري، الشجاعة في إبداء الرأي، وهذه الخصلة لا تفسرها لنا معالم القوة في شخصيته وحسب، وإنما تعود أيضاً إلى نفَسه العميق في تكوين الرأي من خلال البحث والدراسة والتدقيق. وبذلك كان يندفع بعد أن يستنفد مقدمات تحصيل الرأي، إلى إبداء رؤىً ونظرات جريئة، كما فعل في تحليله النقدي للاتجاه الأخباري ودراساته النقدية للاجتهاد المتداول، ومشكلات الحوزة، وعوامل تخلف المسلمين وانحطاطهم، وغير ذلك، بغض النظر عن مقدار

الاتفاق أو الاختلاف معه على الرأي.

كما كانت المسؤولية الدينية تملي عليه الوضوح في إعلان الرأي، وهذه الجرأة بالدافع الديني هي التي دعته إلى أن يبدي رأيه صريحاً في منظمة «فرقان»، إذ كان يقول: هذه المجموعة خطيرة، لأنّها تحرّف القرآن، وبذلك فهي لا تعتدي على المال أو العلم، بل تتجرأ على الوحي.

وحين رجاه الشهيد محلاتي أن لا يواجه هذه المجموعة بصراحة ووضوح؛ خشية على حياته، أجابه أمام جمع من الأصدقاء كانوا في منزله: سأواجه هؤلاء، ومن الممكن أن يبادروا لقتلي إلا أنني سأبقىٰ على رأيي في مواجهتهم، لأنّهم خطرٌ على الدين.

وقد حصل ما توقعه وما كان يتوجسه الآخرون، إذ دبَّرت له جماعة فرقان حادث الاغتيال في الساعة (١١) من مساء الأربعاء (٥) جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ. حين فرّغ أحد أعضائها رصاصاته الغادرة في رأس الشهيد مطهري[١].

---

(١) في الواقع كنا مردّدين في مصادر هذه الوقائع بين أن نذكر لكل واقعة مصدرها، فتكثر الهوامش وترتبك المقدمة، وبين أن نأتي في مكان واحدٍ على ذكر جميع المصادر التي عدنا إليها في إعداد هذه الفقرات من المقدمة، وقد اخترنا الأسلوب الثاني.

أما المصادر، فهي:

١ ـ يادنامۀ أستاد شهيد مرتضىٰ مطهري، الكتاب الأول، تحت إشراف الدكتور عبد الكريم سروش، الطبعة الأولى ١٣٦٠ ش، (بالفارسية).

٢ ـ يادنامۀ أستاد شهيد مرتضىٰ مطهري، الكتاب الثاني، تحت إشراف الدكتور عبد الكريم سروش، الطبعة الأولىٰ ١٣٦٣ ش، (بالفارسية).

٣ ـ سيماي أستاد در آينۀ نگاه ياران، بعناية السيد حميد جاويد موسوي، الطبعة الأولى ١٣٧١ ش (بالفارسية).

تغمده الله برحمته، ورحم الله الجميع، فأغلب المتحدثين عن الشهيد مضوا شهداء على دربه.

يبقىٰ أن نختم هذه الفقرة بكلام دالٍّ كان قد ذكره عنه الشهيد مفتح الذي اغتالته منظمة «فرقان» أيضاً بعد مدة من اغتيال الشهيد مطهري، إذ قال: رغم كونه أستاذ الجميع لم يكن يقبل أن يقرن اسمه بأي عنوان أو لقب، بل كان يعنون كتبه باسمه المجرد: مرتضىٰ مطهري.

نرجو أن يكون لذلك دلالته الأخلاقية فيما عليه واقعنا الآن، حيث يتسابق بعضهم علىٰ ذكر الألقاب والعناوين على كتبهم، أو يرضون بمن يضعها عليها!

مؤلف الكتاب

مؤلف هذه الذكريات عن الشهيد مطهري هو الشيخ علي دواني (ولد سنة ١٩٢٩ في منطقة «دوان» التابعة لشيراز) الذي يشتهر في الساحة الثقافية الإيرانية بكثرة كتاباته، إذ هو يمسك بالقلم منذ العقد الثاني من عمره وما يزال يواصل الشوط حتىٰ الآن.

---

٤ ـ حوار حول الشهيد مطهري مع آية الله السيد علي الخامنئي، أجراه د. حداد عادل، مجلة پيام انقلاب (بالفارسية)، العدد، ٣٣٧، ١٥ / أرديبهشت، ١٣٧٤ ش.

٥ ـ مقال: آفات انقلاب از ديدگاه شهيد مطهري، جاويد روستايي، مجلة بصائر (بالفارسية) المزدوج (١٦ ـ ١٧)، بهمن ١٣٧٤ ش.

٦ ـ أستاد حوزة و دانشگاه، أستاد شهيد مطهري، نگاه حوزه (بالفارسية) ملحق خاص لمجلة (حوزة) حول أطروحة وحدة الحوزة والجامعة.

٧ ـ هؤلاء يتحدثون: ملامح وذكريات شخصية وفكرية عن الشهيد مطهري، خالد توفيق، كيهان العربي، العدد ٣٣٦٣، ٣ / أيار / ١٩٩٥.

ومع أنّ آثار دواني نيفت على السبعين كتاباً بين تأليف وترجمة، إلّا أن هناك بضعة أعمال لها قيمة استثنائية من بين مؤلفاته، ربما كان أوّلها موسوعته التي تحمل عنوان «مفاخر الإسلام» (سبعة مجلدات) التي تهتم بترجمة حياة العلماء من أوائل المحدثين والفقهاء والمتكلمين وغيرهم، ثم موسوعته الثانية «نهضة علماء إيران» (أحد عشر مجلداً)، وفيها يؤرِّخ لجهاد علماء الشيعة في إيران، وربما كانت هذه الموسوعة هي أشمل عمل موسوعي وأكثرها توثيقاً حول الجهاد السياسي والنشاط الاجتماعي والعلمي للعلماء في إيران.

ومنذ أن رأيت مجلداتها الأحد عشر لأول مرة مصفوفة إلى جوار بعضها في مكتبة بشارع المكتبات المقابل لجامعة طهران، منذ ما يزيد على الأربعة عشر عاماً ورغبة شديدة تستبد بي لتقديم هذه الموسوعة مترجمة إلىٰ العربية. هذه الرغبة تتجدّد في كلّ مرة أقرأ شيئاً للشيخ دواني، أو يدور الحديث ليتصل بشؤون العلماء الشيعة ودورهم السياسي والاجتماعي في الحياة الإيرانية منذ العصر الصفوي حتىٰ الآن.

وتنفيذ هذا الطموح وإن غدا أمنية بعيدة المنال بالنسبة لي، إلا أنني ما زلت أجد نفعاً كبيراً بترجمة هذا العمل، وعسىٰ أن تكون هذه الأسطر حافزاً للآخرين.

أعود ثانياً إلى الشيخ دواني الذي قطع شوطاً من دراسته الحوزوية في النجف الأشرف قبل أن يعود إلى بلده إيران، فيواصل الدراسة في حوزة قم، ويتركها بعد أن يقضي فيها سنوات طويلة للاستقرار في طهران، والتفرغ للكتابة والبحث والتأليف بشكل كامل، من دون أن يقبل الارتباط بأي عمل وظيفي صَغُر أم كَبر.

ربما كان من أهم أدواره في مدينة قم هو مشاركته في إصدار مجلة «مكتب

إسلام» (بالفارسية) مع السادة: موسوي أردبيلي، مكارم شيرازي، سبحاني، موسىٰ الصدر (الإمام)، واعظ زاده خراساني، حسين النوري وغيرهم. وهذه المجلة لم تكن مشروعاً هيناً ليس في إيران وحدها، بل في تأريخ المجلات الإسلامية والصحافة الدينية، إذ كانت تبلغ كمية المطبوع منها (١٢٠) ألفاً للعدد الواحد. وهذا رقم كبير بكل المقاييس، والذي يزيد في أهميته ويعمق من دلالته أكثر، هو أنّ ذلك كان يحصل قبل أكثر من أربعة عقود من الآن.

مع أنّ العمل في سلك الصحافة الدينية لم يكن مألوفاً لعالم الدين آنذاك، لكون الصحافة الدينية نفسها لم تكن مقبولة آنئذ، إلا أنّ الشيخ دواني اختار أن يزاول الكتابة الصحافية في المجلات الدينية بشكل مبكر، فكتب في صحف «نداء الحق»، «مجلة المسلمين» وغيرهما، ثم أصدر كتابه الأول عن حياة الفيلسوف جلال الدين الدواني وهو بعد في سن الرابعة والعشرين.

إن الناظر لمؤلفات دواني يجد أنّ أغلبها يدخل في حقل الدراسات التأريخية، وله في حياة العلماء وتراجم الرجال فقط (٣٢) كتاباً. ونرجو أن لا نعطي انطباعاً خاطئاً من مصطلح «تراجم الرجال» إذ لا نعني به مؤدّاه العلمي المتداول في علم الرجال، بل نعني به المعنىٰ الثقافي والتربوي العام الذي ينصرف لتناول جميع الأبعاد الخاصة والعامة في شخصية علمائنا، أي سيرة العلماء.

يقول الشيخ دواني في إضاءة هذا الجانب من اهتماماته:

منذ أيام الشباب وأنا أرغب ببحث حياة العلماء الكبار، وأن أكتبها بأسلوب تحليلي، جديد ومبتكر، وبلغة معاصرة، وفي الواقع كنت أعشق هذا العمل.

وفي خط المسؤولية الدينية يشعر الشيخ دواني أنّ الشباب بحاجة إلى هذا

اللون من الكتابات التأريخية، كما إلى بقية مجالات التأريخ. ولذلك كلّه انصرف للاهتمام به، واستطاع أن يخرج بحصيلة ممتازة على صعيد المكتبة الإيرانية، حيث سدّ شاغراً كبيراً على مستوىٰ حاجات وعي الشباب الإيراني خاصة، والوعي الديني العام في البلد.

وكون دواني مؤرخاً أنجز الكثير من الأعمال، لم يكن ذلك باعثاً لتكبره أو لرفعةٍ نخبوية، هي مرض يرافق بعض أصحاب الإنجازات العلمية أو الثقافية الواسعة؛ على العكس هو ينطوي على تواضع كبير، حيث كنت أزدد له حباً كلما أقرأ عن حياته ونشاطه العلمي شيئاً.

لنقف على بعض اللمحات في تواضعه العلمي والثقافي، حيث يقول عن نفسه في مجال التأريخ:

لا أعتقد أنني بلغت مستوىٰ الباحث المحقق.

ولكي يخرج هذا التقييم لنفسه ولأعماله من إطار التواضع الكاذب المغلّف بكلمات المجاملة، تراه يقول بصراحة في مجال ما حققه الباحثون الإيرانيون في حقل الدراسات التاريخية:

أستطيع أن أقول: إنه لا أنا ولا غيري من الإيرانيين المشتغلين في حقل الدراسة التأريخية، استطعنا أن نقدّم شيئاً أساسياً مبتكراً في حقل تأريخ الإسلام، يحقق لنا عنوان الباحث المبدع. أكثر من ذلك ترىٰ أن عمل بعضهم مع الأسف لا يتجاوز التعاطي مع التواريخ المكتوبة ـ في مجال تأريخ الاسلام ـ بتغيير بعض العبارات وإضافة عشرات المصادر، لغرض التضليل، مما ينتهي إلى مصادرة جهود الآخرين، وبهذا الأسلوب يطوي إنسان مثل هذا، مسار مائة سنة بليلة واحدة،

ويتحول إلى باحث في تاريخ الإسلام، بل باحث في جميع الفروع!

طبيعي لا يهدف دواني أن يسقط جهود الجميع، بل يريد أن يميّز بين من يعمل، ومن يحتال، وكذلك يريد أن يرتقي بالبحث التأريخي إلى مستوىً رفيع، حيث يضيف: يجب على الباحثين الآخرين، أن يعملوا ـ في مجال البحث التاريخي ـ بمستوىٰ كتابات السيد مرتضىٰ العسكري والسيد جعفر مرتضىٰ، التي تتحلى بالعمق الكبير وبالطابع التحليلي في المكتبة العربية.

يبقىٰ أن نقول أنّ هذا اللون من الاهتمام بالتأريخ عامة وبتأريخ العلماء خاصة، جعل الشيخ دواني يتحوّل إلى خزانة واسعة من المعلومات، فهو ينطوي على ذكريات واسعة، ولديه الكثير من الخواطر، كتب بعضها وذكر بعضها في الحوارات التي تجرىٰ معه، وكان ممّن كتب عنهم أو ذكرهم السادة: الإصفهاني، محمد حسين كاشف الغطاء، البروجردي، آقا بزرك الطهراني، محمد علي الكاظمي وهو من أبرز تلامذة النائيني في الأصول، الأميني صاحب الغدير، محمد رضا المظفر صاحب «منتدىٰ النشر»، نوّاب صفوي قائد «فدائيان إسلام»، الشهيد بهشتي، الإمام الخميني، والشهيد مطهري[١].

والكتاب الذي نقدم ترجمته هو قسم من ذكرياته مع الشهيد مطهري.

لماذا هذا الكتاب

باختصار هناك جانبان دفعاني لترجمة هذا الكتاب. الأول: يرتبط بالشهيد مطهري، إذ أحسب أنّ الأغلبية تندفع معي بشوق للتعرف على جوانب الحياة

(١) استفدنا في ترجمة الشيخ دواني، وفي النصوص التي نقلناها عنه، من مجلة «كيهان فرهنگي» (بالفارسية)، العدد ١٠٩، أرديبهشت، ١٣٧٣ ش، لقاء مع الشيخ دواني.

الشخصية، والممارسات اليومية الصغيرة، والمشكلات التي مرّ بها الشهيد مطهري.

أي أننا ننجذب إلىٰ ما وراء الواجهة العامة لحياة المفكر، ونتطلع إلىٰ الجانب غير المرئي في حياته.

وكتب الذكريات والخواطر تمثل نافذة كبيرة وغنية في هذا المجال، وأحسب أن ثمّ الكثير مما لا نعرفه في الدائرة الخاصة لحياة الشهيد مطهري الشخصية والفكرية، قد ضمّه كتاب الشيخ دواني عنه. هذا هو الجانب الأوّل.

أما الجانب الثاني فهو يرتبط بأصحاب الأقلام والعلماء من أصحاب المسؤوليات الذين يمارسون دوراً اجتماعياً على مستوىٰ المنبر (الخطابة الحسينية) والمحاضرة والدعوة والتبليغ وغير ذلك من المناشط.

وهنا أستطيع القول بصراحة إنّ كل صاحب قلم وكلّ عالم يمارس العمل الاجتماعي سيجد شيئاً من معاناته مجسداً في هذه الخواطر والذكريات.

عندما قرأت الطبعة الأولى من الكتاب حال صدوره قبل حوالي سنتين وجدته كأنه يتحدّث عن معاناتي الخاصة، وحسبت أنّ الأغلبية ـ وربما الجميع ـ تتفق معي في هذا الإحساس، فنحن نعاني ما في ذلك ريب، ولكننا لا نفصح عن هذه المعاناة ولا نجرؤ على التعبير عنها بوضوح وصراحة، لهذا السبب أو ذاك.

لذلك قررت ترجمة هذه الذكريات لكي تكون متنفساً حيث يلمس كل واحد منا شيئاً من معاناته، ويعبّر عن ذاته ولو من خلال معاناة الآخرين. وهذا ما كان.

الإهداء

كنت أنوي أن أهدي ثواب هذا العمل إلى العلمين البارزين في دنيا الفقاهة والفكر والرمزين الكبيرين في حمل هموم التغيير الاجتماعي والغيرة على دين الله،

الشهيد السيد محمد باقر الصدر والشهيد الشيخ مرتضىٰ مطهري، اللذين ذهبا في فترة متقاربة، مضمخين بدمائهما، حمية للدين ودفاعاً عن حياض المسلمين وكرامتهم، لو لا أن اقترنت نهاية هذه المقدمة مع ذكرىٰ مولد الإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام).

لذلك رأيت أن أحمل ثواب هذا العمل إلى ساحة ابن النبي الأقدس طمعاً في تزكية العمل وإخلاص النية، وأنا على يقين من أنّ ذلك لا يقلل ذرة من ثواب الشهيدين الصدر ومطهري، بل يثري فيه ويزيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جواد علي كسار (خالد توفيق)[1]

١١ / ذو القعدة ١٤١٦ هـ.

(١) ربما كان جزء من معاناة بعض الزملاء، وكاتب هذه السطور منهم عدم مقدرتهم في التعبير عن أسمائهم الحقيقية. لذلك استميح القرّاء عذراً في أن اشير إلىٰ أن الاسم الأول هو الحقيقي، والثاني هو أشهر الأسماء المستعارة التي كتبت بها خلال عقد ونصف. [المترجم].

مقدمة المؤلف

الصفحات التي بين أيديكم في هذه الكراسة هي جانب من ذكريات كاتب هذه السطور مع الأستاذ الشهيد والفيلسوف والفقيه والباحث؛ المفكر الإسلامي الكبير مرتضىٰ مطهري، وهي بالتالي ليست بياناً لنشاطه السياسي، كما أنّها ليست تحليلاً لمكونات الشخصية السامقة لهذا المفكر المعروف.

لقد أخذ هذه الذكريات مني أحد الأخوة من الموالين للأستاذ الشهيد والمريدين له سنة ١٣٦٥ شمسية*، كي يقوم بطبعها وتصدر عن دار النشر التي يملكها، بيد أنّ طبعها تأخر سنوات لأسباب، إلىٰ أن استعدتها منه أخيراً، وقدمتها في هذه الطبعة التي بين يدي القرّاء بعد أن أسقطت إحدىٰ الخواطر وأضفت لها اثنتين أو ثلاثاً أخريات.

لقد جمعتني بالأستاذ الشهيد علاقة دامت سنوات، وما رأيته منه خلال هذه المدة هو أنه رجل عالم بتمام معنى الكلمة، لا همّ له سوىٰ العلم والبحث العلمي. كان

---

* المصادف ١٩٨٧ م.

يتحدَّث دائماً عن الكتب التي قرأها، بما له من ذوق في ذلك، وبما كـان يـنطبع في ذاكرته منها من نقاط مفيدة، وملاحظات دوّنها حولها، وكان ينقل باستمرار عن كتب تدخل في دائرة الحديث، الفقه، الأصول، التفسير، الفلسفة، المنطق، الكلام، الدراية، الرجال، التراجم، التأريخ والشعر والأدب، لا فـرق في أن تـنتمي هـذه الكتب إلى دائرة ثقافتنا الإسلامية الخاصة أو تنتسب إلى الاتجـاهات الأخـرىٰ؛ ومن دون تمييز بين أن تكون تـلك الكـتب ثمـاراً لأفكـار المـدارس المـادية، أو الاتجاهات والمذاهب الإسلامية.

في كلّ مرة تتحدّث فيها معه، تراه يوظِّف رصيده العلمي ويستفيد مما اختزنه من المعارف، بحيث إنه لم يغفل عن ذلك حتىٰ حين ينصرف الحديث إلى الشؤون السياسة والأمور اليومية المتغيّرة. فقد كان يغذّي حديثه في هذه الموضوعات بآية من القرآن الكريم أو بحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الأطهار (عليهم السلام)، أو بكلام يقتبسه من هذا العالم الديني أو ذاك الفيلسوف الإلهي أو المادي، أو يمزجه بشعر من عارف إلهي أو شاعر.

كان يقول، مثلاً، قال الكليني في «الكافي» أو الصدوق في «الخصال» أو الشيخ المفيد في «الإرشاد»، أو يشير إلىٰ أن هذا الحديث أو ذاك، الصـادر عـن الأئمـة، جذب انتباهي في هذه الكتب.

وكثيراً ما كان يردّد مستشهداً بأنّ الخواجه نصير الدين قال في «التجريد» وفي «أساس الاقتباس» كذا، وأنّ العلامة الحلي أو العلامة الشيرازي قال أو كـتب في توضيحه كذا، أو أنّ الشيخ الرئيس توفر علىٰ بيان هذه المسألة في إلٰهيات «الشفاء»، وأنّ صدر المتألهين، بيّنها في «الأسفار» بهذه الطريقة.

وكثيراً ما كان يذكر أنّ الفيض في «الوافي» أو «الصافي» تعرض لهذه المسألة، أو أنّ للملّا عبد الرزاق اللاهيجي في «الشوارق» و «جوهر المراد» بحثاً مهماً ونافعاً جداً.

كما كان يقول، مثلاً، إنّ الحاج السبزواري أجاب في «المنظومة» علىٰ هذا الإشكال، أو إنّ الآخوند الخراساني توفر في «الكفاية» علىٰ بحث هذه المسألة وتحقيقها، أو إن الشيخ الأنصاري ذكر في «المكاسب» و «الرسائل» هذه المسألة، أو إن صاحب الجواهر أو الطبرسي ذكرا في «الجواهر» و «مجمع البيان» هذه الفكرة.

كان ينقل الأفكار والمسائل بشكل صحيح، ثم يبيِّن أدلتهم ورؤاهم التي كان يستذكرها بشكل جيّد بعد أن يبلورها في خلاصات، ببيان واضح لا لبس فيه ولا ارتباك.

كان في كل جلسة من جلساته، يدفع المستمع إليه ويسوقه نحو مطالعة الكتب ومراجعتها وتلخيص محتوياتها وبحوثها واستذكارها. والأهم أنه كان يفعل ذلك بطريقة مخططة وأسلوب رصين، بعيداً عن الضوضاء التي ترافق البحوث الحوزوية في العادة!

كانت أفضل لحظات لذته من الحوار، حين ينطوي [الحوار] على روح البحث العلمي، ويتضمن أفكاراً جديدة. وفي هذا الإطار لم يكن يفرّق في الفكر [الخلّاق المبتكر] بين أن ينطلق من الشهيد الأول والثاني أو من الشيخ الطوسي والسيّد المرتضىٰ، أو من ديكارت ونيوتن وماركس وهيغل والدكتور تقي أراني.

تحدّث مرّات عن الوضع السائد في الوسط العلماني [أوساط المعممين والمؤسسة الدينية] مشيراً إلى افتقاده للنظام والتنظيم.

كان في هذا المضمار يقول: إنّ المؤرخ الفرنسي «آلبير ماليه» كتب في المجلد الفلاني من تأريخه إنّ البابوات والقساوسة رأوا أنفسهم، أواخر القرون الوسطىٰ، علىٰ مفترق طريق، فقد دفعتهم تطورات الأوضاع إلىٰ أحد خيارين، إمّا اعتزالهم المجتمع وركونهم في جانب مهمل منه، أو أن يظلوا هكذا بانتظار أن يبادر المجتمع النامي لعزلهم ودفعهم جانباً. لذلك تراهم عادوا إلىٰ العقل، وتحركوا فوراً لإنقاذ مصيرهم الآيل إلى العزلة، من خلال تكيّفهم مع الوضع السائد، بحيث حافظوا على موقعهم في صميم المجتمع. فقد أسسوا «الفاتيكان» للحفاظ علىٰ وجودهم، وهيمنوا على العالم المسيحي باقتدار.

كان يقول: إنّ رتابة الوضع الكنسي والركود والجمود اللذين حلّا في أوساط القساوسة المسيحيين، أدّىٰ إلى غربة هؤلاء عن الناس حيث لمس القساوسة في عصر الثورة الصناعية أنّ المجتمع لم يعد يفهم كلامهم (منطقهم)، لذلك رأوا أنفسهم مضطرين للتكيف مع أوضاع عصرهم، فلم يفقدوا مجتمعهم، بل عادوا ليمسكوا بزمام المبادرة مجدداً وأحاطوا بوضع المجتمع بالشكل الذي تلمس حضورهم في حياة الناس منذ اللحظة التي يولد فيها الإنسان المسيحي، فهم حضور في الغسل وتعميد الأطفال، في المستشفىٰ، وفي رياض الأطفال، والمدارس الإبتدائية، الإعدادية والثانوية، وفي الجامعات، والمصانع والمستشفيات، وفي دار المجانين، بل تراهم يتبعون إنسانهم حتىٰ وهو في دور المجاذيم.

فرغم الطابع المادي الذي يبسط بظلاله علىٰ العالم المعاصر ترىٰ هؤلاء القساوسة يحضرون رجالاً ونساءً في هذه الأمكنة جميعاً، وهذا في الواقع ما يعبّر لنا عن عامل بقاء المسيحية واستمرارها مع أنها لا روح فيها، وإلىٰ ذلك يعزىٰ سرّ

تقدمهم، مع فقر التوراة والإنجيل، اذ لا شيء في العهدين القديم والجديد، وكذلك ليس هناك عنصر مهم في الكنيسة وأنظمتها يمكن أن يقنع الناس ويسوقهم نحو الدين والمعنوية، وإنما هي الهمة التي دفعتهم للتكيف مع الزمان والتواجد في كل مكان فيه حضور لإنسانهم.

لقد تقدموا مع أبناء عصرهم بالاستعانة بالعلم والاتساق مع مقتضيات التقدم ومواكبة ركب التطوّر المتزايد لأبناء نوعهم، بحيث لم يتركوا إنسانهم ومجتمعاتهم ولم يهملوهم في أي وضعٍ كانوا، وبدوره انجذب المجتمع ووقع تحت تأثير أنظمتهم الحديثة.

كان يقول: انظروا إلى «إسرائيل» كيف تبذل جهوداً حثيثة وتسعىٰ ليل نهار لإحياء اللغة العبرية الميتة بالاستعانة بالعلم والثقافة، لترتفع بها إلىٰ أن تكون في رديف اللغات الحية في العالم. ثم كان يستنتج بعد ذلك من خلال سوق هذه الأمثلة والشواهد، أنّه يجب علينا ـ إذا أردنا أن نبقىٰ، وأن لا يعيش الناس في قطيعة معنا ـ أن نعمل.

فمع أنّه عندنا القرآن الكريم، وبين ظهرانينا نهج البلاغة، وبرغم كلّ ما لدينا من رصيد ماثل في هذا الذي بين أيدينا من كتب الحديث والفقه والتفسير والأخلاق والعلوم العقلية والنقلية، مما لا ينطوي عليه دين من الأديان ولا تملكه أمّة من الأمم، إلّا أننا مع ذلك متخلفون، لأنّنا نفتقر إلىٰ التنظيم القادر على مواكبة احتياجات العصر والمجتمع.

في الواقع، نحن لدينا كلّ شيء، وإنّ ما نفتقده هو الأطر التنظيمية والتخطيطية. أما أولئك فلا شيء عندهم، لكنهم فعلوا كلّ شيء بقدراتهم التنظيمية والتخطيطية

والبراجية!

وعندما تسأله: حسناً شيخنا، هذا كله صحيح، ولكن ماذا علينا أن نعمل، ومن أين نبدأ؟ يجيب: يجب أن تكون للمؤسسة الدينية أولاً ميزانية مالية ثابتة لكي لا نتحوّل إلىٰ ألعوبة بيد البازاري (التاجر) الفلاني ولا نكون تحت رحمة دافعي الخمس وسهم الإمام، وحتىٰ لا تظهر في أوساطنا ميول مداراة العوام ومماشاتهم والرضوخ لهم. وبعد ذلك يجب التصدّي بقوة للمتقدسين الجامدين وللسلبيين الذين يقفون عقبة ـ أمام الإصلاح ـ كما يجب إقناع المراجع والعلماء المعارضين وإفهامهم بأنّ الدنيا قد تبدّلت، وأنّه تجب المبادرة للعمل سريعاً من دون تضييع لحظة واحدة.

وإذا رأيناهم وقد ارتفعت عقيرتهم وأثاروا أجواء مضادّة ـ لجو الإصلاح والعمل ـ وأخذوا يبثون السموم، ويتوسلون بحربة التكفير، وهم يصرخون في مواجهة ـ التجديد والإصلاح ـ بأنّ هؤلاء (المجددين المصلحين) يرمون تغيير الوضع الذي كان سائداً منذ عصر الشيخ الطوسي، ويريدون أن ينزلوا الضربة بالنظام السائد بين المعممين ويبعثروه... واذا أخذوا يصرخون بالويل والثبور وبدأوا يثيرون الشك في نوايا العاملين، ويقولون: من يحرك هؤلاء، ومن أين يستمدّون أفكارهم؟ فعلينا حينئذ أن نتعاون مع أحد المراجع أو العلماء، ممن له استعداد للتعاون أكثر من غيره، ثم نبدأ بممارسة العمل.

إنّ الله معنا، والناس على أهبة الاستعداد، وهم حاضرون لدعم هذا العمل والسير وراءه. وهؤلاء سوف يتولّون الردّ علىٰ المعارضين والسلبيين الذين ينسجون الاقاويل.

من جهة أخرىٰ، وفي ملمح آخر من ملامح شخصيته، لم يكن الأستاذ الشهيد

من أنصار أصحاب الرساميل والثروات أو الموالين لأصحاب التكاثر المادي، كما لم يكن في الوقت نفسه من أنصار الاتجاه الاشتراكي ودعاة تعديل الثروة وفق النهج السائد في المعسكر الشرقي.

كما كان على خلاف شديد مع أولئك الذين يتخذون من الإسلام وسيلة لتحصيل المال ونيل الجاه والمقام، وتحقيق مآربهم المادية، وبعبارة أخرىٰ إنه لم يكن يطيق حتىٰ مجرد رؤية هؤلاء.

كان فيلسوفاً وفقيهاً، ومفكراً إسلامياً، يحمل أفكاراً علىٰ غاية الرفعة والسمو والنضج، كما كان ينطوي على رؤىً واسعة متفتحة تقوم علىٰ أساس الواقع، وتشاد علىٰ قواعد المدرسة العقلانية للتشيع، أي مذهب أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) السامي الرفيع.

وهو كما كان يحمل في كتبه ومحاضراته علىٰ الاشتراكية والشيوعية والاتجاهات المادية، ويفندها علىٰ أساس الدليل والبرهان، كان يهاجم كذلك الرأسمالية والاقتصاد العقيم المستمد من الغربيين، ويحمل علىٰ أصحاب الثروات والرساميل الطائلة، ويقف بوجه ما يقوم به المستكبرون والرأسماليون الناهبون المنقطعون عن الله، من استغلال للمستضعفين.

لقد دوّن رؤاه في هذا المضمار وسجّلها في كتاب ألّفه، صدَر أخيراً تحت عنوان: «نظرة إلىٰ النظام الاقتصادي الإسلامي».

هو كأستاذه الإمام الخميني وآية الله البروجردي، لمس الإسلام وأحسّ به بكل جوارحه ووجوده. إنه رجل من أهل الله، وليس من عبّاد الثروة والجاه.

كان ينطوي علىٰ اعتقاد عميق بالله والآخرة والحساب والجزاء واليوم الآخر،

وكان رائده في هذا السبيل النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) فهو ينظر اليهم أبداً، وهم قدوته ومثاله الذي يحتذيه.

لم يكن همه أن يجمع المال ويراكم الثروة ويسعىٰ لتحصيل الجاه والموقع والمكانة، كما لم يكن يفكر بالاسم والشهرة وإظهار نفسه.

كان يعترض علىٰ بساطة بعض العلماء وما يظهرونه من ميول لمماشاة العامة والخضوع لسلطانهم، كما كان يعترض أيضاً على تطرف الثوريين، خصوصاً أبناء صنفه ممن يشترك معهم في الزي العلمائي. فمع أنه كان أكثر الناس حباً للإمام الخميني، إلا إنه لم يكن مستعداً لسماع كلام طالب من طلبة العلوم الدينية يهتف فيه مثلاً: ارفعوا أصواتكم بالصلاة علىٰ محمدٍ وآل محمد من أجل سلامة مرجع تقليد شيعة العالم![1]

حضر في إحدىٰ الليالي في المسجد الأعظم بمدينة قم مجلساً، فقام أحدهم وهتف بالهتاف المشار إليه آنفاً، وقد حضر المجلس بقية المراجع، فشعر الشهيد بالأذىٰ البالغ. قال: إنّ عظمة السيّد الخميني ومكانته معروفة، وهو لا يحتاج إلىٰ مثل هذه الشعارات، التي تتضمن النيل من بقية المراجع.

كان رجلاً من أهل الله، ينطوي علىٰ فكر رفيع ومعتدل، ورؤية ممتدة مفتوحة، بعيدة عن الأغراض والأمراض التي ابتلي بها الكثيرون، وهم لا يدرون، أو يدرون ولكن لا يفصحون عما اعتورهم، بل هم راضون قانعون بما لديهم!

وحين نعود إلىٰ العناصر التي تؤلف كيانه الفكري والعملي، نجدها تتمثل بسعيه

---

(١) وما يريد أن يقوله المؤلف أنّ الشهيد مطهري لم يكن يتفاعل مع التبجيل الذي يلمح فيه، أو يفهم منه النيل من بقية العلماء والمراجع، بذريعة التبجيل بالإمام الخميني.

لحفظ كيان الإسلام، وصون علماء الشيعة، وتبجيل علماء الدين، وإيجاد التحوّل في المؤسسة العلمائية. والذي نستطيع التأكيد عليه، أنّه لم يغفل عن هذه العناصر أبداً، ولم يهملها في أقواله وأعماله وكتاباته، بل كان يعبّر عنها باستمرار.

هذه كانت ملامح في جوانب من الشخصية الرفيعة للأستاذ الشهيد مرتضىٰ مطهري، ومؤشرات سريعة في الأفكار الأساسية والإصلاحية التي تنطوي عليها شخصية هذا المفكر الإسلامي الكبير في عصرنا.

والأوراق التي بين أيديكم في هذه الكراسة، هي شطر من الذكريات التي تحتفظ بها ذاكرتي عن شهيد العلم والدين والتقىٰ والفضيلة هذا، مما يمكن قوله والإفصاح عنه، وأحسب أنّ لها دورها في التعريف به أكثر، وبما كان يحمله من أفكار؛ كما أنّ فيها ما ينفع المشتغلين بالبحث والتحقيق حول شخصيته.

طهران: علي دواني ١٠ / تير / ١٣٧٢*

---

* المصادف ١٩٩٤ م.

رؤيتي الأستاذ للمرة الأولىٰ

في يوم من أيام شهر «أرديبهشت» سنة ١٣٢٨ شمسية*، حيث كنت قد انخرطت للتو في الحوزة العلمية بمدينة قم، جلست عصراً مع أحد الطلبة من أهالي «بهبهان» نتبادل أطراف الحديث، إلىٰ جوار إحدىٰ غرف الطابق الأسفل من المدرسة الفيضية. كانت غرفة الشهيد مطهري في الطبقة التي تعلو هذه الغرفة مباشرة؛ الحجرة الأولىٰ أو الثانية علىٰ يسار الداخل إلىٰ المدرسة.

المدرسة الفيضية تضجّ بالطلاب، مجموعة تخرج وأخرىٰ تدخل، ومجموعة تجلس في هذه الزاوية وأخرىٰ واقفة في تلك، وهي مشغولة بالحوار والبحث العلمي. كانت هذه صورة المشهد الذي يحيط بنا. وإلىٰ أمامنا بالضبط، علىٰ بعد عشرة أمتار حيث كنّا نجلس، تحلّقت مجموعة من الطلبة حول «روحاني» (معمم) وهم يلتفّون حوله باحترام، يصغون إلىٰ كلامه. قال لي الطالب البهبهاني الذي يجلس إلى جواري: هل ترىٰ ذلك الشيخ الطويل الواقف في الوسط؛ والطلاب من حوله؟ قلت: أجل أراه، قال: هو شيخ فاضل يعرف بالشيخ مرتضىٰ الخراساني.

---

* المصادف ١٩٥٠ م.

كان هذا هو الأستاذ الشهيد مرتضىٰ مطهري. نظرت إليه جيداً، كانت بيده مسبحة، تكرّ حبّاتها بيده ببطءٍ وهدوء، وهو مشغول بالإجابة علىٰ أسئلة الطلاب، والشيء الذي يميّزه، أنّه كان أطول من البقية ممّن حوله من الطلاب.

تكرّرت رؤيتي له بعد ذلك مرّات، في الأيام التي تلت هذا المشهد.

ذهبت في صيف تلك السنة إلىٰ مدينة نهاوند؛ كان فيها آنئذ الشهيد علي قدوسي النهاوندي (المدّعي العام للثورة الإسلامية)، فهو من أهل هذه المدينة، وكان والده المرحوم آية الله أحمد قدوسي كبير علماء المدينة، وقد اقترن وجودهما في المدينة بمناسبة العطلة الحوزوية الصيفية.

كان من بين العلماء الكبار في هذه المدينة أيضاً والد زوجتي المرحوم آية الله أحمد آل السيد النهاوندي الذي ينحدر من سلالة أستاذ الكل الوحيد البهبهاني، بيد أنّه قد توفي في مدينة قم قبل هذا التأريخ بعام.

اقترح عليَّ المرحوم قدوسي أن نتباحث كتاب «اللعان» من شرح اللمعة للشهيد الثاني، فأجبته إلىٰ ذلك، وقد كنّا نلتقي للمباحثة في مدرسة «نو بنياد» في مدينة نهاوند.

وفي يومٍ من الأيام ونحن منهمكان بالمباحثة، أتىٰ الشهيد قدوسي على ذكر الشيخ مطهري، إذ نقل عنه بعض المسائل. قال: درست شرح منظومة السبزواري في الحكمة والفلسفة علىٰ يده؛ وربما ذكر أنّه درس عنده كتاب «المكاسب» أيضاً. أضاف قدوسي: الشيخ مطهري يختلف عن بقية الفضلاء، والذي أعتقده أنّ علىٰ طلبة الحوزة أن يستفيدوا كثيراً من أفكاره ورؤاه، فهو يحمل أفكاراً جديدة ورؤىً مبتكرة، خصوصاً في مضمار المعقول والحكمة والفلسفة.

استطرد قدوسي: لقد دوَّنت عنه مسائل كثيرة في حقل الفقه والأصول والفلسفة.

قرَّرت مع نفسي، إذا عدت إلىٰ مدينة قم، أن أستفيد من الشيخ مطهري بالاشتراك في حلقات درسه إن كان يدرّس، وكان متاحاً لي ذلك؛ لكي لا أُحرم من الأفكار الجديدة التي يحملها هذا الأستاذ الكبير. ولكن للأسف شاءت الأقدار غير ذلك، إذ حصل في تلك الأيام، أو بعدها بقليل، أن بدأ الشيخ مطهري يتنقل بين قم وطهران، وترك التدريس في قم، وبعد ذلك سمعت أنه أخذ يمضي جلّ أوقاته في طهران إلىٰ أن نقل عائلته إلىٰ هناك واستقر فيها نهائياً.

غلبتني الحسرة والأذىٰ علىٰ ما صرتُ إليه، إذ غادر الشيخ مطهري حوزة قم من دون أن أحظىٰ بشرف الإفادة منه.

في بيتنا

سمعت من الشهيد قدوسي في تلك الأيام أنّ أحد كبار علماء آذربايجان واسمه (السيد محمد حسين القاضي الطباطبائي) قد جاء إلىٰ قم، وبدأ بتدريس الفقه والأصول والحكمة. وذكر كذلك أنّ هذا العالم بدأ أيضاً بدرسٍ تفسيريّ يتسم بالكثير من الجدّة والابتكار.

أوضح لي الشهيد قدوسي بعد مدّة أنّ العالم الآذربايجاني طلب أن يعرف بالطباطبائي فقط من دون حاجة إلىٰ ذكر لقب «القاضي»*.

* كان أحد أجداد السيد الطباطبائي يعرف بالقاضي فصار بعض أولاده يعرف بالقاضي الطباطبائي، فيما اكتفىٰ بعضهم بلقب «القاضي».

ذهبت والشهيد القدوسي إلى مدرسة الحجتية ومكثنا نحضر درس ذلك الأستاذ وندوّن تقريراته.

أصبح الشهيد قدوسي فيما بعد صهراً للعلامة الطباطبائي، وقد استشهد أحد أولاده ـ وكان الحفيد الاول للعلامة الطباطبائي من ابنته ـ في جبهة «الهويزة» ومضىٰ إلىٰ لقاء الله.

بعد سنة أو سنتين من ذلك، شرع العلامة الطباطبائي بتشكيل جلسة أسبوعية في ليالي الأربعاء، درّس فيها بعض الأفاضل من طلابه مادّة «أصول الفلسفة» باللغة الفارسية، وكانت المادة تعَدّ للطبع بعد أن يتم تدارسها ومناقشتها وبعد ان ينتهي الحوار حولها.

كنت قد حضرت للتوّ دورة درس «الأسفار» للسيد الطباطبائي، ومن هذا الموقع شاركت مرّة أو مرّتين في درس الأربعاء الأسبوعي، وبحكم أن الدرس كان يعقد دورياً في بيوت الحضّار، كلّ أسبوع في بيت أحدهم، لذا تقرّر أن استضيف الدرس في أحد الأسابيع القادمة.

ومما حصل آنئذ أنّ أوّل مؤلّفاتي الذي دار حول حياة الفيلسوف الشهير جلال الدين الدواني من أعلام القرن الهجري التاسع (ت: ٩٠٨ هـ.) كان قد صدر بتقريظ العلامة الطباطبائي وبعض أعلام الحوزة الآخرين.

كان الشهيد المظلوم الدكتور محمد حسيني بهشتي من بين حضّار تلك الجلسة الدورية، وكان متألّقاً بين الحضور. والأمر الطريف الذي حصل في إحدىٰ تلك المحاضرات، أنّ العلامة الطباطبائي اعتاد أن يقرأ المتن الذي كتبه وأعدّه، ثم يدلي حوله ببعض الشروح والتوضيحات. في تلك الأمسية قال السيد الطباطبائي الجملة

التالية: نقول مثلاً: علىٰ الحصانِ نركبُ. تدخّل الشهيد بهشتي بالقول: سيّدَنا، هذه صياغة تركية للجملة. تساءل العلامة الطباطبائي وهو يبتسم: ترىٰ ماذا تـقولون أنتم الفرس؟ أجاب الشهيد بهشتي: نقول: نركبُ الحصان أو نركبُ على الحصان.

بعد هذه الواقعة تقرّر أن يصلح العلامة الطباطبائي هذه الجملة من المتن ويعيد صياغتها بأسلوب اللغة الفارسية، لكن العجيب أنها ظلّت علىٰ صياغتها الأولىٰ بعد أن طبع كتاب «أصول الفلسفة»!

عندما انتهىٰ الدرس، أخرجت نسخة من كتابي حول حـياة جـلال الديـن الدواني وقدمتها للشهيد مطهري. سُرّ بها كثيراً وقال: إنها هدية ثمينة جداً جـداً. أضاف: كنت أفتّش عن كتابٍ مثل هذا، لأني آلف أفكار جلال الدين وآنس بها.

تصفح الكتاب بعد ذلك، فرأىٰ تقريض العلامة الطباطبائي، واطلع علىٰ بعض مسائل الكتاب، ثم عاد لإبداء سروره مجدداً لنشره.

مما حصل في السنوات الأخيرة أنّ الشهيد مطهري طبع كتابه «خدمات متقابل إسلام وإيران»*، وقد رأيته حين اطلعت علىٰ الكتاب ينقل عن كتابي هذا، خلال عدّة صفحات من الجزء الأول من كتابه، ويشير إليّ متلطفاً.

وحول كتابي هذا أيضاً، حصل يوماً أن جاء الشهيد المطهرى برفقة الشهـيد المظلوم بهشتي إلىٰ بيتنا لبعض المهام، فقلت له: شيخنا، لقد امتدحت كثيراً كـتاب (جلال الدين)، مع أنه أوّل مؤلّفاتي، إذ كتبته ولم تكن سنّي تزيد علىٰ (٢٦) سنة، خصوصاً وأني قد شرعت به في وقت لم يكن مألوفاً أن تشهد الحوزة هذا الضرب

---

* ترجمه إلىٰ العربية وقدمه للطبع في بيروت وايران الشيخ محمد هـادي اليـوسفي بـعنوان «ايران والإسلام».

من التأليف!

أجاب الأستاذ الشهيد: مع ذلك، فقد استفدتُ شخصياً من هذا الكتاب وكتاب «حياة الأستاذ الوحيد البهبهاني» كثيراً، مما يفرض عليّ أن أتوجه بشكرٍ أوفر.

مع الشهيد نواب صفوي

بعد الحادثة التي قام بها بعض طلاب الحوزة بتحريض من حاشية المرحوم آية الله البروجردي ضد منظمة «فدائيان إسلام» حيث انتهىٰ الأمر بالتعرض لهم وضربهم في المدرسة «الفيضية» قرّرت أن أذهب لزيارتهم، فمع الشهيد نواب صفوي زعيم منظمة «فدائيان إسلام» والشهيد عبد الحسين واحدي الرجل الثاني في المنظمة، تربطني علاقة قديمة؛ فضلاً عن وجود قرابة بيني وبين الشهيد واحدي.

حين ذهبت لزيارتهما[1]، وجدت عندهما الشهيد مطهري. لم يأتِ الشهيد مطهري وحده، بل كان برفقته شخص أو شخصان. لم يكن الشهيد نواب صفوي بمدينة قم ليلة الحادثة، بل كان في طهران. بيد أنه استعجل المجيء في ليلة اليوم الذي حصلت فيه الحادثة أو بعد ذلك بيوم. المهم أننا التقينا معه في بيت تقوي شميراني، وكان حاضراً كلّ من السيد الواحدي والسيد هاشم الحسيني، والسيد محمد الأخ الأصغر لواحدي، وقد جرحوا جميعاً، حيث كانت رؤوسهم مشدودة بالضماد الطبي.

---

(١) ذكرت ذلك مفصلاً تحت عنوان «فدائيان إسلام وآية الله بروجردي» في كتابي «شرح زندگاني زعيم عالم تشيع آية الله بروجردي» في قسم «خاطرات» من ملاحق الكتاب (بالفارسية).

أما البيت، فقد كان أشبه بالبيوت السرية التي تختص بالمنظمات، لذلك لم يكن متاحاً لأي شخص أن يزورهم في هذا المكان.

كان الشهيد مطهري منسجماً مع «فدائيان» ومع أفكارهم. وقد سمعت الشهيد نواب مرّات، يذكر الشيخ مطهري باحترام، ويسأل عنه.

استمع الشهيد مطهري في تلك الليلة لعتاب «فدائيان» وشكواهم من المرحوم آية الله البروجردي، حيث انتهىٰ الحال إلىٰ ما انتهىٰ إليه من ضربهم، وبعد ذلك تكلم مطهري فقال: الأخ نواب! اعتقد أنّ الخطأ منكم. وعليكم أن تقبلوا أنّكم تتصفون بمزاج عصبي حاد، ولا يمكن فعل أيّ شيء بالحدة والغضب.

أضاف مطهري: ورد عندنا في الحديث: «الغضب نوع من الجنون لأن صاحبه يندم بعده»، والحديث معلّل، والعلة مذكورة في متن الحديث نفسه، فالغضب ضرب من الجنون، لأنّ صاحبه يندم عليه بعد ذلك.

استطرد الشهيد مطهري: لماذا تفعلون ما من شأنه أن يجر المسألة إلىٰ هذا المآل؟ ليس من تكليفكم أن تكونوا طرفاً في الصراع مع السيد البروجردي.

التزم السيد الواحدي والسيد هاشم السكوت ولم يتكلما بشيء، أما السيد نواب فقد وافق علىٰ كلام الشهيد مطهري وكان يصغي إلىٰ ما يقوله بهدوء.

كانت «منظمة فدائيان» تكنّ احتراماً فائقاً للمرحوم مطهري، خصوصاً السيد نواب والأخوين واحدي، فقد كان مطهري من فضلاء الحوزة المعروفين، وكان رجلاً ودوداً مرناً ينسجم معهم في مشروعهم.

تحدّث القوم بكلام لم أعد أذكره، بيد أنّهم قبلوا في المحصلة الأخيرة، بأنهم مسؤولون عما حصل. أما الشهيد مطهري فقد كان يركز في كلامه كثيراً علىٰ حدتهم

وتطرفهم في الدخول طرفاً في الصراع مع آية الله البروجردي، اذ لم يكن يرىٰ مسوغاً لذاك.

بعد أن مضت سنوات على هذه الحادثة، عدت إلى ذكرها مع الشهيد مطهري في حديث جرىٰ بيننا في «كلية الإلهيات» وخصصت بالذكر الحديث الشريف الذي نصح به مطهري السيدين نواب والواحدي. فما كان من شهيد العلم والفضيلة الا أن اندهش من ذلك، وتساءل: عجباً! وقد كنت أنت حاضراً؛ وأنا فعلاً الذي ذكرتُ الحديث وقلت الذي قلت؟ أجبت: أجل، وقد حفظت الحديث من ليلتي، ولا زلت أتذكر بقية كلامك، حتىٰ وكأنّه كان في الأمس!

كان الشهيد مفتّح حاضراً في هذه الجلسة، فأصغىٰ إلى حديثنا بتعجب.

أما الشهيد مطهري فقد ازدادت دهشته، وأردف يقول مجدداً: عجباً! لا أذكر أي شيء مما تقول.

كان من بين ما تحدّث به الشهيد مطهري في تلك الليلة، أنّه خاطب المرحوم نواب صفوي بقوله: السيد نواب! ليس ثمة ريب في حسن نيتك وحميّتك الدينية وسمّو هدفك ورفاقك، ولكن ماجاء في بيانكم الذي وجّهتموه إلىٰ السيّد البروجردي من قولكم له: «لا نظن أنّ غيرتك الدينية بأقل من الحاج السيد حسين القمي» هو الذي ألّب عليكم، إذ اتخذه بعض المغرضين ذريعة في التحريض ضدّكم، حتىٰ آل الأمر إلىٰ أن يهجموا عليكم في المدرسة الفيضية، ويضربوكم بهذا الشكل.

فلو أنّكم فكّرتم جيداً، وبادرتم لدراسة خطوتكم في جوٍ هادئ، بعيداً عن انفعالات الشباب وعواطفهم الجامحة، لكانت النتيجة مختلفة بالتأكيد ولم تنتهوا إلىٰ ما انتهيتم إليه الآن.

ظلّ الشهيد نواب يستمع إلىٰ نصائح الشهيد مطهري ويظهر تأييده له، والألم يعتصره من الداخل، إذ لم يشأ أن يتحدّث بحديث يؤذي السيد واحدي والسيد هاشم بحيث يشعران بالخجل. ومردّ ذلك أنّهما سارعا إلىٰ طبع البيان واستعجلا توزيعه من دون استشارته وأخذ رأيه، مما تسبّب بضربهما.

بقي الشهيد مطهري يذكر «فدائيان اسلام» حتىٰ النهاية، بيد أنّه كان مثلي لا يرضىٰ بما يظهر علىٰ هذه المجموعة من ممارسات الشباب الجامحة وتطرفهم الحاد، خصوصاً ما يظهره الشهيد واحدي من حدية. فقد كنت أشهد أحياناً، وأسمع في أحيان أخرىٰ أنّ المرحوم مطهري يقوم بزيارة هؤلاء، كلما سنحت له الفرصة، في قم وطهران، ويتفقد أحوالهم، وقد بادلوه بدورهم الاحترام نفسه.

ولا يستبعد أن تكون الانعطافة التي شهدتها الجماعة وما أظهرته فيما بعد من لين وترك التصرفات المتطرفة الحادة، قد جاءت متأثرة إلىٰ حدٍ ما بنصائح الشهيد مطهري. فقد كان مما بادرت الجماعة إليه بعد ذلك، أنها أخذت تعقد الجلسات لبيان المسائل الشرعية وتدارسها انطلاقاً من رسالة آية الله البروجردي نفسه.

والذي يؤيد ذلك هو الاحترام الفائق الذي كانت تكنّه الجماعة للشهيد المطهري؛ كما أنّ شهيد العلم والدين هذا، لم يكن يتوانىٰ عن رعايتها والاهتمام بها ولم يتركها لحالها.

الأستاذ الشهيد في طهران

بعد مرور مدّة من الزمن سمعنا من يقول، إنّ الشهيد مطهري انتقل إلىٰ طهران، وهو مشغول بالبحث في مجالات مختلفة، كما أنّه أحياناً كان يلقي الدروس ضمن

مجالس أسبوعية في بيوت بعض التجار، وفي مدرسة مروي أيضاً.

كنت أذهب إلىٰ طهران أحياناً، فأمرّ علىٰ مدرسة مروي، وأشاهد الشهيد مطهري يلقي الدروس في الصالة التي بإزاء الباب الرئيسي للمدرسة. كما كنت أشاهده أحياناً في شارع «ناصر خسرو» وأماكن أخرىٰ، وأنا ألحظ بعض المارة يسلمون عليه باحترام، أو يقفون لتفقد أحواله والسؤال عن شؤونه.

وكان يتضح من جميع ذلك، أنّ الشيخ عُرف بين المؤمنين، واكتسب مكانة خاصة تدعوهم لتكريمه واحترامه، فقد عرفوا أنه أسمىٰ من الآخرين ويتحلىٰ بمنزلة أرفع.

والذي اتضح فيما بعد أنّ الشهيد مطهري أمضىٰ وقته قبل أن يمسك القلم ويبدأ رحلته مع الكتابة والتأليف، بالمطالعة العميقة لكتب الحديث والأخبار وتاريخ الإسلام، كما أمضىٰ شوطاً علىٰ هذا الطريق مع أغلب كتب فلاسفة الشرق والغرب وأصحاب المدارس المادية والمفكرين الشيوعيين، إذ قرأ هذه الكتابات بعمق ودوّن عليها ملاحظاته، ثم شرع بعد ذلك بالكتابة والتأليف.

بل سمعت أن بعضهم قال له: لماذا لا تكتب شيئاً وتشرع بالتأليف وأنت بهذه الدرجة من الكمال والفضل؟ فكان يجيب: أنا مشغول بالمطالعة والقراءة، ولننظر ماذا يحصل بعد ذلك.

لم ينقطع المرحوم من التردّد علىٰ قم، بل كان ينتهز الفرصة للمجيء إليها بين وقتٍ وآخر، وكان أوّل ما يفعله بعد الزيارة [زيارة مرقد السيدة فاطمة بنت الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم] هو الحضور عند أستاذه السيد روح الله الخميني*،

---

* كان السيد الإمام يعرف آنئذ بـ «حاج آقا روح الله».

ثم يردف ذلك بزيارة العلامة الطباطبائي، وكان اللقاءان لا يخلوان من الفائدة العلمية.

كان يجلس في أحد الأيام أمام غرفة من غرف مدرسة مروي، فتحدّث عن أهمية كتاب «الكافي». فكان مما قال: اعرفوا جيداً أهمية هذا الكتاب.

لقد كان واضحاً أنّه اطلع بدقّة علىٰ جميع أبواب الكتاب أُصولاً وفروعاً وروضة، مما كان ينقله من أمور من بعض أبوابه.

من ذلك أنّه نقل في مناسبة أنّه معجب بباب «الإشراف» وما يُذكر فيه من وصايا النبي (صلّى الله عليه وآله) في النهي عن الإشراف علىٰ بيوت الناس والإطلالة عليها، للاطلاع على ما فيها، وتأكيده علىٰ ذلك. كان يذكر أنّ مثل هذه المسائل يجب أن تقرأ اليوم في عالمنا المعاصر وتدرك جيداً، ويجب ان تنشر في أوساط المجتمع، لكي يعي الناس مكوّنات مدرسة الإسلام التربوية، ويدركوا علىٰ نحوٍ أفضل توجيهات أئمة الدين.

الجلسات الشهرية في طهران

شكّل الشهيد مطهري برفقة بعض العلماء من بينهم الشهيد بهشتي، جلسات شهرية في طهران، لغرض التوعية والتبليغ، جاءت موفقة ومكللة بالثمار الوافرة. كان لكل واحدٍ منهم محاضرة يلقيها شهرياً، إذ كانوا يوزّعون الموضوعات فيما بينهم، فيكتبونها، ثم تلقىٰ في الجلسة الشهرية.

كان أغلب من يحضر هذه الجلسات هم المتعلمون والخاصّة. وقد كان لهذه الجلسات الشهرية صدىً كبير، حيث طُبعت المحاضرات في ثلاثة مجلدات حَملت

عنوان «گفتار ماه» [حديث الشهر] ، وهذه من الكتب المهمة التي تنطوي علىٰ أفكار ومسائل قيّمة. والسبب، أنّ كل واحدة من هذه المحاضرات والأحاديث، هي ـ على ما يقول البعض ـ حصيلة شهر كامل من المطالعة، والتفكير والكتابة.

ويبدو أن هذه المجلدات طبعت فعلاً مرّة أو مرتين، في حين كان ينبغي أن يعاد طبعها ونشرها مرّات. لم أُوفَّق للآن في قراءتها، بيد أنّي أُقدِّر أهميتها، لكونها حصيلة فكرية لأساتذة كبار أمثال هؤلاء، لذلك يجب أن تكون بمتناول التائقين للمعارف والحقائق الإسلامية.

في جلسة تحرير مجلة «مكتب اسلام»

قمنا في سنة ١٣٣٧ شمسية* بإصدار مجلة علمية دينية بعنوان «درسهايى از مكتب إسلام» [دروس من الإسلام] بالتعاون مع عدد من فضلاء الحوزة المعروفين، هم السادة: مكارم شيرازي، الإمام موسىٰ الصدر، حسين النوري، جعفر سبحاني، محمد واعظ زاده، السيد عبد الكريم الموسوي الأردبيلي، السيد مرتضىٰ الجزائري، مجد الدين محلاتي، وأنا. أرسلنا إلىٰ الشهيد مطهري على عنوانه في طهران، العدد الأوّل أو ربما العدد الثاني من المجلة؛ طلبنا منه أن يبدي رأيه فيها وفي محتويات المقالات التي تنشرها، كما طلبنا منه أن يشارك بمقال ننشره في باب «مقالات وصلت إلينا» يُنشر بمعزل عن مقالات هيئة التحرير التي كانت بمجموعها في قم.

فرح الشهيد مطهري بالمجلة كثيراً، ودوّن ملاحظاته علىٰ أغلب مقالاتها. الذي

---

* المصادف ١٩٥٨ م.

لازلت أذكره أنّه اهتمّ بشكل خاصّ بمقالٍ للسيد موسىٰ الصدر (الإمام موسىٰ الصدر فيما بعد) حمل عنوان «اقتصاد در مكتب إسلام» [الاقتصاد في الإسلام].

لقد أشاد الأستاذ مطهري بهذا المقال وذكر أنّ هذه الدراسة تتّسم بالجدة والابتكار، وأنّها ضرورية في إطار الأوضاع السائدة آنذاك. ففي ذلك الوقت، لم يكن ثمّة أثر لمثل هذه الدراسات والمقالات.

وكان مما امتدحه الشهيد مطهري من مقالات المجلة، ما كنت كتبته تحت عنوان «مفاخر الإسلام» تحدّثت فيه بالترتيب عن الكليني، الصدوق والمفيد.

بعد ذلك بشهر جاء المرحوم إلىٰ مدينة قم، واشترك في جلسة هيئة التحرير، فعاد مجدداً لإبداء رأيه في محتوياتها ومقالاتها، فامتدح مرة أخرىٰ سلسلة المقالات التي قدمتها بعنوان «مفاخر الإسلام» وشملني بلطفه. قلت للشهيد مطهري لعلكم سمعتم بأنّ آية الله البروجردي بعث بطلبي، وحين ذهبت إليه أشار بالتقدير إلىٰ بحوث مجلة «مكتب إسلام» وإلىٰ جهد الزملاء، وكان مما نال رضاه ووقع موقع اهتمامه هي مجموعة «مفاخر الإسلام».

أجاب مطهري: أجل، سمعت بذلك، وحقّ له أن يفعل ذلك، فالذي قدمته هو عمل جيد جداً، لم يقم به أحد حتىٰ الآن، وقد اخترت في الأداء أسلوباً حسناً.

سألني بعد ذلك عن تفاصيل لقائي مع آية الله البروجردي، فأجبته عن ذلك. ثم استطرد وهو يضيف: حسناً، ومن الذي يكتب باب «قصة الشهر»؟ أجبت: أنا أكتبه، قال: ولماذا لا يُذكر اسم الكاتب؟ أجبت: من القواعد التي مضت عليها هيئة التحرير أنّها تنشر مقالاً واحداً باسم الكاتب، وإذا تكرّرت مساهمته في العدد نفسه، فتنشرها بدون اسم، لكي لا يتداعىٰ إلىٰ الذهن أنّ تكرار الأسماء هو علامة

علىٰ قلّة الكتّاب. وهذا الشيء هو صحيح من الوجهة الفنية.

أشاد الأستاذ الشهيد بهذا الباب أيضاً، وعاد ليقول: إذا كان لدينا مثل هذه الثروة من قصص ووقائع تأريخ الإسلام، فلماذا لانعود إليها ونترجمها [من العربية إلى الفارسية] ونحوّلها إلىٰ مقالات كما فعلت أنت؟

أجبت: لقد تحركت علىٰ الموضوع انطلاقاً من هذا الهدف، وآية الله البروجردي أوصىٰ بمواصلة هذا السعي أيضاً.

استطرد الشهيد مطهري: رحتُ أنا أيضاً أُفكّر بهذا المشروع.

بعدّ عدّة شهور من تأريخ هذا الحوار، نشر الشهيد مطهري الجزء الأوّل من كتابه «قصص الأبرار» ثم نشر بعدئذ الأجزاء الأخرىٰ من السلسلة.

أما بشأن القصص التي نشرتُها في باب «قصة الشهر» وكذلك في باب آخر حمل عنوان «قصة نافعة» فقد عدت إليها بعدئذ ونشرتها بعد أن أضفت إليها عدداً كبيراً آخر من القصص، في كتاب من مجلدين حمل عنوان «قصص إسلامية». ثم عدتُ للموضوع نفسه في السنوات الأخرىٰ، فحذفت بعض القصص، وأضفت عدداً آخر، لتنتهي السلسلة إلىٰ مجموعة بثلاثة أجزاء طُبعت تحت عنوان «قصصنا».

أما الأستاذ الشهيد فقد استمر في مجموعة «قصص الأبرار» وأصدر منها جزءين كما يعرف الجميع.

في مؤتمر ألفيّة الشيخ الطوسي

في أواخر سنة ١٣٤٨ شمسية*، وصلتني دعوة من قبل مؤتمر ألفية الشيخ

* المصادف ١٩٧٠ م.

الطوسي، وجّهها لي سكرتير المؤتمر (الشيخ واعظ زاده الخراساني) لكي أشارك بكتابة بحث عن الشيخ الطوسي أتقدم به إلى المؤتمر، وفي الأيام الخمسة الأولىٰ من سنة ١٣٤٩ شمسية ذهبت إلى مدينة مشهد المقدسة للمشاركة في أعمال المؤتمر، الذي عقد في كلية الإلٰهيات في تلك المدينة.

حملتِ الدراسة التي شاركتُ فيها وبعثتُ بها إلىٰ المؤتمر عنوان «الشيخ الطوسي من طوس إلىٰ النجف».

زرت الشهيد مطهرى في طهران في اليوم الذي تقلع فيه الطائرة من مطار «مهرآباد» إلىٰ مشهد. وقد كان واضحاً أن جميع الضيوف المدعوّين يتجهون إلىٰ المؤتمر علىٰ الرحلة نفسها.

جلستُ أنا والشهيد مطهري علىٰ مقعدين متجاورين، وكان إلىٰ أمامنا بعد مقعدين آية الله ميرزا خليل كمرئي، وإلىٰ جواره ولده. تحدّث الشهيد مطهري عن المشاركة في المؤتمر، فذكر أنّها ضرورية إذا نظرنا إليها من زاوية أنّ هذه الألفية تعقد في مدينة مشهد بمشاركة من الشيخ واعظ زاده وبقية زملائه من الأساتذة المعممين في كلية الالٰهيات، مثل: الشيخ كاظم مدير شانچى وجعفر زاهدي. ولكن لمّا كان المؤتمر ينطوي علىٰ بعد حكومي رسمي، فلا أدري ما هي طبيعة ردّ الفعل الذي ستتركه المشاركة علىٰ الناس.

قال مطهري ذلك وقد وقعت عيناه على الميرزا خليل كمرئي، فأضاف: مع أنّ الميرزا خليل هو عالم كبير، وأستاذ في المعقول والمنقول، إلا أنني أخشىٰ أن يقول في المؤتمر الذي نذهب إليه على خشية، شيئاً أو يصدر منه فعل يبعث على المزيد من الأذىٰ والحرج.

استطرد المرحوم: علىٰ أية حال، لا ينبغي أن نتخلّىٰ عن هذه المواقع وندعها بشكل مطلق بيد الخدّاعين المزيفين.

كان من بين المدعوّين لحضور المؤتمر، السادة: محمد محيط طباطبائي، مجتبىٰ مينوي، الدكتور جعفر شهيدي وجمع آخر.

كان الشهيد مطهري يعتقد أنّه مادام الامام الخميني مبعداً في النجف الأشرف، فإنه يجب التزام جانب الحذر في مسار الأحداث التي تساهم في استمرار النهضة، بعدم الاقتراب إلىٰ الجهاز الحاكم، خصوصاً وإنّ الذي يزيد في دقة الموقف وحراجته هو أنّ الانسان لا يعرف كيف يجيب علىٰ أسئلة الشباب الملتهب حماساً، وهم لا يصغون إلىٰ الكلام المنطقي المدروس، وإنما يصرّون علىٰ فكرهم ومواقفهم بالغ الإصرار.

ظلّت هذه الأفكار والهواجس تراود الشهيد مطهري، بحيث لم يمكث طويلاً، فما أن حطّت الطائرة وجاء إلىٰ استقبالنا السادة واعظ زاده وشانچي وزاهدي وبقية أعضاء الهيئة العلمية في الكلية، حتىٰ رأيت الشهيد مطهري ينسلّ من بين الحضور، بعد أن أمضىٰ بعض الوقت في تبادل التحية مع المستقبلين الذين أرشدونا إلىٰ الفندق الذي نقيم فيه بمشهد.

قال لي الشهيد مطهري: أنا ذاهب إلىٰ بيت أختي ـ وربما إلىٰ بيت آخر من بيوت أقربائه، فلم أعد أذكر الآن ـ.

بعثت غيبة الشيخ في المطار من بين المدعوّين، علىٰ عدم رضا أساتذة كلية الالهيات من المعممين، حيث كانت تربطهم به علاقة صداقة، تفوق علاقتهم بي، وتمتد على خلفية زمنية أكبر.

قال لي الشيخ واعظ زاده، من بينهم: ماذا جرىٰ للشيخ مطهري؟

أجبت: قال: أذهب إلىٰ بيت أختي، فأنا هنا لست غريباً، إذ لديّ معارف وأقرباء.

ردَّ عليَّ: قل له: شيخنا أنت أيضاً أستاذ جامعي؛ لقد شاركت في المؤتمر وتريد الآن أن تتحفظ علىٰ وجودك هنا! إنّ مثلك مثل من يركب البعير ولا يريد أن يراه أحد!

أضاف واعظ زاده: نحن أيضاً لنا مشكلاتنا ومحاذيرنا.

عندما رأيت الأستاذ الشهيد في اليوم الثاني ذكرت له أنّ الشيخ واعظ زاده غير مرتاح مما بدر منه.

أجاب: أجل، ولكن ماذا أفعل وأنا أرىٰ نفسي محاصراً من أكثر من جهة.

أضاف: ثم إنّ الشيخ واعظ زاده لا يعيش المشكلة التي نعيشها.

كنا في أيام المؤتمر إلىٰ جوار بعضنا. كان يظهر من كلامه أنه يخشىٰ أن يعزف في الجلسة الافتتاحية النشيد الشاهنشاهي. ولما كنّا نحن المعمّمين لا ننهض وقوفاً اذا عزف النشيد، فإنّ هذا الموقف سيستتبع مجموعة من المصاعب والمشكلات، خصوصاً بالنسبة للشيخ مطهري لكونه أستاذاً في جامعة طهران ورئيساً لقسم الفلسفة في كلية الالهيات.

تحسباً لمثل هذا الموقف وما يجرّ إليه، لم يشترك الشهيد مطهري في الجلسة الافتتاحية الأولىٰ.

كنت بدوري قلقاً من قضيتين؛ الاولىٰ: احتمال أن يُعزف النشيد الشاهنشاهي في الجلسة الافتتاحية. والثانية: احتمال قدوم الشاه، حيث كانت أيام عقد المؤتمر

تقترن مع أيام عيد النوروز من جهة، وأيام عاشوراء من جهة ثـانية، لذلك كـنا نحتمل أن يأتي الشاه بشكل رسمي، أو يزور المؤتمر ويشارك في الجلسة الافتتاحية العامّة علىٰ حين غرّة، أو ربما يُدعىٰ أعضاء المؤتمر لزيارته لو حضر إلىٰ مشهد.

هذا الضرب من التفكير جعلنا نعيش حالة من القـلق والاضـطراب، فـإذا حضر الشاه المؤتمر تبرز المشكلة، وإذا ذهب أعضاء المؤتمر لزيارته، ولم نذهب نحن حيث نمتنع من رؤيته تبرز المشكلة أيضاً، ويكون الثمن ـ الذي نـدفعه ـ بـاهضاً، خصوصاً في مثل تلك الظروف، ووسط حضور الضيوف الذين قدموا من خارج البلاد. وبالنسبة لنا لن يمضي الموقف من دون ردّ فعل غير مناسب؛ بـل وصـعب أيضاً.

قبل أن يفتتح المؤتمر بشكل رسمي، تحدثت مع الشيخ واعـظ زاده بـالقضية، حيث كان أميناً للمؤتمر. فطمأنني بالقول إنّهم تحسبوا لجميع ذلك، فقد ذكر لوزير العلوم، وكذلك لمحافظ خراسان، إنّه في حال عزف النشيد الشاهنشاهي، فالشيء المؤكد أن السادة العلماء لن ينهضوا، وربما لا يكتفون بذلك، بل يـتركون الجـلسة أيضاً، وحينئذ سيعود الموقف بالتبعات السلبية عليكم (علىٰ النظام) أمام الضيوف الأجانب القادمين من الخارج. ومن جهة أخرىٰ لن يذهب هؤلاء السادة لمقابلة الشاه إذا قدم إلى مشهد، لذلك عليكم أن تتركوا هـاتين القـضيتين، ولا تـصرّوا عليهما، لكي لا تصاب أعمال المؤتمر بالخلل والاضطراب.

أضاف الشيخ واعظ زادة: قبلوا ما قلته لهم برغم عدم رضاهم.

بعد أن أنهىٰ الشيخ كلامه، قلت له: شيخنا واعظ زاده! هـل ضـمنوا الأمـر بشكل مؤكد، وهل أنت مطمئن إلىٰ ذلك، أم أترك الجلسة وأغادر المؤتمر من الآن؟

أجاب: سترىٰ بنفسك عدم عزف النشيد الشاهنشاهي، إذ ستفتتح الجلسة الأولىٰ بتلاوة آيات من كلام الله المجيد.

ثم أضاف ضاحكاً: أما بالنسبة للقضية الثانية، فكن على ثقة بأنّ الشاه لا يجد في نفسه الرغبة لرؤيتكم أنتم الآخوند (أصحاب العمائم)! فهل تراه لا يعرفكم؟ أما بالنسبة للضيوف الأجانب فبإمكانهم أن يذهبوا للقاء الشاه إذا رغبوا بذلك، وليس في الامر إجبار.

سأل بعد ذلك عن الشيخ مطهري، فقلت إنّه لم يأت بعد، فقال: إذا رأيته طمْأنه بأنّ الأمور تسير على ما يرام، وليس هناك ما يخشاه. وقد كان الأمر كما قال، إذ مرّت أعمال المؤتمر من دون تلك المخاوف التي كانت تثير خشيتنا.

عندما رأيت الشهيد مطهري، أخبرته بما جرىٰ، فسرّ له وفرح. أما ما كان يخشاه من المرحوم كمرئي فلم يحدث منه شيء، إذ مرّت الأمور بسلام، فقد دافع المرحوم كمرئي عن بقاء اللغة العربية في الامتحانات النهائية للمعهد العالي، بعد أن كانت تتناهىٰ إلىٰ الآذان همسات بحذفها. تحدث المرحوم كمرئي مع (زين العابدين رهنما)، ودافع عن رأيه بشهامة أثارت إعجابنا، بل إعجاب جميع الحاضرين في المؤتمر واستحسانهم، خصوصاً الشهيد مطهري الذي فرح كثيراً وامتدح موقف المرحوم كمرئي، وقال إنّه بذر خيراً.

شارك الشهيد مطهري في لجنة الفقه والأصول ببحث تحت عنوان: «استيحاءات من شيخ الطائفة» وقد أدرجت مقالته في كتاب «ألفيّة الشيخ الطوسي».

عناية الشهيد بمؤلفاتي

كان الشهيد مطهري يعنىٰ بآثاري ويشجعني بقوة عليها، وقد برز موقفه هذا في رعايته وتشجيعه، خصوصاً فيما أكتبه حول حياة علماء الاسلام، في مؤتمر ألفيّة الشيخ الطوسي، حيث جذب انتباهي لذلك. ومن الأفضل أن أعود في هذا المضمار إلىٰ ما كنت كتبته في مقدمتي المفصلة للمجلد الثالث من كتابي «مفاخر الإسلام» سنة ١٣٦٢* شمسية، لكي أستعيد بذلك ذكرىٰ الشيخ مطهري وألفيّة الشيخ الطوسي. كتبت مانصه: «شاركت في سنة ١٣٤٩ شمسية في مؤتمر ألفية الشيخ الطوسي الذي عقدتْه كلية الإلهيات في مدينة مشهد المقدسة، وقدّمت بحثاً طبع ونشر تحت عنوان «الشيخ الطوسي من طوس إلىٰ النجف» عرضت لملامح من محتوياته في كلمتي أمام المؤتمر، وذكرت إنّ كتاب «مفاخر الإسلام» سيطبع قريباً، فما كان من الأساتذة الحضور، الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم؛ الشيعة منهم أو السنة، إلا أن أوصوني بالتعجيل في تنفيذ ما وعدت به، حتىٰ أنّ بعضهم عاد ليذكر المشكلات التي واجهها في الاطلاع علىٰ حياة الشيخ الطوسي لعدم توافر كتاب شامل يضطلع بمهمة تقديم تراجم علماء الإسلام من الشيعة والسنة، بمنهجٍ تحليلي يقترن بالدراسة والبحث.

ولا أنسىٰ ذلك الموقف من الأستاذ الشهيد والعالم الفقيد الشيخ مرتضىٰ مطهري الذي شارك في لجنة الفقه والأصول، ببحثٍ دار حول علم الأصول والشيخ الطوسي، إذ خرج عدة مرّات من غرفة لجنته، وجاء إلىٰ غرفة لجنتنا؛ لجنة التأريخ والحديث والرجال، التي كانت إلىٰ جوار غرفة لجنتهم، وهو يسألني ـ للطيف

---

* المصادف ١٩٨٤ م.

عنايته بي ورعايته لعملي وكتاباتي ـ عن ولادة أو وفاة أو عصر عَلَمٍ من الأعلام. كأن يسألني عن ابن الجنيد الإسكافي أو الوحيد البهبهاني، ثم يعود إلىٰ لجنته، وكنت بدوري أُجيبه بما هو عالق في ذاكرتي.

وفي اليوم الأخير من أيام المؤتمر جاء إليّ الشهيد، فقيد العلم والدين، وقال: «اترك جميع أعمالك الأخرىٰ وضعْها جانباً، وانكب علىٰ «مفاخر الإسلام» كي تنتهي منه وتقدمه إلىٰ الطبع في أجزاء، وإلا فقد لا نعثر في المدىٰ المنظور علىٰ رجل مثلك، أمضىٰ من عمره عشرين عاماً في المطالعة والتنقيب حول حياة علماء الشيعة وكبارهم».

حصل بعد ذلك بمدة، أن نشر الشهيد مطهري كتابه القيم «الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران» وقد لاحظت أنّه ذكر كتاب «جلال الدين دواني» ونقل عنه مرّات، وشملني بلطفه وعنايته.

وفي مرّة من المرّات جاء الشهيد إلىٰ بيتنا برفقة الشهيد المظلوم والأستاذ المرموق الدكتور بهشتي، فذكرتُ المنغصات التي تكتنف عملي والصعاب التي تحيط به وتدعو إلىٰ هبوط الهمة ووقوع الفترة عن مواصلة الإنتاج، فكان مما قلته لشهيد الحق ذاك: شيخنا، إنّ كتاب «حياة جلال الدين دواني» الذي ذكرته في كتابك، هو أوّل مؤلفاتي إذ كتبته وأنا في سن السادسة والعشرين. صحيح إنني مضيت بعده في مواصلة التأليف فنشرت بعض الكتب من قبيل «حياة أستاذ الكل الوحيد البهبهاني» و «حياة آية الله البروجردي» و «حياة وآثار وأفكار آية الله البهبهاني» و غير ذلك من الكتب، إلا أنّ الفرصة لو كانت قد أُتيحت لي مع إمكانات أفضل، لاستطعت أن أُنتج آثاراً أفضل وأكثر في هذا المجال، منذ تأريخ صدور أول كتاب

وحتىٰ الآن.

أجاب الأستاذ الشهيد: مع ذلك كله، يعتبر كتاب «جلال الدين الدواني» من الكتب القيّمة جداً، وقد استفدت كثيراً منه ومن كتاب «الوحيد البهبهاني»، وعليك أن تتابع العمل في تأليف الحلقات الأخرىٰ.

تقدير الأستاذ لكتابي «ألفية الشيخ الطوسي»

بعد أن أنهىٰ المؤتمر أعماله، ذهبت ليلاً إلى حرم الإمام الرضا (عليه السلام) للزيارة والتوديع. وقفت أُؤدّي صلاة الزيارة، فما كان من الشهيد مطهري الذي كان قد جاء إلىٰ الحرم، إلا أن وقف يصلّي إلى جواري.

بعد أن انتهينا من الصلاة والدعاء، وهممْنا بالخروج من الحرم، التفت إليّ الشيخ مطهري، قائلاً: لم يحصل بحمد الله ما كنّا نخشاه ونتوجّس منه، بحسن مبادرة زملائنا المعممين من العاملين في إدارة المؤتمر، علىٰ رأسهم الشيخ واعظ زاده أمين المؤتمر، فلم يُعزف السلام [الملكي]، ولم يقع ما يعكّر الصفو ويبعث علىٰ القلق وعدم الراحة مما كنا نتحسب له وغيره، بل حصل عكس ذلك إذ سارت الأمور علىٰ ما يرام.

كان يظهر من محيّا الأستاذ أنّه راضٍ علىٰ سير أعمال المؤتمر، وأنّه مسرور له بشكل كامل، بيد أنّه أردف: هذا ما حصل حتّىٰ الآن، ولكن...

قلت: لا شك في أنك تخشىٰ من أن تُبادر الجامعة إلىٰ جمع بحوث المؤتمر ومقالاته وطبعه في كتاب تتصدره كلمة الشاه، وصورته وصورة فرح بهلوي.

أجاب: أجل، أحسنت، هذا هو ما أخشاه، ويثير فيّ عدم الارتياح. ولو كنت أعرف أنّهم يقومون بذلك لم أكن أعطيهم مقالتي.

قلت: قد يعدونك بعدم فعل ذلك، ثم تخرج الأمور من أيديهم، ويـصار إلى طبعها مع المحذور.

قال: أجل، هذا الخطر محتمل.

أضفت: لقد تحدّثت هذا اليوم مع الشيخ واعظ زاده، فأخبرني أنّهم أوصلوا سير أعمال المؤتمر إلىٰ ما وصلت إليه فعلاً ـ دون مشاكل ـ والبقية عليكم.

استطردت قائلاً: أنوي النهوض بمبادرةٍ تحول دون فعلتهم، وإن كانت مهمة صعبة. أريد أن أجمع كافّة البحوث والمقالات سواء التي طبعت وقدمت في أروقة المؤتمر أو تلك التي لم تطبع؛ بما فيها البحث الذي تقدمت به، وأُقدمها في كتاب ضخم من (٥٠٠ ـ ٦٠٠) صفحة أو اكثر، بعد أن أُجري عليها بعض التعديلات الطفيفة، وأُلخّص البحوث المطوّلة منها، وأُترجم ما قدّم منها بالعربية، وأُكلِّف بترجمة ما قدّم منها بالإنكليزية، وأضع للكتاب مقدمة وما يعنو لي من توضيحات، وأقدّمه إلى النشر، وبذلك ننجو من هذا الخطر، إذ لا كلمة الشاه التي بعث بها إلىٰ المـؤتمر ولا صورته ولا صورة زوجته.

عندما سمع الأستاذ الشهيد كلامي قال: إنّك لو قمت بهذا العمل لأرحتنا جميعاً وأنقذتنا من القلق. ثم أضاف: انهض بهذه المهمة حتماً.

اتفقت مع الشيخ واعظ زاده علىٰ أن يبعث لي البحوث والمقالات التي طبعت في أروقة المؤتمر، وتلك التي تكون جاهزة خلال العشرة أو العشرين يوماً القادمة، كي أبدأ بالعمل.

كما قلت إنّ مجلة «مكتب إسلام» قد تُخصِّص عدداً كاملاً من أعدادها الآتية للشيخ الطوسي، بيد أنّ هذا الذي قلته لم يتحقق عملياً رغم أنّي طرحته.

بعث لي الشيخ واعظ زاده بجميع البحوث والمقالات المطبوعة، وأمضيت بدوري عدة أشهر من العمل، بين أكوام من المقالات والكراسات والملخصات، وقمت مع ذلك بالاتصال بالمشاركين في أعمال المؤتمر لجمع مقالاتهم. ومن حسن الحظ أثمر هذا الجهد مع جميع ما تخلله من صعابٍ ـ من بينها طلبي لبحث شهيد العلم والدين الذي شارك به في المؤتمر ـ صدور مجلدين طُبعا بعنوان «ألفية الشيخ الطوسي» وعدّا كتابين نفيسين نالا حظوة الأستاذ الشهيد، الذي أشاد بهما كثيراً.

لقد حصل في المدة الأخيرة أن قمت بإضافة بعض الإصلاحات علىٰ الكتاب وكتبت له مقدمة جديدة ودفعته إلىٰ المطبعة في طبعة جديدة تقع هذه المرة في مجلد واحد.

نعود إلىٰ سياق القصة والخطر الذي كنا نتوجسه، فقد وقع هذا الخطر فعلاً، ولكن بعد مرور ست سنوات. فقد خصصت جامعة فردوسي في مشهد، المجلد الثالث من ألفية الشيخ الطوسي إلى بحوث المؤتمر التي قُدِّمت باللغة الفارسية. وقد اضطر المرحوم الدكتور علي أكبر سياسي رئيس كلية الالهيات والمعارف الاسلامية آنئذ، إلىٰ أن يكتب في المقدمة ما نصه: «في طليعة كلمات هذا الكتاب نكون مع كلمة الشاه ملك الملوك» وهذا ما حصل، حيث احتلت كلمة ملك الملوك موقع الصدارة في الكتاب! هذه الكلمة التي كان قد ألقاها نيابة عنه «السيد مجيد رهنما وزير العلوم والتعليم العالي» وفي هذا الكتاب نفسه، تمّ طبع البحث الذي قدّمه الشهيد مطهري بعنوان: «استيحاءات من الشيخ الطوسي»!!

لم يقدّر أحد العمل الذي نهضتُ به، والصعوبات الاستثنائية التي عانيت منها في تدوين هذه المجموعة وتقديمها في مجلدين بعنوان «ألفـيّة الشـيخ الطـوسي» ولم تُدرك أبعادُ هذا العمل وما انطوىٰ عليه من خدمة، ولا أذكر أنّ أحداً غير الأُستاذ مطهري قدّر لي هذه البادرة وشكرني عليها.

بل الأعجب من ذلك، أنّ بعضهم حين يكون مردداً بين أن يختار بين العملين (الألفية التي أصدرتُها في مجلدين وتلك التي صدرت عن جامعة مشهد في ثـلاثة مجلدات) تراه ينقل عن مجلدات جامعة مشهد، مع أنّ صدورها تأخر عن صدور عملي بست سنوات، ومع أنّها مصدّرة بكلمة «ملِك الملوك»! رافضاً أن يـعود إلىٰ الألفية التي أعددتُها وهي خالية مـن كـلمة الشـاه! انـظروا إلى الجـهل والهـوىٰ والمرض!

لقد كان من بين ما تضمنه المجلد الثالث من العمل التذكاري الذي أصـدرتْه جامعة مشهد، عدد من البحوث والمقالات التي تجشمتُ عناء أخذها من أصحابها، والقيام بطبعها في مجلدَيْ «ألفية الشيخ الطوسي» بعد أن قمت بتنظيمها وإصلاحها، ولكنهم لم يأتوا علىٰ ذكرنا ولا تقديرنا!

حول كتاب «الإسلام وإيران»

بعد عدّة أشهر من انتهاء مؤتمر الطوسي، جمعني والأُستاذ الشهيد لقاء مشترك، حيث جئنا سوياً إلى مدينة قم. تحدثنا في الحافلة التي أقلّتنا من طهران إلى قم، عن بعض البحوث المفيدة في المؤتمر، ومن بينها بحث تقدّم به البروفسور اسماعيل يعقوب الأُستاذ في جامعة سورباياي الأندونيسية، تحدّث فـيه عـن دور الإيـرانـيين في

الحضارة الاسلامية. ذكرت للشهيد أنني ترجمت هذا البحث وقد تمّ طبعه فعلاً، بيد أنّه لم يصدر بعد في كتاب، حيث من المقرّر أن يضمه المجلد الاول من «ألفية الشيخ الطوسي».

أبدى الأستاذ رغبته في رؤية المقال. وقد حصل ذلك فعلاً، فحين كان الأستاذ يغادر بيتنا إلى بيت العلامة الفقيد السيد الطباطبائي، قدمت إليه الملزمة التي تضم بحث الأستاذ المذكور.

حينما أصدر الأستاذ كتابه «الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران» أفاد من ذلك البحث وأشار في الهوامش إلىٰ كتاب «ألفيّة الشيخ الطوسي» حيث لم يكن النص العربي للبحث بين يديه.

وربما كان بحث الأستاذ الأندونيسي هو أوّل دراسة تحليلية حول دور الإيرانيين ومقدار مساهمتهم في الحضارة الإسلامية. أُسجِّل هذا، مع أني كنت قد مررت علىٰ الفكرة نفسها في كتاب «حياة جلال الدين دواني» قبل عدّة سنوات، في فقرة منه حملتْ عنوان «الإيراني في كل مكان».

تقدير الأستاذ لعملين آخرين

كان الأستاذ مطهري مدعوّاً في بيتنا بمدينة قم علىٰ طعام الغداء مع الشهيد المظلوم الدكتور بهشتي وعدد آخر من الفضلاء. فقال لي: عملان كنت أودّ القيام بهما، فانصرفت عنهما، لأنني وجدتك نهضت بهما وأدّيتهما علىٰ ما يرام.

سألته: وما هما؟ أجاب: المقال الذي كتبته حول كتاب غيورغيو «محمد النبي الذي يجب أن يُعرف من جديد» ونشرته في مجلة «مكتب إسلام». في هذا المقال

تناولتَ الكتاب المذكور في ستّ ملاحظات أساسية ثم ذكرتَ أنّ هناك ملاحظات جزئية أخرىٰ، وإنْ كان الكتاب في نفسه جيداً، وينطوي على أفكار قيمة، حسب تقييمك له.

ورأيي الشخصي أنّ الكتاب، كما ذكرت. فقد كنت أريد أن أكتب عنه مقالاً (نقدياً) أشير فيه إلى الملاحظات نفسها التي سجلتها تقريباً، ثم انعطف للتذكير إلى أن الكتاب يتضمّن أفكاراً جديدة ونافعة قد لا يمكن العثور عليها في مكانٍ آخر.

من بين ذلك، بحث المؤلف عن موقع القبيلة عند العرب، فقد اتسم بحثه بنظرة تحليلية، وتوفّر علىٰ ما يستحق عليه التقدير كونه باحثاً أجنبياً وقف على أسباب تأكيد العرب على القبيلة وسعيهم للحفاظ عليها وافتخارهم بذلك، حيث قدّم دراسة مفصلة في هذا المجال جديرة بالتقدير.

وربما أضفتُ شخصياً إلى ماذكره الأستاذ الشهيد مسألة أخرىٰ لافتة للنظر لم أعثر عليها في مكانٍ آخر، إذ كان المؤلف في سياق تناوله لتأريخ الاسلام، قد بلغ إلى غزوة خيبر التي تمّت بقيادة النبي (صلّى الله عليه وآله)، فالذي يلفت الانتباه هو أنّ أغلب أفراد الجيش الإسلامي، أُصيبوا بالحمىٰ والمرض حين وصلوا إلىٰ أرض خيبر، ولمّا أراد المؤلف أن يتقصىٰ أسباب ظهور هذه الحالة، أعادها إلىٰ الطبيعة الجغرافية للمنطقة حيث كانت تنتشر فيها المستنقعات التي تولّد البعوض الذي يتسبب بدوره بمرض الملاريا. ولمّا كان جنود المسلمين قد أقبلوا على أرض خيبر من مناطق حارة جافّة، فلا مناص من أن يكونوا قد أُصيبوا بالملاريا حين تبدّل عليهم المناخ، إذ ليس ثمة ما يبرّر بروز الحمىٰ والمرض عليهم غير هذا. وبدوري أرىٰ صحة هذا التعليل فيما يبدو من ظواهر الأمور.

عاد الشهيد مطهري إلى سياق الحديث، وذكر أنّ العمل الثاني الذي كان يودّ النهوض به وكفيتُه مؤونته، هو ترجمتي لكتاب الكاتب العربي المعروف شكيب أرسلان «تاريخ غزوات العرب»، إذ كنت قد نشرت منه فصولاً في مجلة «مكتب إسلام» جاءت تحت عنوان «تأريخ الفتوحات الاسلامية في فرنسا والسويد وإيطاليا والجزائر والبحر المتوسط» وبدوره أشاد الأستاذ بكفاءة الترجمة التي اضطلعتُ بها، خصوصاً وأنّ الكتاب كان قد استقاه مؤلِّفُه من عددٍ من المصادر الأجنبية ووضعه بالعربية.

قلت في جواب الأستاذ: أجل، فشكيب أرسلان من كتّاب العالم العربي، وهو معروف بلقب «أمير البيان»، وبالنسبة إلى كتابه فقد قام بإعداده من خلال عدد من المصادر في اللغات الإنكليزية والفرنسية والسويدية والإسبانية، لذلك تراه ينطوي علىٰ مصطلحات معقّدة، تحتاج ترجمتها إلىٰ بذل المزيد من الوقت ورعاية الدقّة في ضبطها، بالإضافة إلىٰ وجود الخبرة الكافية في هذا المضمار. والذي آمله أن أُوفّق لإتمام ترجمة هذا العمل وتقديمه في كتاب مستقل.

تمت فعلاً ترجمة الكتاب، وطبع تحت عنوان «تاريخ فتوحات المسلمين في أوربا» وقد قدمتُ له بمقدمة، ووضعت له هوامش وتوضيحات مفصلة. حين صدر الكتاب قدمت نسخة منه إلىٰ الأستاذ الشهيد فأعجب به أيّما إعجاب، وقال من فرط فرحته: هو لوحده دائرة معارف.

لقد جدّد طبع الكتاب مؤخراً حيث نزلت للأسواق طبعته الخامسة (بالفارسية)[1].

---

(١) ألا يكون هذا درساً بليغاً للبعض ممن يبادر إلى تكرار الجهود، فما أن يتناهىٰ إلى سمعه

الأستاذ الشهيد في كلية الإلهيات

تركت مدينة قم في شهر خرداد سنة ١٣٥٠ شمسية*، بعد إقامةٍ فيها دامت (٢٢) سنة، لظروف سيئة مررت بها. قرّرت حين قدمت إلى طهران، أن أعتزل جانباً، وأمارس أحياناً الخطابة، في حين أصرف نفسي كي تألف القراءة والتأليف والكتابة.

مما كنت قد عزمت عليه أيضاً، بعد أن خرجت من ضوضاء قم ومشكلاتها، أن لا أوثق علاقتي بأحد في طهران. ولكن عندما رأيت نفسي وحيداً، أبديت استعدادي في أول اتصال هاتفي للشهيد مطهري معي، للقائه.

بعد مدة من الزمن جاء الشهيد مطهري برفقة الشهيد المظلوم بهشتي إلىٰ بيتنا مع عدد من السادة للمشاركة في وليمة ابتياع البيت الجديد.

الذي لاحظته على نفسي بعد برهة، أني لا أُطيق رغم قراري الاعتزال ومجانبة الاختلاط، والانكباب على عملي، أن اكون بعيداً بشكل كامل عن الأستاذين الكريمين مطهري وبهشتي. وكانا بدورهما يبادلانني الإحساس نفسه، بحيث كان التعاطي معهما يبعث علىٰ الهدوء والاطمئنان.

كانت أغلب لقاءاتي مع الشهيد بهشتي تتم في مؤسسة الكتب الدراسية، حيث كنت أذهب إليه هناك وكان رئيساً لدائرة البحث والتحقيق في الكتب الدينية. أما مع الشهيد مطهري فقد كنّا نلتقي في كلية الإلهيات في شارع أميركبير، وهي البناية

← بأن أحدهم قد أقدم على ترجمة أو تأليف عمل ما، حتىٰ تراه يباشر في إنجاز العمل نفسه.

* المصادف ١٩٧٢ م.

التي تحولت فيما بعد [بعد انتصار الثورة الإسلامية] إلىٰ المقر الرئيسي للحزب الجمهوري الإسلامي، ثم إلىٰ مقتل لشهداء واقعة (٧ تير)؛ ومن بينهم سيد شهداء القافلة الدكتور بهشتي.

كنّا نلتقي أيضاً في بيتنا، كما كنت أتردّد أحياناً علىٰ بيوتهم من خلال علاقة التزاور المشترك.

كنت أشعر أنّ الأستاذ الشهيد يحاول أن يرعاني نفسياً، ولا يتركني فريسة لوحدتي في طهران. كان يسألني عن منبري وعن مؤلفاتي وكتبي، وفيما اذا كانت منافعها المادية وما تدرّه علي من أرباح تكفي لشؤون معيشتي أم لا.

لا زلت أذكر أنّه فتح يوماً أحد مجرّات منضدته، وأخذ يفتش في الأوراق عن رسالة لكي يُطلعني عليها. بيد أنّه لم يعثر عليها، فعاد ليخبرني أنّ أحدهم طبع أحد كتبه من دون علمه متذرعاً أنّ حق التأليف لا معنىٰ له، ولم يرع في هذا السياق حقّ الرفقة والصداقة أيضاً.

أجبته ـ وباللغة العربية ـ: أخوك مثلك.

أضاف: أردت أن أُطلعك بأنّك لست وحيداً في هذا المجال، لكي تهدأ نفسك وترتاح مما تعانيه.

كان الشهيد أستاذاً للفلسفة في كلية الإلهيات ورئيساً لقسم الفلسفة فيها، وكان الشهيد مفتح يمارس نشاطه في الكلية مستفيداً من وجود الشهيد مطهري.

اختار الشهيد مطهري أن يضع في غرفته في الكلية سرير نوم، كان يستلقي عليه لكي يستريح حين يشعر بالتعب، إذا كانت الغرفة خالية من الزوّار.

كان الدكتور (أمير حسين آريان پور) حفيد (نايب حسين كاشي) المعروف،

منغِّصاً على الأستاذ الشهيد. كان هذا الأستاذ مادياً متحللاً من الالتزام الديـني، يرمي بعصاه أمام الشهيد مطهري كي يمنعه من ممارسة نشاطه بحرية، في ذلك الجو المليء بالاختناق والتوجس من النشاط الديني.

لم يكن الجهاز الحاكم مستاءً من كون آريان پور هذا مصدر إزعاج للشـيخ مطهري، وإن كان هذا الأستاذ يعد نفسه ثورياً يساريا.

شكلت أصداء المواجهة بين الأستاذ مطهري وآريان پور، مادة يومية شاعت في الوسط الجامعي مدّة من الزمن.

الأستاذ الشهيد في حسينية الإرشاد

لا أعرف في أية سنة حصل ذلك، حين جاء الشهيد مطهري يوماً إلىٰ قم زائراً، وذكر في مجموعة من الرفاق كنت أحدهم، بأنّ مشروع حسينية الإرشاد استكمل، وهي الآن في طور العطاء والعمل، حيث قال إنّه والشيخ أكبر هاشمي رفسنجاني والشيخ محمد جواد باهنر أصبحوا أعضاء الهيئة العلمية في الحسينية. والمعروف أنّ الشيخ رفسنجاني والشهيد باهنر كانا حينها قد غادرا حوزة قم واستقرا في طهران.

أضاف الأستاذ الشهيد: نريد أن نستفيد من الفرصة ونقوم بـبعض الأعـمال العلمية والتبليغية في حسينية الإرشاد، من بين ذلك أن ندعو في ليالي السبت عدداً من الأصدقاء من قم، ليقدموا إلى طهران ويساهموا بإلقاء محاضرة في الحسـينية، تُعلَن عنها قبل ذلك في الصحف، لتضاف مشاركتهم، إلىٰ مشاركتنا نحن الموجودين في طهران.

والذي بدا لي أنّهم دعوا من جماعة «مكتب إسلام» السـادة نـاصر مكـارم

وحسين نوري، ودعوني أنا للمشاركة في تلك المحاضرات عدّة مرّات.

كان الضجيج حول حسينة الإرشاد لا زال في بدايته، إذ كان هناك من يتساءل عن الذي يقف وراء المشروع، ويردّد: وماذا في المساجد حتىٰ تترك، ويلجأ مطهري ورفسنجاني وباهنر إلىٰ ممارسة هذا النشاط من خلال حسينية الإرشاد؟ لابدّ أنهم يريدون أن يأتوا بغير المعممين (الأفندية) أيضاً من أمثال فخر الدين حجازي، كي يأخذ مكانه بدلاً من أهل العلم في «إرشاد» الناس!

لا زلت أذكر أنني حين انتهيت من إلقاء محاضرتي في إحدىٰ المرّات التي دعيت فيها إلىٰ الحسينية، أعلنوا بأنّ الدكتور شريعتي سيأتي من مشهد في الأسبوع القادم فما بعد. سألتُ: ومن هو د. شريعتي؟ أجاب الأستاذ الشهيد: إنّه ووالده السيد محمد تقي مزيناني مشغولان في إطار «مؤسسة نشر الحقائق الإسلامية» وقد استطاعا أن يجذبا الشباب إلىٰ الدين بشكل جيد في مشهد.

أضفت مستفهماً: هو نفسه الذي جاء قبل عدّة أشهر وألقىٰ محاضرة في الحسينية، فكان أن زاد عدد الحضور علىٰ النسبة التي تحضر لي ولك؟

أجاب الأستاذ الشهيد: أجل، وفي مشهد لا زال الانجذاب يزداد إليه يوماً بعد آخر، والسبب أنّه متخصص في علم الاجتماع، وقد درس جيداً، وهو يملك السيطرة الكاملة علىٰ أعصابه، بالإضافة إلىٰ مهارته الفائقة في بيان الأفكار واستخدام الألفاظ.

أضاف: لأنّ الشباب قلّما سمعوا حديث الدين من «الأفندية» ذوي الهندام الجيد والشكل الأنيق، فقد ازداد الطلب علىٰ الدكتور شريعتي، خصوصاً وهو يتحدّث بلغة الشباب.

قال الشهيد مطهري ذلك، ثم استطرد: أنا أعرفه ووالده جيداً، فهما من أهل مشهد، لذلك دعوتهما معاً للمشاركة في إلقاء المحاضرات في الحسينية، ولكي يكون ذلك أيضاً مصدراً يعينهما علىٰ تحسين وضعهما المعاشي، فوضعهما المعاشي ليس علىٰ ما يرام.

والد الدكتور له سابقه في الدراسات الحوزوية، بيد أنّه عاد قبل سنوات ليترك الزي الديني، لقناعة منه أنه يستطيع عن هذا السبيل أن يتوفّر علىٰ تقديم خدمة أفضل للدين والمجتمع. إنه معلم وموظف في الحقل الثقافي، وهو متقاعد عن الوظيفة فعلاً، ليس لديه ما يقيم أوده غير (١٠٠٠) تومان يتقاضاها شهرياً كراتب تقاعدي.

أضاف الأستاذ الشهيد: طبيعي أنّ ذلك أثار اعتراض بعض العلماء وأهل المنبر ممّن لا يتحلون برؤية صحيحة، ولا يعرفون شيئاً. كما اعترض بعض تجّار السوق [البازاريين وهم قوة عظيمة متنفذة في إيران ـ المترجم] وقالوا إنكم تريدون أن تجذبوا إلى الساحة أمثال فخر الدين حجازي والدكتور شريعتي بدلاً من المعممين، فيتحلق الناس حولهم ويحتفون بهم، ولا يبقىٰ شيء (من الاعتبار) للعمامة*! بيد أنّي لم أُصغِ لهم، ولا زلت معتقداً بضرورة الاستفادة من هؤلاء. فيجب أن يأتوا إلىٰ هذه المواقع ويستفيد المجتمع من رؤاهم، خصوصاً الشباب، لا أن نتركهم عرضة لقوة جذب الآخرين، فتزداد المسافة أكثر فيما بيننا وبين المجتمع.

---

* طبيعي ان بعض كلام المعارضين لم يصدر جزافاً من دون شيء. ففي تلك الأيام كان السيد فخر الدين حجازي يفعل فعلته في طهران، حتىٰ أنني سمعت من المرحوم السيد غلام رضا سعيدي بأنّ الناس يطلقون عليه وصف: حجازي قاتل الآخوند، لشدّة موقفه منهم!

الشباب يُعنىٰ بهؤلاء أكثر مما يُعنىٰ بنا. طبيعي أنّ لنا موقف النظارة والإشراف، فنحن نراقب الموقف من موقعنا الذي وضعنا بين جبهتين متعارضتين، جبهة المتقدسين وجبهة الشباب المتطرف. ومن موقع الإشراف والمراقبة هذا لن ندع الأمور تنحدر إلىٰ منزلق ضيق.

لذلك كلّه؛ علىٰ الأصدقاء في قم أن تنفتح أرجلهم علىٰ المكان ويزوروه باستمرار، لكي نصل إلىٰ نتيجة أفضل.

استطرد الأستاذ الشهيد مضيفاً: بعث لنا الميرزا أبو الحسن رفيعي* رسولاً قال: إنّ كلاماً يثار حول حسينية الإرشاد، يوجب علينا تكليفاً شرعياً، فما هو الموضوع؟ أجبته بأنّنا أيضاً درسنا الفقه وعلىٰ دراية بالفلسفة أيضاً، ونحن علىٰ حذر!

أخيراً أشار الشهيد مطهري أنه بصدد الإفادة من أمثال محيط طباطبائي ومجتبىٰ مينوي، بدعوتهم لإلقاء المحاضرات في الحسينية. وسنرد على المتقدسين والمعارضين، فإلىٰ متىٰ يجب أن يكون هؤلاء بعيدين عنّا!

قلق الأستاذ علىٰ مستقبل حسينية الإرشاد

بعد عدّة شهور حلّ المحرم، وقد التزمت (مجلساً حسينياً) أُمارس من خلاله الخطابة في طهران. دعاني الشهيد مطهري في أحد الايام لتناول طعام الغداء في بيته الواقع في منطقه «قلهك» وقد ذكر لي أنّ السيد عبد الكريم هاشمي نجاد سيحضر الدعوة أيضاً.

---

* هو الحكيم والفيلسوف المشهور الذي قَدِم من مدينة قزوين وأقام في طهران.

كان الضجيج قد تصاعد آنئذ وكثرت الأقاويل ضدّ حسينية الإرشاد وبلغت ذروتها ضدَّ محاضرات الدكتور شريعتي ووالده. عندما وصلت إلىٰ بيت الشهيد الواقع في أوّل شارع «دولت» رأيت الشهيد هاشمي نجاد قد سبقني إلى المنزل، فقد جاء من مدينة مشهد إلىٰ طهران ليلتزم مجلساً حسينياً يمارس الخطابة من خلاله، وبدوري كنت أعرف الشهيد هاشمي نجاد قبل ذلك حين كان في مدينة قم.

بدا الشهيد مطهري قلقاً ومضطرباً جداً، إذ بدت عليه سيماء عدم الراحة. بيد أنّه حاول أن يخفي اضطرابه ويظهر أمامنا بأسارير منفتحة ووجه منبسط تعلوه البسمة، وأخذ يبادلنا الحديث، ولكن مع ذلك كان يبدو وكأنّ ألماً يعتصره ويؤذيه.

بعد أن انتهينا من تناول طعام الغداء، التفت موجهاً حديثه لي: لا ريب في أنك تناهت إلىٰ أذنيك الضجة المثارة حول حسينية الإرشاد منذ عدّة أشهر، وبالتحديد ضدّ الدكتور شريعتي وكتابه «معرفة الاسلام» وضدّ والده، وكذلك موج الاعتراض ضدّ بحثه الذي شارك به في كتاب «محمد خاتم النبيين»، هذا الكتاب الذي نشرناه عن طريق الحسينية؟

أضاف قائلاً: لقد بلغت الحملة المعادية ضد الحسينية مدىً بحيث أخذوا بدلاً من أن يقولوا «حسينية الإرشاد» يقولون «يزيدية الإضلال»! ولا ريب أنّك سمعت أنّ الدكتور شريعتى أخذ يتحرك في مساره الخاص، حتى كادت أن تخرج السيطرة علىٰ الموقف من بين أيدينا، خصوصاً وهو لا يصغي إلينا؟

أجبت: أجل. قال مستمراً في حديثه: لقد بذلنا جهوداً كبيرة للحؤول دون اتساع الخرق وحملة الأقاويل، وحاولنا السيطرة علىٰ الموقف وتحديد الدكتور شريعتي، إلّا أنّ جهودنا باءت بالفشل ولم تثمر. فنحن لا نستطيع ان نتحدَّث مع

بعضهم [لغياب القواسم والفهم المشترك] وبعضهم حين نتحدّث إليه، لا يفهمنا ولا يدرك مغزىٰ القضايا المطروحة بشكل صحيح، كما أنّه لا يحيط بالجوّ على نحو كافٍ.

لقد قرّرنا أن نذهب الآن أنا والسيد هاشمي نجاد إلىٰ مدينة (كرج) لنلتقي الحاج الشيخ حسن القمي (كان آية الله القمي مبعداً آنئذ إلىٰ كرج من قبل النظام، ولكن كان مسموحاً بزيارته) فإذا كنت مستعداً تعال معنا. فالحاج القمي يعرف الدكتور شريعتي ووالده، وله بالإضافة إلىٰ ذلك موقع لائق في المجتمع بسبب موقفه من حركة السيد الخميني، إذ استدعاه النظام من مشهد ثم نفاه إلىٰ كرج. فنحن ذاهبون إليه نستلهمه الرأي في هذه المسألة.

قلت: أجل أرغب بذلك وأنا علىٰ أتمّ الاستعداد.

ركبنا معاً السيارة العتيقة التي يملكها الشهيد هاشمي نجاد وهي من طراز قديم موديل «فلوكس واغن» وتعهد السياقة بنفسه. وصلنا إلى كرج وأمسينا بمحضر الشيخ القمي في تمام الساعة الرابعة عصراً.

بدأ الشهيد يتحدّث بعد أن فتح ملفّ القضية، والألم يحيطه من كل جانب، فقال: كم عانينا حتى استطعنا أن ننفذ إلى حسينية الإرشاد بحيث تكون في قبضتنا، ولا تقع بيد غير المؤهلين وتحت دائرة نفوذهم. ولا بدّ أنك سمعت الضجيج والأقاويل ضدّ الحسينية بحيث أنّ أغلبية علماء طهران وأهل المنبر لا يشتركون في مراسم الحسينية ونشاطاتها، بل يتحدثون ضدّها، ونحن نتحمل.

لقد تركزتْ حملة التحريض والضجيج أوّلاً ضدّ فخر الدين حجازي حتى انتهىٰ الأمر بمغادرته للحسينية وتركه لها، والآن يتركز الهجوم ضدّ الدكتور شريعتي. والمشكلة أنّه أخذ يتطرف ويتحدّث بأحاديث ويكتب كتابات تعطي

الذريعة للمهاجمين والمعارضين للحسينية. وأيضاً لا يمكن ضبطه والسيطرة عليه، فهو لا يصغي لنصائحنا بل يفعل ما يحلو له. ومن الجهة الثانية، فإنّ الناس لا يسكتون بل يلاحقوننا بالتهم.

تساءل الشهيد مطهري أمام الشيخ القمي: حقيقة، لا أدري ماذا أفعل، فهل أترك الحسينية أم أبقىٰ؟

أضاف: فمن جهة يعدّ شريعتي وجوداً نافعاً في نفسه، وهو يستطيع بحسب قدراته وإمكاناته، أن يجذب الشباب ويضعهم على الطريق. فجيل الشباب ينجذب إليه لكونه محاضراً دينياً مثقفاً وليس من المعممين (أفندي غير معمّم) أكثر مما ينجذب إلينا، وذلك بسبب الدعاية المضادّة والسموم التي بثّها الأعداء ضدّنا علىٰ مرّ الزمان؛ أعداء الداخل والخارج علىٰ السواء. والذي أخشاه، أنّ فقده قد يتسبب في مشكلة، بحيث إذا تركناه هكذا قد يُجرّ إلىٰ مكانٍ آخر.

ومن جهة ثانية، يعود إصرارنا في إبقائه والحفاظ عليه، بنتائج سلبية من بينها، أنّه بدأ يسقط اعتبارنا بين أكثرية علماء طهران والمدن، فهم يرمون بالتقصير كلّه علينا. واذا استمرت الأمور تسير علىٰ هذا المنوال، فسوف نخيب ولا يتحقق ما كنّا نرجوه من حسينية الإرشاد، بل سيأتي المشروع بنتائج عكسية تماماً.

أضاف الأستاذ الشهيد: نحن في محنة حقيقية وأزمة، وقد اكتسبت القضية أبعاداً معقدة بحيث لا يعرف لها أول ولا آخر؛ لا ندري ماذا نفعل، لذلك جئنا إليك لننظر ماذا ترىٰ وما هو رأيك؟ فهل بمقدورك أن تتوجه بالنصيحة إلىٰ شريعتي والمتقدسين معاً (طرفي المشكلة) لكي يكفّا عما هما فيه، أو أنّ المصلحة بنظرك أن نستمر بممارسة نشاطنا في حسينية الإرشاد مع وجود جميع هذه المشكلات؟

عجبت لشدّة المحنة التي أحاطت هذا العالم الجليل، وهي محنة من نفس اللون الذي نزل بي، وابتليت بها وأنا في مدينة قم، تلك المحنة التي ألمّت بي إثر تعاوني مع الزملاء في مجلة «مكتب إسلام»، وأثناء التدريس في «دار التبليغ»، وهو الابتلاء الذي دفعني عدّة أشهر أن أنفض يدي من كل شيء، وأترك قم إلىٰ طهران.

بدأ الشيخ القمي يتحدّث مفصلاً، فكان من بين كلامه، أنّه أكدّ ما كان ذكره الشيخ مطهري، إذ قال في هذا المجال: أنا أعرف شريعتي ووالده جيداً، فهما من أهالي مشهد. والأمر كما ذكرت من أنّ وجودهما كليهما نافع. ولكن كثرة الحديث عن الخلفاء والوحدة الاسلامية، بالشكل الذي يثير حفيظة الشيعة والأفراد المخلصين، هو أمر يبعث علىٰ الخطر. والذي أراه، إمّا أنّكم تبادرون إلى نصيحتهما مرةً أخرىٰ، لكي تتم الحجة عليهما، أو إذا قدما علي، أتولىٰ أنا نصيحتهما وأوصيهما برعاية نهج الاعتدال في طريقتهما، حتىٰ تهدأ الضجة وتتلاشىٰ.

أمّا إذا رأيتم أنّ هذا الأسلوب لا ينفع، فما عليكم إلا أن تردّوا عليهما، ولا أرىٰ أن تترك الحسينية؟

كانت سحنة الشهيد مطهري الخضراء قد تحوّلت من فرط التأثر والانفعال إلىٰ اللون الأسود، وأطرق برأسه وهو متألم بعمق.

رفع رأسه وقال في جواب الشيخ القمي: لا أعتقد أنّه سيصغي إلينا، أو يأتي إلىٰ هنا، وحتىٰ لو أراد هو ذلك، فإنّ له رفاقاً؛ لا يريدون بقاءنا في الحسينة، يمنعونه من ذلك.

من جهة ثانية فإنّ المتقدّسين لن يسكتوا. وأنا شخصياً قد تعبت، ولذلك سأترك الحسينية إن لم ألمس فائدة، ولا أتحمل مسؤوليتها بعد ذلك، وقد قلت هذا

لكي تكون على علم بمجريات الأمور.

حدثت هذه الحادثة سنة ١٣٤٩ شمسية*، ولا أذكر الشهر الذي وقعت فيه بالضبط.

ظلّ الشهيد هاشمي نجاد ملتزماً الصمت في مدة اللقاء، في حين كان الشهيد مطهري وكأنّه ينتظر منه أن يتحدّث ويقول شيئاً في اللقاء، إلا أنه لم يفعل وظلّ ساكتاً.

أما أنا فقد كنت أشارك في الحديث أحياناً، غير أني لا أتذكر ما قلته في ذلك اللقاء.

افترقنا عن بعضنا في طريق عودتنا إلىٰ طهران، ثم تعالت الضجة بعد ذلك وتفاقمت الأزمة، وأخذت مسألة الحسينية مدىً واسعاً، وبلغ الاختلاف ذروته حول بقاء الشهيد مطهري ورفاقه وإدارة الحسينية، حتىٰ انتهت ـ فيما قالوا ـ إلىٰ انسحاب الشهيد مطهري من الحسينية تماماً حيث التزم إقامة صلاة الجماعة في (مسجد الجواد)، وأخذ يدير ذلك الموقع.

بلوغ قضية الحسينية الذروة والتعامل مع الأستاذ الشهيد

في وقت تفاقم مسألة حسينية الإرشاد كنت واقفاً في عصر أحد الأيّام في الشارع القديم الذي ينتهي إلى «شميران» مقابل شارع «دولت» بانتظار سيارة التاكسي التي تقلّني إلى بيتنا في شارع «أميرية».

---

* المصادف ١٩٧١ م.

مرّت أمامي سيارة سوداء من الطراز القديم، ثم توقفت علىٰ بعد خطوات من المكان الذي كنت أنتظر فيه. رأيت من يشير إليّ بالصعود من داخل السيارة السوداء؛ كان الذي يشير معمماً يجلس في المقعد الخلفي. تأمّلت، فإذا هو الشهيد مطهري، كان يهمّ بالذهاب إلى مسجد الجواد.

صعدت في السيارة، وبعد تبادل التحية والسلام، سألته: ما هي الأخبار الجديدة؟ أجاب: لم أنم الليلة الماضية!

عُدت لسؤاله: لماذا؟ قال: هل رأيت الكتاب الذي أصدرته منظمة «پيكار» وأعلنت فيه انفصالها عن منظمة «مجاهدي خلق»؟ أجبت: كلّا.

لقد شغلني في السابق وأثار قلقي كتاب «٢٣ سنة» حيث ظلّ يشغل فكري لمدة، والآن هذا الكتاب، والذي أراه أنه يجب كتابة ردّ علىٰ الكتابين معاً، لكي لا يؤدي تأثيرهما إلى إضعاف الروحية العامّة للشباب وتشويش أذهانهم.

ذكر لي الشهيد مطهري أنّ من بين ما جاءت على ذكره مجموعة «پيكار» في هذا الكتاب، قولهم: لقد انفصلنا عن إسلامكم الجامد المتيبّس، ولم يعد إسلامكم بعد الآن قابلاً للترقيع، وغير ذلك مما يشابهه.

كان الأستاذ متألماً بعمق يأخذه الأسىٰ من كل جانب.

عند هذه النقطة من الحديث كنا قد وصلنا إلى مقابل حسينية الإرشاد. كان الوقت عصر يوم الجمعة، فاجتمع عدد كبير من الشباب عند الحسينية، وجلس جمع آخر منهم عند سلالمها، وكانت جماعة ثالثة وقوفاً، فيما كان بعضهم يمرّ من باب الحسينية داخلاً إليها أو خارجاً منها.

وبين مجموعات الشباب هؤلاء، كان عدد من الطالبات الجامعيات والنساء

المحجبات اللاتي يرتدين العباءة «الشادور» أو يكتفين بغطاء الرأس حجاباً (وهنّ الأكثر) يمررن من بين الشباب وإلى جوارهم، إلى داخل الحسينية.

توقفت سيارة الشهيد مطهري عند تقاطع للطرق قريب من الحسينية، فما كان من الشباب وقد رأوا الشهيد مطهري إلا أن أخذوا يضحكون وهم ينظرون إليه، بضحكة ذات مغزىٰ. ثم أخذوا يتبادلون الإشارة فيما بينهم لينبه بعضهم بعضاً للنظر إلى الشهيد مطهري وهو جالس في سيارته متوجهاً نحو مسجد الجواد.

كانوا في الواقع يسخرون من الشهيد مطهري ويومئون إلىٰ أنّه هرب من الدكتور وترك الحسينية وأخذ له موقعاً في مسجد الجواد.

كانت الضحكات تأتي أحياناً بصوتٍ عالٍ وتبدو متصنعة!

نظرت إلىٰ الأستاذ الشهيد الذي كان بدوره ينظر إليهم، فوجدته متألماً جداً. فقد كان ينظر إليهم وإلىٰ حركاتهم للحظات، ثم يدير وجهه عنهم بهدوء وينظر للحظات أمامه.

كان واضحاً أنّه غير مرتاح في داخله ويشعر بالألم الشديد. عندما تحركت السيارة وتجاوزت التقاطع، التفت إليَّ متسائلاً: لا أدري إذا كنتَ قد انتبهت إلى الشباب أمام الحسينية، وهل لاحظت كيف كانوا ينظرون إليَّ، ويسخرون منّي؟

أجبت حتىٰ لا أزيد من ألمه: أجل، إلى حدٍ ما.

قال: أنا الذي جئتُ بعلي شريعتي هذا وبوالده إلى طهران بعد أن كانا في ضائقة مالية شديدة (فعليّ كان قد جاء للتو من أوربا ولم يكن لديه شيء، أما والده فقد كان يعيش بألف تومان شهرياً فقط يتقاضاها كراتب تقاعدي) لكي يحاضرا في حسينية الإرشاد ويكتبا المقالات، ويكون ذلك بمثابه معونةٍ لتحسين وضعها المالي،

ويكون لهما في الوقت نفسه دور في جذب الشباب أكثر إلى دائرة الدين والمذهب.

بيد أنّهما رتّبا حالهما مع المشرفين على الحسينية وسارا معهما، وسلكا نهجاً انتهىٰ إلى أن أترك الحسينية، وفي الوقت نفسه أن يجرؤ الشباب الديني على أن يهتك حرمة أحد «الروحانيين» (العلماء) ويتعاملوا معه بمثل هذه الطريقة، وقد كان حتىٰ الأمس ينظم البرنامج التبليغي في الحسينية، ويقوم بجذبهم إليها!

وصلت السيارة إلى جوار مسجد الجواد في ساحة «٢٥ شهريور» (٧ تير حالياً) وعندما همّ الأستاذ بالنزول سألني: أين تذهب؟ هل تريد الذهاب إلى البيت؟ قلت: نعم، فتوجه إلىٰ سائقه قائلاً: أوصل الشيخ دواني إلى بيته وعد. قلت: كلا، دعْني أستفيد من الفرصة، وأنزل معك لأداء الصلاة، ثم أعود إلى المنزل.

دخلت إلى المسجد فتلقّاني السيد (مرتضايي فر) بالسلام، وما أن رآني حتىٰ قال: أيّها المؤمنون تهيأوا للصلاة، وبعد الصلاة سيرتقي الشيخ دواني المنبر للخطابة. وبدوري أبديتُ استعدادي لذلك.

كان المصلون يتراوح عددهم بين (١٧ ـ ١٨) مصلٍّ؛ أكثرهم من عمال البناء، حيث كانوا يشتغلون في بناية بقرب المسجد، وكان بالإضافة اليهم، عدد من النساء يقفن في الصف الخلفي خلف الستار.

أقمنا الصلاة جماعة بصفين قصيرين أغلب من فيهما من المؤتمين هم عمال البناء، وذلك خلف شخص هو أستاذ في جامعة طهران وعالم بارز، وأستاذ سابق للفقه والفلسفه في الحوزة العلمية بمدينة قم، ومؤلف كتاب «أصول الفلسفة والمذهب الواقعي» الذي كان له ذلك الصدىٰ الواسع في داخل البلد وخارجه؛ أجل لم يصلّ خلفه أكثر من صفين صغيرين!

اعتليت المنبر بعد أن كان نصف الجمع قد انصرف مغادراً المسجد؛ في حين كانت حسينية الإرشاد في هذا الوقت بالذات تضج بأمواج الطلبة الجامعيين إناثاً وذكوراً؛ من طهران ومن المدن، والدكتور علي شريعتي يتحدث في الحضور ساعتين وثلاث ساعات دون أن يشعر أحد بالتعب.

قرأت مجلساً مختصراً يتناسب مع الجماعة الموجودة، التي لم أعرف منها إلا رجلاً وامرأة رأيتهما عند باب المسجد، في حين لم أكن أعرف البقية، وقد بدا أنّهم لا علاقة لهم بالأوضاع، وعندما انتهيت من المجلس ونزلت عن المنبر توجّهت إلى الشهيد مطهري متسائلاً: شيخنا، ما هذا المآل الذي آلتْ إليه الأمور؟

أجاب: ذهبتْ جميع المحاولات سدىً، فقد حاولت أن أجمع بين العلماء المعارضين والمتقدسين الجامدين، وبين الشباب المتطرف الجانح وحركات شريعتي، والهيئة الإدارية للحسينية فلم أفلح، والأدهىٰ من ذلك والأمرّ أن جميع المشكلات عادت لتُعْصب برأسي!

فالمتقدّسين يرون أنّني السبب في جلب الدكتور شريعتي والضجة التي ثارت حول حسينية الإرشاد. والشباب المتحمس الحادّ (المتطرف) ذهبوا مما سمعوه إلى أنني لا أوافق الدكتور شريعتي علىٰ تطرفه، لذلك أصبحوا في جبهةٍ معارضة لي. أما الهيئة الإدارية في الحسينية فقد اختارت أن تماشي الأجواء السائدة وتأخذ بنظر الاعتبار ميول الجمع الكبير الذي يحضر الحسينية، وبذلك التزمت موقف الجانب الآخر.

أضاف الشهيد مطهري قائلاً: من جهة أخرىٰ تم اعتقال الشيخ أكبر رفسنجاني وهو في السجن الآن، أما الشيخان باهنر ومفتّح فقد اكتفيا بالنظر إليّ

[يفهم من التعبير أن موقفهما لم يكن فاعلاً لصالحه في أزمة الحسينية] فيما اختار البعض الآخر أن ينسحب جانباً حينما رأىٰ الطقس غير ملائم وأخذ يتهرب من التزام موقف مؤيد لي!

إزاء ذلك كله اضطررت للمجيء إلى مسجد الجواد، فهو يضم مكتبة مهمة، وفيه قاعة باذخة؛ لممارسة التبليغ، لذلك خشيت أن يقع بيد غير أهله، أو أن يضع النظام يده عليه، فقمت بالتزامه وأداء الصلاة فيه، وهكذا رحت أقضي وقتي مع هذا القدر من الناس الذين رأيتهم، حتىٰ يقضي الله أمره.

أجل، يتجمع في أيام الجمعات فقط عدد من الأصدقاء ومن تلامذتي، فأقوم بإلقاء درس عليهم، وفي الليل يصعد بعض الأصدقاء المنبر ويلقون درساً في التفسير. نمضي علىٰ هذا البرنامج حتىٰ يقضي الله بأمره.

استطرد الأستاذ مطهري: أما الحسينية والضجة المثارة من حولها فقد تركناها لأهلها. فإن وجهوا لك الدعوة في بعض الليالي لصعود المنبر في هذا المسجد، فأجبهم، كما كنت تفعل في السابق، حيث كنت تأتي أحياناً وتجيبهم لطلبهم، وارتق المنبر في جمع أكبر لنستأنس بك أكثر.

شعرت في تلك الليلة بالحرقة والألم الشديد لحال ذلك الأستاذ الكريم، بما يحمله من معارف وعلوم. لقد كان أكثر شعوري بالأذىٰ نابعاً من حالة عدم الثبات والاستقرار السائدة بين أوساط الحوزويين، وغياب التنظيم عن المجتمع الروحاني [المؤسسة الدينية وأوساط الحوزويين والعلماء] بحيث يصل الحال إلىٰ ما آل إليه وضع شخص مثل الشيخ مطهري، إذ انهار التجمع الذي كان يؤطر الأعضاء الأصليين لحسينية الإرشاد، وتلاشت جماعة «حديث الشهر» وانتهىٰ الأمر إلى ما

انتهىٰ إليه فعلاً!

أما مصير الشباب فقد صار بيد «الأفندية» (غير المعممين) وهؤلاء لا يملكون بالتأكيد رؤية دينية نقية بنسبة مائة بالمائة، بل هم يتقلبون بين إفراط وتفريط وحبّ وبغض.

قلت مع نفسي: الله وحده هو العالم بما ستؤول إليه الأمور وتنتهي إليه من نتيجة.

لقاء مع د. شريعتي وحديث عن الشهيد مطهري حول حسينية الإرشاد

لي معرفة بالخطيب المشهور السيد صدر بلاغي(١). فقد كان يأتي إلى مدينة قم ويدرّس في حوزتها تأريخ الاسلام وفن الخطابة. وكنت وإياه نمضي شوطاً من الليل معاً في بعض الليالي.

والذي حصل في وقتٍ ما من سنة ١٣٥٠ شمسية★، حينما قدمت للاستقرار في طهران، أن دعاني السيّد بلاغي لتناول طعام الغداء في بيته الكائن في منطقه قلهك.

ذهبت في وقت الظهيرة، وكان قد حضر الدعوة غيري؛ السادة: الدكتور علي شريعتي، ناصر ميناچي الذي كان يتصدىٰ لحسينية الإرشاد آنئذ، السيد مرتضىٰ شبستري، السيد محمد صادق رضوي القمي، شريعتي زنجاني وأولاده، وصابري

---

(١) كاتب ومترجم، من آثاره تأليفاً وترجمة: قصص القرآن، برهان القرآن، جاهلية القرن العشرين والقضاء في الإسلام وغيرها.

★ المصادف ١٩٧٢ م.

زنجاني. كانوا جميعاً من علماء طهران، وكانوا يلتقون في ذلك الوقت مع السيد صدر بلاغي في يوم الثلاثاء من كلّ أسبوع.

حصل ذلك في الوقت الذي كان فيه الشهيد مطهري قد ترك الحسينية، ولم يعد له أية علاقة بها. ومن جهته أخذ المرحوم شبستري مع السيد صدر بلاغي بعد مغادرة مطهري، على عاتقهما إدارة أمور الحسينية مع الدكتور شريعتي والسيد ميناچي، بحيث كانوا يوجّهون النشاط التبليغي والفعاليات الدينية فيها.

كان معروفاً عن الدكتور شريعتي أنّه لا يألف المعممين، ولكن كما قلت، وكما ذكر لي السيد بلاغي في الدعوة تلك، أنّه كانت له جلسه أسبوعية مع أولئك، وجميعهم من علماء طهران، وهم متوافقون فكرياً مع شريعتي وأجواء تلك الأيام، كما كانوا جميعاً من المؤيدين للسيد شريعتمداري.

كانت هذه الجلسة الدورية تعقد كل أسبوع في بيت أحدهم، باستثناء شريعتي، ومن المؤكد أنّهم كانوا يتداولون في الجلسات تلك المسائل ذات الصلة بأعمال الحسينية، ومن بينها قافلة الحج التي أخذت تبعث بها الحسينية إلى مكة.

عرّفني السيد صدر بلاغي علىٰ الدكتور شريعتي، كما عرّفه عليَّ، وقد أبدىٰ كلانا سروره لذلك.

لم يكن للدكتور شريعتي استعداد كبير كي يمتدح أحداً ويشيد به [على صعيد الإشارة إلى أعماله الفكرية وربما الأخذ عنها كما يفهم من السياق] ومع ذلك قال لي مخاطباً: لقد استفدت من مؤلفاتك، ومنها كتاب «المهدي الموعود» وكتابك «الموعود الذي ينتظره العالم» وقد أشرت في أحد كتبي على نحو الكناية إلى أن أحد المعممين الشباب استطاع في هذه الأيام أن يعرّف بالإمام المهدي صاحب الزمان

بشكل جيّد وقد كنت أقصدك.

شكرته ثم خاطبته بقولي: السيد الدكتور، إنّك تشكل وجوداً نافعاً، فبالرؤية التي تملكها استطعت أن تجذب إلى دائرة الدين والمذهب الكثير من الشباب المتعلم، أو أولئك الذين لا زالوا في طور الدراسة [ويعني بهم الطلاب الجامعيين في الغالب] من الذكور والإناث، بل استطعت أن تجذب حتىٰ من لا علاقة له بالدين، سواء في مشهد، كما سمعنا، او في طهران وبعض المدن. ولا شك أن أفضل شاهد أسوقه على ما أقول هو إقبال الشباب على حسينية الإرشاد عندما تبدأ تحاضر، ولكن ...

سأل الدكتور شريعتي: ولكن ماذا؟

قلت مجيباً: ولكن احرص هذه الأيام على أن لا يجنح هؤلاء ـ الشباب ـ نحو الحدة والتطرف؛ واحرص علىٰ ضبطهم، كما عليك أنت شخصياً أن لا تكون طرفاً في المعركة ضد العلماء والمعممين وألّا يتخذوكم وسيلة للتطاول عليهم.

أراد الدكتور شريعتي أن يجيبني على ما قلت لو لا أنهم قالوا أن الغداء حاضر.
بعد أن انتهينا من تناول الطعام، بادر مضيفنا السيد صدر بلاغي قبل أن يتحدّث الدكتور شريعتي، بالقول: شيخنا لا شك أنّك تعلم أنّ حسينية الإرشاد بدأت تبعث منذ العام الماضي قافلة حجيج إلى مكة، إلى جوار ما تمارسه من أعمال تبليغية، وفي هذا العام سنذهب أنا والدكتور وبقية الزملاء إلى الحج.

أضاف: لدينا في الحسينية مجالس ليالي السبت حيث تحفل باجتماع مهيب حماسي للشباب، تلقىٰ فيه المحاضرات التي كادت تنحصر أخيراً بمحاضرات الدكتور. ولكي لا تتعطل هذه المجالس نستمدّ منك العون والمساعدة، فما نريده أن تتبنىٰ أنت مهمة إلقاء محاضرات ليالي السبت ريثما نعود نحن من الحج. وبدوره

سيقوم الدكتور بعد أسبوعين من الآن، حيث يلقي آخر محاضراته قبل أن يغادر إلى الحج، معلناً أنّ الحسينية لا تتعطل في فترة الحج وأنّ الشيخ دواني سيلقي المحاضرات الأسبوعية حتىٰ عودتنا. ثم إنّك كنت تأتي إلى الحسينية قبل ذلك وتتردّد عليها، وكذلك الآن التزم بالشيء نفسه.

من جهةٍ أخرىٰ لقد قدمت للتو للإقامة في طهران، وقد تحدثت مع السادة وقلت لهم إنّها فرصة جيدة أن تستثمر وجودك، وندعوك رسمياً للعمل عدّة سنوات في الحسينية بحيث تجعلها مركزاً لعملك. نحن لدينا حتىٰ الآن ما يقارب (١٥٠) محاضرة مسجلة ألقاها أشخاص متعددون في الحسينية، وجميعها لم تفرغ بعد من الأشرطة على الورق. والذي نراه، أن تُفرغ محتويات هذه الأشرطة، ثم توضع حصيلة الأوراق بين يديك، فتقوم بتهذيبها وتنظيمها واختيار العناوين لها، حتى تصدر في مجموعة من المجلدات وتطبع في إطار سلسلة منتظمة واحدة. وبالنسبة إلى حقوقك فإنّ لك بالإضافة إلى المرتب الشهري الذي تتقاضاه من عملك في الحسينية، حصة في حقوق التأليف، كما أن اسمك يثبت على المجموعة بعنوان كونك المنظم الذي اضطلع بمهمة تهيئتها وإعدادها للطبع.

استطرد السيد بلاغي: لقد تحدثت مع السادة وقلت لهم إنني ألقيت والسيد الصدر (الإمام موسىٰ الصدر) محاضرة في قم، قاموا بتفريغ محتوياتها على الورق، ثم أعطيت إلى الشيخ دواني لتنظيمها وإعدادها للنشر، فجاءت بصياغة ممتازة، بحيث لو كنت أنهض شخصياً بإعدادها وتهيئتها للطبع لم تأت أحسن من ذلك. ثم وضعتها بين يدي السادة كي يطلعوا عليها.

أما مقالك الذي نشرته في مجلة «مكتب إسلام» الأسبوع الماضي تحت عنوان

«على جبل حراء» من دون توقيع، فقد أمضيتُ معه وقتاً في الطريق وأنا عائد من قم إلى طهران، كانت ممتعة حقاً تبعث على اللذة والفائدة. أنا أعتقد أنّك أفضل من يستطيع أن يعيننا في حل مشكلتنا ومشكلة الحسينية، وهذا ما أتمنىٰ وأرجو أن تستجيب له.

أجبتُ: السيد بلاغي؛ السيد الدكتور، لقد جئت للتو من مدينة قم، خارجاً من أجواء مجلة «مكتب إسلام» و «دار التبليغ». وفي الواقع لا أجدني أطيق جواً تطبق عليه الضجة والأقاويل. لقد جئت إلى هنا لكي أعتزل وأجلس في زاوية بعيدة عن الأقاويل، ولكي أتفرغ إلىٰ التأليف والترجمة باطمئنان وراحة بال، وأصعد المنبر أحياناً ولكن بهدوء ودون مشكلات.

أضفت بعد برهة: قررت أن لا أذهب إلى أي مكان فيه ضجة وينطوي على مشكلات، وألّا أراود بيوت السادة المعروفين (الوجهاء) والتجار، ولا أشتّت نفسي في هذا المجال وذاك، بل أبقىٰ منكبّاً على عملي. أودّ أن أبقىٰ حراً طليقاً من نوازع الانحياز إلىٰ هذا الفريق أو ذاك، حيث تكثر في هذه الأيام الأوصاف التي تطلق على الأشخاص وتصنفهم على هذا الفريق أو ذاك، كما أردت أن أكون بعيداً عن ميول الحب والبغض لهذا أو ذاك.

لا شك أنّ دعوتكم لي للعمل في حسينية الإرشاد، هي أفضل فرصة يمكن أن تتاح لي لتوفير لقمة العيش، وأنا القادم تواً إلى طهران، حيث لم تسر أوضاعي بعد على ما يرام، ولكن لي شرط واحد؛ وهذا الشرط يتمثل في أن تحل مشكلة اعتزال الشيخ مطهري للحسينية، بحيث تضعون حداً لهذه العزلة بتوفير السبيل لعودته ورفاقه، وبهذه العودة أجيء أنا إلىٰ الحسينية وأبدأ عملي فيها براحة بال وهدوء

خاطر.

وإلا فهل من الصحيح أن أجيء إلى حسينية الإرشاد في الوقت الذي يكون فيه الشيخ مطهري قد تركها وذهب إلى مسجد الجواد، خصوصاً مع الخلفية المشتركة التي بيننا؟ وإذا قدِّر أن رضيت بذلك وقنعت به، فماذا أقول في جواب الناس والمعارضين، وهل ترون أنّ هذه المشاركة ستمرّ هكذا بدون متاعب ومشكلات؟

أجابوا: أوّلاً: الشيخ مطهري هو الذي ترك الحسينية وغادرها، ولم يتسبب أحد بذهابه. إنّ أكثر أسباب مشكلته مع الحسينية ناجمة من بحث مطبوع للدكتور ووالده، قيل إنه تضمن تبجيلاً بالخلفاء، هذا هو في الواقع مبعث الضجة[1]، والذي كتبه والده هو أنه تساءل قائلاً: لماذا نتحامل على رجال صدر الإسلام هؤلاء؟ أما الدكتور فقد كتب في بحثه أنّ النبي جاء في حال مرضه وقد رأىٰ أبا بكر قد تصدىٰ للصلاة مكانه، فتبسم علامة الرضىٰ، حتىٰ أنّ أنس بن مالك الذي يخدم النبي قال إنه لم ير النبي مسروراً فرحاً أبداً كما رآه مثل ذلك اليوم.

وحين بعث الدكتور بحثه من مشهد إلى الشيخ مطهري في طهران، كان قد كتب له بخطّ يده ـ والبحث لا زال محفوظاً في الحسينية ـ بأنّه موكّل من قبله في التصرف بالبحث بما يراه ضرورياً، بيد أنه لم يفعل وإنما أبقىٰ البحث علىٰ حاله، وأعطاه هكذا إلىٰ الطبع من دون أن يغيّر فيه، والآن حين أُثيرت الضجة عادوا ليقولوا إنّ المسؤول عن ذلك هو الدكتور نفسه.

---

(١) نشر البحثان: بحث الدكتور ووالده في كتاب «الخلافه والإمامة» وهو من منشورات حسينية الإرشاد.

قلت لمحدّثي: إذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن يبادر الدكتور لبيان ذلك وتوضيحه في محاضرته هذا الأسبوع، ثم يعمد بعد ذلك إلى حذف هذا المقطع وتجديد طباعة البحث من دونه، لكي يعرف الناس أنّ الدكتور لا يصرّ علىٰ هذا الموقف، حتىٰ لو افترضنا أنّ التقصير كان من الشيخ مطهري ورفاقه.

وهنا تدخل الدكتور شريعتي في الحديث، وقال: لا أدري إذا كنت قد عرفت بخبر الندوة التي عقدناها في الحسينية بعد أن بدأت المشكلة وأثيرت الضجة، كي نجيب من خلالها على المعارضين؟ لقد قلت شخصياً في تلك الندوة، إن هناك ثلاث نظريات فيما يتعلق بصلاة أبي بكر وطبيعة موقف النبي الأكرم منها، هذه النظريات أو الاقوال هي:

١ ـ ثمة من ذهب إلى القول أنّ النبي حين سمع في مرضه الذي توفّي فيه، أنّ أبا بكر وقف للصلاة مكانه، نهض من فراش المرض، وأُسند من جانبه من شدّة ما فيه، ودخل المسجد، ثم تقدم أمام أبي بكر ودفعه إلى الوراء بهدوء، ووقف للصلاة في مكانه، وذلك بشكل لم تنفرط فيه الجماعة. وهذا هو قول الشيعة.

٢ ـ وثمة قول يذهب إلى أنّ النبي حين دخل المسجد ورأى الناس مصطفة في صفوف تصلي وراء أبي بكر، دخله الفرح لكون المسلمين التزموا بصلاة الجماعة في غيابه، وما كان منه إلا أن انضمّ إلى الصلاة مقتدياً بأبي بكر مصلياً بصلاته، لكي يكون ذلك درساً للأُمّة تفهم من خلاله أهمية صلاة الجماعة وأنّ هذه السنة الحسنة يجب أن تستمر بعد النبي أيضاً. وهذا هو قول السنة.

٣ ـ وثمة قول ثالث ذهب إلىٰ أنّ النبي دخل المسجد حين سمع أنّ أبا بكر وقف للصلاة مكانه، فأعجبه حين رأىٰ الصلاة أن تلتزم الأمة بصلاة الجماعة في حياته

وتؤديها حتىٰ حال غيابه، فداخله لذلك سرور كبير، حتىٰ أنّه تبسم علامة الموافقة والرضا، بحيث نقل عنه أنس بن مالك أنّه لم يـر النـبي مـسروراً كـما رآه في ذلك الموقف.

شخصياً اخترت هذا القول، لأنّه ينطوي على أهمية فائقة من وجـهة النـظر الاجتماعية، لأنّ هدف النبي من صلاة الجماعة، هـو أن تُحـفظ بـتلك الهـيئة وذاك الشكل.

عندما انتهىٰ الدكتور من كلامه، أيّده الحاضرون انطلاقاً من تأكيدهم على أن الدكتور إنّما اختار هذه الوجهة في المسألة وأطلّ عليها من هذه النـافذة بـالذات، بحكم تخصصه الاجتماعي.

عاد الدكتور للحديث، فأضاف قائلاً: وما دمت عرضت لهذه الأقوال في تلك الندوة، فأعتقد أن ذلك كان كافياً، وبالتالي لا يستدعي الموقف العودة إلى أصـل البحث وحذف المورد منه. فهذا شيء غير سائغ يبعث على زيادة الأقاويل.

تدخّل السيد صدر بلاغي بالحديث فقال: شيخنا، أضف إلىٰ ما مرّ أنّ الدكتور ينوي أن يبحث في موضوع الخلفاء، ويمحصه بالبحث تمحيصاً دقيقاً، بحيث يكشف عن الجماعات والتحالفات التي كانت، حتىٰ في زمن النبي بـين الخـلفاء وعـائشة وحفصة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد للسـيطرة على الخلافة الإسلامية بعد النبي فهو يريد أن يكشف الستار عن جميع ذلك، لكي يثبت أن واقعة خلافة الخلفاء لم تأتِ هكذا بنت ساعتها، بل كانت ثمرة لتـخطيط سابق، وأنّ هؤلاء كانوا بانتظار الفرصة المناسبة.

أضاف السيد بلاغي: وهذا العمل فيما أرىٰ، أفضل في تأثـيره مـن أن يـعود

الدكتور إلىٰ ما كتبه سابقاً فيطاله بالحذف والتغيير، وما عليك إلا أن تصبر لتنظر انطلاقة العمل الجديد[1].

جاء دوري في الحديث فقلت معلقاً على ما سمعت: دكتور، ما قلته لا يكفي، فما لم تغير ما كتبته وجئت بذكره في بحثك المطبوع، لن تهدأ الضجة ولن تنام، ولا يبرئك أحد من المسؤولية.

أضفت: لأنّي أتمتع بروحٍ ولائية أنطلق منها، لذلك سأقول الذي أقوله من دون تحفّظ؛ فما ذكرته من أنّ النبي صلّىٰ وراء أبي بكر وبصلاته، أو أنّه تبسم حين رآه يصلّي مكانه لما داخله من الفرح والسرور والرضىٰ، لو أن المرحوم آية الله البروجردي المرجع الكبير وفقيد عالم التشيع قال به، لكان أنزل من المنبر مع جميع ما له من اسم ووجاهة ومكانة، بل لكانت حياته في خطر. إذ مع هذا القول يكون جميع تأريخ الشيعة في دائرة السؤال والاستفهام، ولا أحد يعرف بعد ذلك ما هو الكلام الثابت الذي يتمسك به الشيعة بشكل مستدام.

لقد بذل علماء الشيعة ومتكلموهم وفلاسفتهم جهوداً في بحث هذا الموضوع خلال (١٤) قرناً وسجّلوا ثمار بحوثهم في كتبهم الكلامية، حيث ذكروا أنّ القول الفصل في هذه الواقعة، أنّ النبي حين أُخبر أن أبا بكر وقف للصلاة مكانه، نهض من فراش المرض على ما فيه من ضعف، حتىٰ كانوا قد أسندوه من جانبيه، ودخل المسجد، ثم تقدم للصلاة أمام أبي بكر بعد أن دفعه إلى الوراء، لكي لا تكون هذه

(١) شخصياً لم اقرأ جميع مؤلفات الدكتور، بيد أني لاحظت ملامح هذه الفكرة التي طرحت في هذه الجلسة، إلى هذا الحدّ أو ذاك، في محاضراته اللاحقة، وأقدّر لو أنها جمعت في مكانٍ واحد لشكلت عملاً رائعاً.

الصلاة ذريعة لكسب موقع الخلافة الإسلامية، ولكي تدرك الأُمة أهمية خطورة المسألة، بحيث يختار النبي على ما فيه من علة ومرض، أن ينهض من فراشه ويدخل المسجد ويصلي في الناس بدلاً من أبي بكر.

أما القول الثاني الذي ذكرته، فهو من الموضوعات، ولا أساس من الصحة لما يقال من أنّ النبي صلّىٰ وراء أبي بكر.

والقول الثالث مردود أيضاً، فإذا كان المراد هو إقامة الجماعة وحفظ هذه السنة الحسنة، فقد كان يكفي النبي أن يستحسن قولاً فعل أبي بكر، ويصل القول إلى الناس.

وما أخلص لقوله إنّ الشيعة لا تعتقد بالقولين كليهما، كما أنّهما لا يتسقان مع الظواهر.

وإلا إذا كان الأمر كذلك فلا يبقىٰ معنى لجميع وصايا النبي (صلىّ الله عليه وآله) التي تؤكد على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ كما لا معنىٰ لواقعة الغدير وتأكيد النبي وإصراره في توجيه الناس وجذبهم إلىٰ فعله، إذ بمقدور الجميع أن يعترضوا بعدئذ ويقولوا: إذن لم تكن الأمور ولم تجر يقيناً على ما ذكر.

أضفت: لاحظ أيها الدكتور؛ إنّ ما كتبته لم تكن له سابقة صدرت من شيعي معتقد حتىٰ الآن، خصوصاً وإنّك كتبت ذلك انطلاقاً من حسينية الإرشاد، ومن بلد يُعد مركزاً وحيداً للعالم الشيعي، ومع ذلك تريد أن لا يعترض أحد بشيء، ولا يحسبه عليك وعلى الحسينية؟ وتريد أيضاً أن لا يتحدث الشيخ مطهري بشيء؟ لو لم ينسحب الشيخ مطهري جانباً ويترك الحسينية، لكان هو نفسه في معرض خطرٍ جدّي يداهمه، أكثر بكثير مما يقال عنه الآن، فكيف بك وأنت أفندي (غير معمم)؟

قلت محذراً: أشعر كاملاً بالخطر، وأرىٰ المستقبل مدلهماً مظلماً، وأخشىٰ أن نفقدك.

لم يرتح الدكتور لذلك، فقرّب الكرسي الذي كان يجلس عليه، إلى الامام، وقال: أوّلاً، أنا شخصياً ولائيّ [من الولاء لأهل البيت عليهم السلام] ولا أعتقد أنّي أقلّ من الآخرين في هذا المجال؛ كما أعتقد أنّ الضجيج لن يستمر. وثانياً حين أقوم ببحث موضوع الخلفاء في الإطار الذي تحدّث فيه السيد بلاغي، وما فعله أولئك، سأقول كلاماً يجتث الضجّة من أصلها ولا يبقي لها أثراً، بحيث تخيب آمال أُولئك الذين يريدون انتهاز الفرصة والإفادة من الضجة، كما يخيب المعترضون.

في هذه اللحظة تدخّل المرحوم السيّد مرتضىٰ شبستري، وقال: شيخنا، هل تجيبنا بقول مؤكّد إلى ما نريد من أنّك ستحاضر في الحسينية مكاننا إلى أن نعود؟ طبيعي إنّ ذلك سيكون بإعلان الدكتور نفسه، إلى الحاضرين، من أنّ المجلس الأسبوعي سيستمر بمحاضرات يلقيها الشيخ دواني طوال مدّة الحج.

والشيء الآخر، هل أنت مستعد لأن تضع الحسينية في حساب أعمالك، فتواصل نشاطك الكتابي من خلالها كما كنت تفعل في قم، وترتاح من مشكلات المنبر؟

أجبت: في الحقيقة، لا أستطيع! فما لم تعد العلاقة علىٰ ما يرام بينكم وبين الشيخ مطهري، وما لم يعد الشيخ إلى الحسينية مرة أخرىٰ، لا أستطيع أن ألتزم بأداء العملين اللذين اقترحتموهما عليّ.

أخذ حُضّار المجلس ينظر بعضهم إلى بعض، وخيّم السكوت المخيب عليهم. استمر الحديث حول الموضوع أكثر من ساعة، نهضت بعدها لتوديع الجمع ومغادرة

المكان.

وهنا تدخّل الدكتور شريعتي بالقول: إذا أردنا أن نتجاوز ما مرّ، فربّما كان الشيخ دواني هو «الروحاني» (المعمّم) الوحيد الذي تحدّث معنا بصدق وصراحة مقرونين بالحرص والمحبة، وأنا شخصياً أحترم هذا النهج في التفكير، وأُقدّر هذا الأسلوب في العمل.

شكرت للدكتور شريعتي موقفه، ثم ودّعت حضّار المجلس في جوّ يسوده الألم والتأثر [بسبب عدم الاستجابة لطلبهم] وغادرت المنزل.

ما أن وصلت إلى خارج الدار، حتىٰ كان السيد صدر بلاغي قد جاء يسعىٰ ورائي بدون عباءة، وبالنعال فقط، ووقف معي في الزقاق وهو يقول: أخي، لماذا لم تقبل هذا العمل؟ عليك أن تعرف بأنّ هذه الدعوة كانت لأجلك وحدك تقريباً. فقد ذكرتك بخير ومدحتك، وأردت أن أُسدي لك خدمة، ولا أعتقد أنّ الشيخ مطهري سوف يعترض علىٰ قدومك، وعليك أن لا تفكر بالموضوع كثيراً وتشغل بالك به، فربّما عاد الشيخ مطهري إلى الحسينية أيضاً.

أضاف: لقد قلت لهؤلاء السادة إنّ الشيخ دواني الذي جاء إلى طهران للتو ولم ينشغل بعد، هو أفضل من ينهض بهٰذين العملين، فأيّد كلامي السيدان رضوي وشبستري لأنّهما يعرفانك جيداً. أما الآن وقد رفضت، فماذا ستفعل، وكيف تعيش وتدير حياتك في هذه المدينة الخربة؟ [يقصد الخراب المعنوي وانهيار أقدار الرجال، حيث يتأخر من مِن شأنه التقدم ويتقدم من لا يستحق ذلك] قال ذلك، ثم أضاف: عُد واقبل العمل!

شكرته على كلامه، وتوجّهت إليه قائلاً: لاحظ سيدنا، إنّ الذي تفكر به لي،

هو أفضل عمل يناسبني، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أطيق الضجة والأقاويل. لقد ارتحت من أوضاع قم، فهل أعود لأبتلي بأوضاع حسينية الإرشاد؟

ردَّ عليَّ السيد بلاغي بلهجته الصريحة المعهودة عنه، بقوله: اترك جميع هذا الكلام يا أخي! إنّه عمل جيّد، بل هو لباس فصِّل على مقاسك، وهذا عمل لا يخرج من عهدته أحد سواك.

أضاف: الناس همج رعاع يتحركون مع الريح، فدعهم وما يقولون، إذ لا ينبغي للإنسان أن يضع لحيته بيد الناس، تعال أنت إلى الحسينية، وربما عاد مطهري أيضاً. قلت في جوابه: في الواقع، الناس في جهة، والشيخ مطهري في جهة ثانية. وفي الحقيقة لا أستطيع التزام العمل من دون عودة الشيخ وحلّ مشكلته. لقد خرجت من الحفرة [كناية عن معاناته في حوزة قم] فلا أريد أن أقع في البئر [كناية عن أزمة حسينية الإرشاد] بحيث أعيش مضطرباً قلق البال مشوّش الأفكار. إنني أفضل أن أبقىٰ حراً ووحيداً بدلاً من ذلك.

قلت ذلك والحزن يغمرني، ويحيط بي التأثر والأذىٰ [لرفضي العمل] أكثر من ذي قبل، ثم ودَّعت السيد صدر، وانصرفت.

في الليلة التالية، اتصل بي هاتفياً المرحوم شبستري، وقال: هذه الدعوة لم تكن إلا لك وحدك تقريباً، فقد كان السيّد البلاغي يعتمد عليك وعلى قلمك ويعوّل عليهما كثيراً. لقد امتدحك كثيراً، ونحن أيّدناه، ورأينا أنّك الشخص الوحيد المناسب الذي يمكنك أن تنهض بهذا العمل، ولن يعترض أحد علىٰ عودة الشيخ إن رغب هو في ذلك.

بيد أنّ جوابي للمرحوم شبستري الذي كان رجلاً عالماً عطوفاً محبّاً للخير،

كان هو الرفض مرةً أخرىٰ، ولكن بأذى وألم يعتصرانني ـ نتيجة الرفض ـ إذ لم يكن يبدو أمامي أي طريق آخر للحل.

والآن، رغم مرور السنوات على الواقعة، لا زلت متأثّراً أحسّ بالألم، فلماذا انتهىٰ الأمر إلىٰ هذا المآل، ولماذا لم أستطع أن أستفيد من إمكانات حسينية الإرشاد، بحيث انجرّت المسألة إلى عدم التوافق، كما هو الحال في الكثير من أعمالي التي لم يحالفني فيها التوفيق، وأضعت فرصاً ذهبية، أفلتت من بين يدي!

اعتقال السافاك للأستاذ الشهيد

بعد مرور مدّة على هذه الدعوة، سمعت أنّ السافاك اعتقل الشيخ مطهري، ووضعه عدّة أيام في السجن الانفرادي، ثم أطلق سراحه.

والذي حصل بعد أسبوع من هذه الواقعة أنّ أحد الأصدقاء من أهل المنبر ـ وهو اليوم إمام للجماعة في أحد مساجد طهران الجيدة ـ دعانا إلىٰ بيته لتناول طعام العشاء علىٰ مائدة واحدة مع السادة فلسفي، مطهري، محمد تقي جعفري.

بعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء التفت الشيخ فلسفي إلى الشهيد مطهري يسأله: ما هي قصة اعتقالك؟

أجاب الأستاذ الشهيد: لا شيء! كلّ ما هناك أنّ السافاك جاء إلى بيتي، واقتادوني، ثم وضعوني في سجنٍ انفرادي لمدة أربع وعشرين ساعة (أو ٤٨ ساعة، والشك من عندي) بحيث ظننتُ أنّهم بصدد إعدامي، إذ كان تعاملهم معي سيئاً للغاية.

بعد ذلك دعوني للتحقيق معي، وقد كان أوّل سؤال وجهوه لي هو: ماذا تفعل

في حسينية الإرشاد، وما هذه الأوضاع (السيئة) التي تسببتَ بها؛ ولماذا لا تكفّ عن هذه الأعمال وتنتهي عنها؟

أجبت: أنا! ماذا أفعل في حسينية الإرشاد؟!

ردّ عليَّ المحقق: أجل أنت.

أجبته: منذ سنة وأنا قد غادرت الحسينية وتركتها، فلماذا لم توجهوا لي السؤال حين كنت في الحسينية، وتوجهونه الآن لي وقد خرجت منها؟

أجاب المحقق: عجيب! إذن أين أنت الآن؟

قلت: منذ مدة وأنا في مسجد الجواد، فكيف تجهلون ذلك؟

وجّهوا لي بعد ذلك عدداً من الأسئلة، ثم اعتذروا لي، وقالوا: أنت حر، بإمكانك أن تذهب!

ضحكنا جميعاً من هذه القصة، ثم سألت: هل إن السافاك يجهل فعلاً أنّك خرجت من الحسينية أم إنّ القضية تنطوي على سيناريو معيّن، دفعهم للتظاهر بالجهل وعدم المعرفة، وهل يعقل أنّهم في غفلة إلى هذا الحد؟

ردّ عليَّ الأستاذ: لا أعرف، فهذا ما حصل.

في هذه اللحظة نقلت للحاضرين قصة الشيخ عبد الله المبارك رجل الكويت الذي كان يفعل ما يشاء في البلد قبل الاستقلال، وقلت للشهيد مطهري إنك أيضاً قد ابتليت بسفيه كعبد الله المبارك.

وفي تفصيل قصة المبارك، قلت للأصدقاء: دعيت منذ سنوات لارتقاء المنبر في مجلس بالكويت. فذكروا لي أنّ عبد الله المبارك كان حين كانت الكويت تحت حماية الإستعمار الإنكليزي، رئيساً للشرطة، ووزيراً للداخلية، بل كانت في قبضته جميع

مقاليد الأمور. فهو ابن عم الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير الكويت آنئذ، وابن الشيخ مبارك أمير الكويت الأسبق!

لقد كان هذا الرجل مستبداً، له مزاجه وأخلاقه الخاصة به، لذلك أمسك بزمام جميع الأمور، وقد تركه الشيخ لحاله. أما بعد استقلال الكويت، حيث شكّلوا مجلساً للوزراء، وقرروا أن يكون لهم مجلس نيابي، أخذوه وأبعدوه من الكويت، لذلك عندما كنت في الكويت كان هو مبعداً في لبنان. من بين أعماله التي تكشف عن الاستبداد والمزاج الشخصي في عمله، هو ما قيل من أنّ أحدهم تقدم إلى الشرطة بشكوىٰ ضدّ شخص باسم الحاج نجف البزاز، توجه عبد الله المبارك إلى أحد الشرطة، وقال له: اذهب وجئ بالحاج صمد الصرّاف!

ذهب الشرطي، وعاد ومعه الحاج صمد الصرّاف، فما كان من عبد الله المبارك إلا أن أمر بضربه مائة سوط من دون مقدّمات، ومن دون أن يتحدّث معه بشيء!

بادر الشرطة لامتثال أمر المبارك، فمدّوا الحاج صمد على الأرض، وبدأوا بضربه، والشيخ جالس على كرسي هزّاز يراقب المشهد وهو مشغول بقراءة مجلة.

راح عبد الله المبارك يرفع رأسه من بين صفحات المجلة، بين لحظة وأخرىٰ وهو يسأل الشرطة عن عدد الأسواط التي ضربوها، فيجيبونه: يا طويل العمر، عشرون، ثلاثون، أربعون، ستون! فيعود ليقول لهم: اضربوه! والحاج صمد يبعث صرخات الألم العميق.

انتهىٰ الحال إلى ان يسأل المبارك شرطته بتمام البرودة واللامبالاة، ومن دون أن يلقي بنظرة علىٰ الرجل المسكين سيئ الحظ: ها! كم ضربتموه؟

أجاب الشرطة: مائة سوط!

قال الشيخ: يكفي اتركوه، وبتعبيره: رُح اطلع برَّه!

ينهض الحاج بصعوبة بالغة وهو ما بين الحياة والموت، ويتوجّه إلىٰ المبارك بالسؤال: يا طويل العمر! هل أستطيع أن أعرف الذنب الذي اقترفته لأستحق عليه هذه العقوبة؟

أجاب المبارك بعد أن أغلق المجلة التي بين يديه: مو أنت (ألست) الحاج نجف البزاز؟

ردّ الحاج صمد: لا والله، أنا الحاج صمد الصرّاف، اسأل أهل السوق!

انتبه المبارك إلى خطأه، فقال بمنتهىٰ البرود واللامبالاة: عجباً! ؟ أنا اشتبهت: اطلع برّه!

ضحك الحاضرون لهذه القصة، إذ لم تكن بعيدة عن قصة السافاك في اعتقالهم للشيخ مطهري واستجوابهم له، من دون أن يكون له الحق في مناقشتهم.

أما أنا فكنت استبعد أن يكون السافاك قد وقع في خطأ بعدم معرفته لنشاط الأستاذ مطهري وأنّه ترك حسينية الإرشاد منذ سنة، وغادرها إلىٰ مسجد الجواد الذي اتخذ منه مركزاً جديداً لنشاطه، وهو الجهاز الذي يملك جميع تلك الإمكانات، وإن كان للسافاك أحياناً مثل هذه الحماقات.

صرّافون لا يعرفون الجوهر!

حصل أيضاً في احدىٰ الليالي أن دعانا أحد الأصدقاء من أهل العلم، لتناول طعام العشاء في بيته، وقد كان أصبح للتو إماماً لصلاة الجماعة في أحد مساجد طهران. كان المدعوون هم المجموعة نفسها، أي السادة: فلسفي، مطهري، محمد تقي

جعفري، وأنا.

لقد بادر أصحاب المسجد لشراء بيت جديد وجيّد لصديقنا الذي أضحىٰ إماماً للصلاة في المسجد، ووجيه المحلة، بالإضافة إلىٰ سيارة من طراز «پيكان» كانت واقفة عند الباب أمام المنزل.

بعد أن تناولنا طعام العشاء في بيت هذا الصديق، وخرجنا، وقفت أنا والشهيد مطهري بانتظار سيارة التاكسي التي تقلّنا لبيوتنا. في هذه اللحظات القصيرة التفت لي الشيخ مطهري، وقال: انظر إلى هؤلاء الناس عديمي الوفاء! لقد اشترىٰ أصحاب المسجد لصديقنا هذا الذي كنا الآن في بيته، منزلاً وسيارة جديدين، فهنيئاً له ذلك، ولكن ألا يحسن بالناس أن يتوجهوا إلىٰ القيم أيضاً؟ إلى متىٰ ينبغي أن يبقىٰ الناس بهذه البساطة والسذاجة؟

أضاف: لو أنّك أصبحت أشهر منبري وبلغت في ذلك الذروة، لبقيت رجلاً منبرياً وحسب، لا تزيد على ذلك أو تنقص. ولو أنّك أصبحت علّامة الدهر، وكتبت أفضل الكتب، فإن الناس لا تلتفت إليك ولا تعتني بك، ولا شأن لها بك! ولكن ما إن تصبح صاحب مسجد، وتكون إماماً تؤمّ الناس بالمحراب، حتىٰ تتحوّل ـ دفعة واحدة ـ إلى سيّد (وجيه)، وآية الله، وجناب السيّد! تُشترىٰ لك الدار، وتبعث إلىٰ الحج، ثم تراهم يشعرون بالفخر بتزويج بناتهم من ابنك، ويتقدمون إليك في خطبة ابنتك لأولادهم بامتنان وتواضع! وخلاصة الأمر تتهيأ لك جميع المزايا والأشياء، بالمسجد وإمامة الصلاة في المحراب، مع أنّ هذه الممارسة لاتحتاج إلىٰ أيّة مؤونة ولا مؤهلات.

أما أنا، وقد تملكت سيارة قديمة، فهل تدري مقدار كلامهم ضدّي؟!

لماذا نذهب بعيداً، وهذا الشيخ فلسفي أمامنا، انظر اليه حين منعه السافاك من صعود المنبر للخطابة، فأنا علىٰ علم من أنّ أحداً من هؤلاء الناس لم يذهب إليه ولم يصله أبداً. ولو لم يتحرك شخصياً، يكتب ويؤلّف ويبيع، لما بقي له شيء، ولكان لا عين له ولا أثر!

فحين كان يراود المنبر ويعتليه للخطابة كانوا يترددون عليه ذهاباً وإياباً، ولكن حين فهموا أنّه أصبح جليس بيته، قد راحت عنه أُبهة المنبر والجاه الذي كان له في ذلك، أخذ يُنسىٰ تدريجياً.

تساءل الشهيد مطهري: هل هذا وضع صحيح؟ هذه الناس لا تقيم وزناً لكونك أستاذاً وباحثاً وكاتباً وخطيباً أو استاذاً جامعياً، ولكن ما أن تطأ قدماك محراب المسجد، حتىٰ تتهيأ لك جميع الأمور!

لم يكن الأستاذ يعني بكلامه أهل المحراب والمسجد (أئمة الجماعة) بل كان يقصد الناس في عدم إدراكهم لواقع القضية، بحيث يرون أنّ العلم والفضل ليسا دخيلين في استحقاق صرف الميزانية الدينية، ولكن ما إن يصبح هذا الإنسان العالم الفاضل صاحب مسجد، وتصل قدماه إلى المحراب، حتىٰ تتوفر له جميع الإمكانات. فحتىٰ لو كان صاحب المسجد لا يعتني بإنسان لكونه عالماً وكاتباً دينياً وواعظاً مشهوراً، ولا يقيم له وزناً، ترىٰ موقفه ينقلب منه، عندما يصل إلى محراب الصلاة ويغدو إماماً للجماعة في المسجد، حيث تسير أموره علىٰ ما يرام، كما حصل في مرّات كثيرة، وكما نعرف ذلك أيضاً. خلاصة الأمر، أنّ المسجد والمحراب، أصبحا شرطاً، وليس العلم والفضل!!

هل رأيتم الناس تسعىٰ وراء عالم له وزنه، جالس في زاوية من زوايا بيته،

معتزل لا يخالط الآخرين، لتقدر فيه مكانته العلمية ومركزه*؟

أخذت أقول مع نفسي إنّ هذا الوضع ليس جديداً، بل هو الحالة السائدة أبداً. أمّا إلى متىٰ ستدوم بحيث لا يُعرف لأهل العلم والفضل قدرهم، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله.

منع الأستاذ الشهيد من المنبر

في سنة ١٣٥٤ شمسية** مُنع الأستاذ الشهيد [رسمياً من قبل النظام] من ارتقاء المنبر للخطابة. وقبل أن يُمنع من ذلك كان يُدعىٰ أحياناً للاشتراك في المراكز العلمية أو في جلسات للتبليغ تُعقد في محافظات البلد، وفي هذه الحالات كان يدعوني للذهاب بدلاً عنه للحديث في الجلسات التي كانت له في طهران. لقد حظيت بهذا التوفيق عدّة مرّات؛ كان من بينها مشاركتي بالحديث في جلسة واحدة أو جلستين في جمعية المهندسين.

أما حين منع الأستاذ رسمياً من ارتقاء المنبر، فقد كان ذلك الأمر يحصل كثيراً. جاءني في أحد الأيام وطلب منّي أن أتحدّث بدلاً عنه في احتفال يعقد بمناسبة النصف من شعبان، في بيت كبير واسع يقع في منطقة قلهك، فقد كان الأستاذ الشهيد هو الذي يخطب في هذا الحفل السنوي الكبير، ولكن بعد أن منع طلب منّي أن

---

* هذا كلام صحيح، وثمة في واقعنا ما هو أدهىٰ منه وأمّر، ولكن ألا يحسن بنا أن نسأل عن أسباب تردّي وعي الناس إلى مثل هذه المعايير الهابطة؟ وهل يعدّ العالم والباحث والمؤلف والخطيب نفسه بعيداً عن التقصير أم أنّهم يتحمّلون قسطاً من المسؤولية في طبيعة المعايير الخاطئة التي ساهموا بإشاعتها بين الناس بهذا القدر أو ذاك؟ [المترجم]

** المصادف ١٩٧٦ م.

أتحدّث نيابة عنه، كما قال إنّه شخصياً سيحضر في الاحتفال وإن لم يصعد المنبر. لم نكن نعرف في ذلك الوقت أسباب منعه من ارتقاء المنبر، ولم يطلعوه شخصياً على تلك الأسباب ولم يذكروا له لماذا منعوه. ولكن الصحف بادرت بعد انتصار الثورة الإسلامية إلى نشر وثيقة عن «السافاك» قمت بدوري بنشرها في المجلد السادس من كتاب «نهضة علماء إيران» وقد كان نص الوثيقة كما يلي:

سرّي للغاية

سافاك طهران ـ ٢٠هـ. ١٢ / ٢٩ / ٥٤

الموضوع: حول الشيخ مرتضىٰ مطهري ابن الشيخ حسين.

نعلمكم أنّ المذكور أعلاه هو من المعممين غير المريحين، ومن المتطرفين ممن منع أخيراً من ارتقاء المنبر، لما يشيعه من أفكار معارضة.

المطلوب أن تصدروا أوامركم لمراقبته، والحيلولة دون صعوده المنبر إذا حاول ذلك، علىٰ أن تُعلموا السافاك خلال تقرير يرفع عبر خطّ المراتب. انتهىٰ.

لقد دام منع الأستاذ الشهيد من المنبر إلىٰ ما قُبيل انتصار الثورة الإسلامية.

الحياة أشبه بمائدة قمار!

كما ذكرت، مرّت سنتان متواليتان والأستاذ الشهيد ينتدبني كي أصعد المنبر مكانه في الاحتفال الكبير الذي كان يعقد في أحد البيوت الكبيرة في منطقة قلهك، بمناسبة النصف من شعبان، وكان بدوره يحضر الاحتفال المذكور كأحد المشاركين فيه من دون أن يرتقي المنبر.

كنّا نتبادل الحديث فيما بيننا قبل أن أصعد المنبر، وبعد ذلك أيضاً؛ نتجاذب أطرافه من كل جانب، نتباث همومنا ونتبادل الشكوىٰ.

وعلى ذكر المنبر وانتداب الشهيد مطهري لي، أذكر أنّ ذلك حصل أيضاً مع الخطيب المشهور الشيخ محمد تقي فلسفي، فبعد أن منعه السافاك من ممارسة النشاط المنبري، هذا المنع الذي دام من سنة ١٣٥٠ شمسية*، حتىٰ انتصار الثورة الإسلامية، كان يكلّفني أحياناً بصعود المنبر مكانه، وقد حصل ذلك عدّة مرّات، حيث كان يحضر المجلس ويشارك فيه كأحد الحاضرين، وبدوري كنت أُمجِّد بهما (مطهري وفلسفي) حينما أصعد المنبر بدلاً منهما، لكي أواجه بهذا الأسلوب ضغط السافاك عليهما.

انطلاقاً من هذا الموقف بالذات تعرّض لي السافاك مرّات وساءلني عن ذلك.

في إحدىٰ الليالي بثّ لي الأستاذ الشهيد شكواه، وبدوري تبادلت معه الهموم وبثثته ما أعاني منه وما يعتصر قلبي. كان يمرّ في حالة لا ينبغي أن يظهرها على لسانه، بيد أنّه كان يتحدّث عنها، وإن كان لا يفعل ذلك إلا مع القلة القليلة. حين أخذ يحدّثني، كان يبدو أنّه وجد الذي يبثّه همومه ويبادله الشكوىٰ. وفي الوقت الذي كان يستريح من بثّ الهموم والترويح عن النفس، كان يهدف أن يسكنّ آلامي ويصبّرني فيما أعاني منه، أيضاً.

والذي لا أزال أذكره هو ما حصل في ليلة من تلك الليالي حيث كان الجميع غارقين في البهجة، يغمرهم السرور، وتحيط بهم الفرحة من كلّ جانب، أما نحن فكنا نتجرع الغصص ونعاني الآلام. وفي هذه الأثناء تقدم صاحب الدار وبيده

* المصادف ١٩٧٢ م.

سكين واقترب من الأستاذ وقال له باحترام: سماحة شيخنا المطهري، لطفاً ابدأ أنت بتقطيع الكيك (الكعكة).

كانت هناك منضدة كبيرة تتوسط ساحة الدار، تنتصب عليها قطعة الكيك الكبيرة جداً، التي ربما بلغ ارتفاعها متراً ونصف المتر. وقد أراد صاحب الدار أن يتابع ما تمليه الأعراف الغربية، حيث يتقدم أكثر الحضور في الحفل وجاهة، لكي يقتطع منها قطعة، حتىٰ يتمّ توزيعها على قطع صغيرة بين المدعويين.

حين تقدم صاحب الدار، وهو من التجار المعروفين في البازار [سوق طهران الكبير] ولا زال، كان الشهيد مطهري منهمكاً في الحديث عما يعانيه ويعتصر نفسه من آلام ومشاقّ، لذلك أجاب صاحب الاحتفال بقوله: اذهب أنت واقطع قالب الكيك، فأنا شخصياً لا أرتاح لأفعال الغربيين هذه.

انكمش صاحب الدار وشعر بالحرج وذهب. أما أنا فقد ضحكت بمرارة، وقلت: نحن في أي وادٍ، وأنت بهذا الطراز من التفكير في أي وادٍ!

التفتُّ للشهيد مطهري في مجلسنا تلك الليلة، وقلت: شيخنا، لقد وضعتني مكانك في مثل هذه الأوضاع الصعبة، وقد اجتمعت الناس من جميع الطبقات في هذا المجلس وهي تنتظر أن أتحدّث لها بحديث لا يمكن الإفصاح به هنا.

أضفت: أجل، كيف يستطيع الإنسان أن يتحدّث بطريقة ترضي الناس، ولا تثير في الوقت نفسه حفيظة النظام؟ [أشار لذلك على نحو الكناية من خلال مثال دال علىٰ المراد]. في الواقع أنا لم أُمنع من صعود المنبر، بيد أني أحسّ بعدم الارتياح أكثر منكم.

أجابني الأستاذ والمسبحة بيده على عادته، وهو يكرّ خرزاتها بفواصل

أصابعه: أخي، ما تقوله صحيح، إذ لا يجب أن يمنع الجميع من ارتقاء المنبر، ولا يجب أن تغلق أبواب المجالس والمساجد، كلا. لقد كان حديثك جيداً جداً، وليس من المصلحة أن تلج في البحث أكثر من ذلك. علينا أن ننتبه إلى جميع القضايا، ونبتعد عن الإفراط والتفريط، كما علينا أن نسعىٰ في أن يكون عملنا لله في جميع الأحوال.

انتهىٰ الأستاذ الشهيد من قوله ذلك، ثم أضاف بلهجة خاصة: أخي الشيخ الدواني، الدنيا مثل القمار، يربح فيها الإنسان تارة، ويخسر تارة أخرىٰ، لذلك علىٰ الإنسان أن يتواءم مع الصعوبات والمشكلات ويتكيّف معها، فالحياة لا تسير علىٰ خط رتيب واحد ولا تكون كذلك، بل هي تحفل بالتقلبات.

انتبهت فيما بعد من خلال مطالعاتي إلى أنّ الأستاذ الشهيد في تشبيهه الدنيا بمائدة القمار، كان يبدو أنّه أخذ هذا الكلام من السيد جمال الدين أسد آبادي. ففي الكتاب الذي ألّفه الميرزا لطف الله أسد آبادي ابن اخت السيد جمال الدين، والذي صدر تحت عنوان: «حياة السيد جمال الدين أسدآبادي وآثاره» ذكر إنّ من بين كلمات السيد قوله: الحياة مثل مائدة القمار، يربح فيها من يربح، ويخسر فيها من يخسر!

أجبت الشهيد مطهري: أجل، طبعاً. ثم قلت: ولكن شيخنا، كم نملك نحن البشر من طاقة الصبر والتحمل؟ وكم يتحمل الإنسان من بني جنسه؛ من أحابيلهم وآلاعيبهم وإحنهم؟ لو كان هذا الإنسان أمير المؤمنين أو إماماً معصوماً، لم يطق ذلك، ولكان مدَّ رأسه في فم البئر يفرغ فيها ما تحتمله نفسه من آلام، أو إنّه يذهب إلى الصحراء يتنفس في فضائها المفتوح هواءً نقياً طلقاً، بأنفاس عميقة، بحيث

يستريح خلالها من غمومه التي تأخذ بأعماق نفسه ويتحرّر من ضغوطاتها. إزاء ذلك علينا أن نعرف مواقعنا، وطاقتنا على الصبر والتحمل.

أجاب الأستاذ: أجل، كما تقول، ولكن من دون يأس.

كان الأستاذ الشهيد يعيش همّ التفكير والمطالعة، وأن ينهض بخدمة العلم والدين عن هذا الطريق، وهذا الهاجس يلخص مشكلته. ومن جهة ثانية كان لا يدري كيف يحدّد تكليفه مع البعض. فقد كانت نفسه تتوق إلى أن ينصرف إلىٰ المطالعة بتمامه، بحيث يفرغ لها جميع وقته، فيعتزل جانباً ويطالع ويمارس البحث بهدوء، وهذا ما كنت بدوري أتمنّاه وأسعىٰ وراءه ولكن من دون أن أحصل عليه.

المعممون الجهلة

جاء الأستاذ الشهيد يوماً لزيارتنا. كانت آثار عدم الارتياح بادية عليه أيضاً، إذ كان يشكو من بعض أفراد الصنف (المعممين) فهذا البعض مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل إرضاء الشباب.

قال: انظر إلىٰ ما آلت إليه الأمور! فقد سألوا السيد الخميني عن ما صدر من شريعتي من نيل وتعريض بالخواجه نصير الدين الطوسي والشيخ البهائي والمحقق الثاني والعلامة المجلسي والحاج الشيخ عباس القمي، فأجاب السيد بخطّ يده، فما كان من هؤلاء إلا أن أثاروا ضجة في الأوساط مؤدّاها أنّ هذا ليس خطّ السيد الخميني، وأن هذه الإجابة موضوعة!

أضاف الأستاذ بانزعاج: أنا مطّلع على السؤال والجواب بشكل كامل، كما أعرف خط السيّد الخميني جيداً، بيد أنّ هؤلاء يقولون إنّ هذا الجواب موضوع،

ليعطوا عن هذا الطريق دفعة للشباب المتحمّس؛ وبالدفاع المطلق عن شريعتي يريدون أن يفتحوا الباب أمام إهانة كبار علماء الشيعة والإساءة إليهم والتعريض بهم، ولا أحد يدري ماذا سيكون مآل مثل هذا العمل.

قلت معلقاً على كلامه: تتفاقم المشكلة أكثر ويتبدىٰ سوء الطالع في موقف أحد أئمة الجماعة في طهران، فمع أنّه شيخ كبير، وقد نيّف بلحيته البيضاء علىٰ السبعين، تراه يلتزم هذا الموقف من أجل أن يرضي الشباب الذين اتخذوا من مسجده خندقاً، إذ هو يصرّ علىٰ أنّ الجواب ليس بخطّ السيد الخميني، وبذلك يعطي الذريعة للأعداء المتربصين.

ردّ عليَّ الأستاذ وقد بدت عليه آثار التألم وعدم الراحة أكثر: الإنسان يتألم لمثل هذه الحالات، فماذا تنتظر من هذا الموقف وأنت بهذه السنّ؟ إذا كان مرادك المسجد فأنت إمام جماعة؛ وإذا كان المطلوب الرسم والاسم والوجاهة فأنت تملكها؟ بين يديك أيضاً إمكانات مالية جيدة بحيث تستطيع أن تفعل ما تريد، فما معنىٰ هذه الأعمال إذن؟

حول جماعة فرقان

في سنة ١٣٥٧ شمسية* وقبل أن تنتصر الثورة الاسلامية، كنت أصعد المنبر ليلاً وأُمارس الخطابة في مسجد أبي الفضل العباس (عليه السلام) الواقع في شارع «رباط». وما حصل في ليلةٍ من الليالي أنّي تحدثت مع السيد عبد المجيد الأيرواني إمام الجماعة في المسجد، وذكرت له في سياق حديثي أنّي سألتقي يوم غد علىٰ مائدة

* سنة ١٩٧٩ م.

واحدة مع السادة فلسفي، مطهري، بهشتي، مهدوي كني، محي الدين أنواري ومفتح في بيت الشيخ إمامي كاشاني في وليمة أولمها بمناسبة شرائه داراً جديدة.

قال لي السيد أيرواني: هذا اتفاق حسن؛ هل رأيت كتاب «التوحيد» الذي كتبه الشيخ آشوري؟ أجبت: كلّا.

سألني السيد أيرواني: هل سمعت بأنّه أثار ضجة كبيرة في الأوساط؟

أجبت: أجل، فقال: يسألني الشباب عن هذا الكتاب، فلا أدري بماذا أجيبهم، والآن أرىٰ من الأفضل أن أعطيك الكتاب لتضعه بين يدي السادة الحاضرين في الوليمة، كي يبدوا نظرهم فيه، فتبلغني أنت موقفهم وما يقولونه فيه، الليلة الآتية، لأقوم بدوري بنقل جوابهم إلى الشباب.

كان الكتاب من القطع الجيبي، على غلافه صورة لمنظرٍ خاص عُرِف به. وضعته في جيبي وأخذته معي إلى البيت. أمضيت في مطالعته ساعة من الزمن، فرأيت أنّه يلي كتاب «الشهيد الخالد» في حجم الضجة التي تثار حوله، كما لاحظت أنّ الإجابة على محتوياته ليست أمراً يسيراً في مثل هذا الجو المشحون بالإثارة.

فالكتاب وضع بطريقة بحيث يبقىٰ الإنسان حائراً كيف يجيب عليه، في ذلك الجو الملتهب بحماسة الشباب، دون أن يسوق الشباب ويدفعهم إلى ما هو أسوأ، وسط تدافع حركة الأحزاب وسعيها لكسب الشباب. فأي خطأ يُرتكب في هذا المجال، أو موقف يصدر عن سوء تقدير، يمكن أن يجر لعواقب وخيمة؛ من قبيل: دفع الشباب لعنادٍ أكبر.

في اليوم التالي، أعطيت الكتاب للسادة قبل تناول طعام الغداء، وأبلغتهم رسالة السيد الأيرواني، وأنّه يريد منهم جواباً محدداً، ينقله بعينه إلى الشباب

وينسبه إليهم.

قال الشهيد مطهري: إنّه كتاب تافه، فقد رأيته واطّلعت عليه. وأنا أعرف هذا الشيخ، فهو شيخ وقح من أهالي مشهد، كان يصعد المنبر أحياناً في مسجد «قبا» بعد أن ينهي الشيخ مفتّح صلاته.

أضاف: يبدو من حاله أنّ هناك من يدفعه ويشجعه علىٰ وقاحته أكثر. لقد جاء إلى بيتي مرّة، وقال أريد أن أتحدّث معك نصف ساعة، بيد أنه جلس وتحدّث أكثر من ساعة بحديث أثار قرفي وانزعاجي. مما قاله لي بوقاحة: لا يجب أن تسكن في منطقة «قلهك» في شمال المدينة، وإنّما عليك أن تسكن في جنوب طهران عند ساحة «شوش» بين الناس العاديين.

أجبته: شيخنا، إذا ذهبت للسكن في منطقة «شوش» مع كثافة أعمالي والتزاماتي [العلمية والفكرية] فلابدّ وأني سأصاب بالجنون لما تشهده ساحة «شوش» من ضجيج وأصوات واكتظاظ بالمارة. ثم هل تراني لا أعرف شخصياً تكليفي حتىٰ تأتي أنت وتعيّن لي تكليفي وما يجب أن أفعله؟

لقد دار الحديث بين الأستاذ وبين هذا الشيخ التافه الذي ليس علىٰ شيء رغم ادعاءاته الكبيرة، واستمر بينهما علىٰ هذا المنوال؛ فيما كان ينقله لنا الشهيد مطهري.

والطريف أنّ الأستاذ يبدأ يتحدّث باللهجة الخراسانية حين يغتاظ، مما أثار ضحك أغلب الحاضرين.

دخل الشهيد بهشتي على الخط، وقال: ولكني قرأته، إنه كتابٌ جيّد.

ردَّ الشهيد مطهري عليه بعصبية وانفعال: تقول إنه كتاب جيد؟!

أجاب الشهيد بهشتي بلا مبالاة وبابتسامة هادئة: أجل!

ثم سكت الاثنان.

بعد أن انتهينا من تناول طعام الغداء قال الشيخ إمامي كاشاني: دعوني اطلع على الكتاب وأقضي معه شطراً من الوقت ريثما تستريحون قليلاً. فقلت بدوري: حسناً، ومن الأفضل أن يراه الجميع، بحيث يبدون فيه رأيهم كي أنقله إلى السيد أيرواني كما وعدته.

أجابوا: أنت شخصياً، هل اطلعت على الكتاب؟ أجبت: أجل، اطلعت على بعض أجزائه، ولكن من دون أن أخرج بنتيجة واضحة مما فيه. ففي بحثه عن الإمام المهدي صاحب الزمان، ابتعد الكاتب وانحرف، وخرج بنتيجة غير صحيحة.

ومن جهة ثانية حمل آيات المعاد والقيامة على عصر ظهور الإمام المهدي، وثمة فيه أفكار أخرىٰ من هذا القبيل.

بعد مدة أمضيناها في الاستراحة، عاد إلينا الشيخ إمامي، وهو يقول: أنا أيضاً لم أستطع أن أخرج بحصيلة واضحة من الكتاب، وأعتقد أنّ محتوياته تتسم بالإغواء.

ثم دار الكتاب من يد إلىٰ أخرىٰ، حتى انتهىٰ الحضور إلىٰ أنه ينطوي على أفكار كثيرة غير منسجمة، بالإضافة إلىٰ آثاره الهدامة الكثيرة.

والذي حصل بعد مدة من هذه الواقعة، أنّي أخذت أستعد في الساعة الثانية بعد ظهر أحد الأيام الصائفة، حيث كان الهواء حاراً، للذهاب من منطقة «قلهك» [في الشمال] إلىٰ شارع «ناصر خسرو» [في الجنوب] كي ألتقي بالشيخ آشوري مؤلّف الكتاب. وكان لذلك قصة؛ ملخّصها أنّ السيد حميد إسلامي صاحب منشورات «الغدير» الواقعة في سوق الحاج «نايب» كان قد طبع كتاب آشوري

«التوحيد»، وقد ذكرلي أن آشوري سيأتي إلى محله في هذا الوقت من اليوم التالي.

قبل أن يصل آشوري إلى المكان، قال لي السيد حميد: إنه شيخ مسكين، لا نصيب له من الدنيا ولا حظّ له من الآخرة، ستراه بعد قليل وتلاحظ أن جميع ما علىٰ جسمه من لباس لا يُساوي شيئاً. أكله بسيط جداً، حتىٰ أنه كان مدعّواً في مكانٍ ما، فاختار لمأكله أردأ أنواع البرتقال ثم اعترض علىٰ الذين تناولوا البرتقال الكبير الريان، ووصمهم بالإسراف والبذخ!

علّقت قائلاً: تصرفٌ ينطوي على الكثير من الحماقة، فهل ترىٰ أنّ الله وهب جميع هذه الخيرات لتبقىٰ لموشي دايان والصهاينة وأعداء الأسلام؟ ثم ألم يقل الله (سبحانه): «ورزقناهم من الطيبات» و «كلوا من طيبات ما رزقناكم» و «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»؟

ليس الأمر كما يقول. وإنه، ومن يعتقد بهذا، على خطأ.

فهل يعقل أن تكون البيوت الجيدة العالية، متعدّدة الطبقات، من نصيب اليهود والنصارىٰ وعبدة الاصنام والأوثان، وهم يتناولون أفضل أنواع اللحوم والفواكه والخضار والخبز الفاخر وبقية صنوف الأغذية الأخرىٰ، في حين تبقىٰ البيوت الطينية الواطئة القديمة الضيقة المظلمة، والأغذية الرديئة الفاسدة من حظّ المسلمين ونصيبهم؟ من قال ذلك؟ في أية آية أو رواية نجد الدليل عليه؟ إنّ الطريق الذي اختاره هذا «السيّد!» يقود إلىٰ المقبرة.

كان ذلك في أوائل انتصار الثورة الإسلامية. في هذه الاثناء، جاء الشيخ آشوري وبرفقته شابان أو ثلاثة تتراوح أعمارهم بين (١٥ ـ ١٦) سنة. لقد كان هؤلاء الفتية على حدٍ من الوقاحة بحيث لم يسلّموا، وقد تقدّم أحدهم وجلس في

مكانٍ خالٍ إلى جواري بأنفةٍ وغرور ومن دون استئذان، وهو يقول: ينبغي الجلوس في المكان الذي يكون خالياً، في حين لم يكن هذا المكان بيته وملكاً له، بل عليه أن يستأذن صاحب المحل.

كان من الواضح أن آشوري لقّن هؤلاء الفتية دروساً كان عليهم أن يتبعوها، من قبيل الأنفة والغرور، والإعجاب بالنفس وتضخيم الذات وعدم الاعتناء بالمعممين، فمثلهم مثل أي إنسان عادي آخر، وبالتالي لا معنىً لاحترامهم ـ بما يتجاوز الحد المتعارف لاحترام الناس الآخرين ـ ولا احترام أي إنسان آخر، لأن مثل هذا الاحترام يعبّر عن ضرب من ضروب عبادة الأفراد!

كان الشيخ آشوري رجلاً متوسط القامة، يلبس النظارات، نيف علىٰ العشرين، قبيح الشكل، عبوساً، بدت عليه آثار عدم النظافة. فقد كان يرتدي عمامة يبدو أنها لم تغسل من مدة، بحيث أضحت أطرافها تميل إلى اللونين الأصفر والأسود من شدّة القذارة، وكانت الريح النتنة تنبعث منها. المظاهر نفسها كانت بادية على قميصة وعلى الرداء الذي يرتديه، بحيث كان ينث برائحه نتنة ممزوجة برائحة العرق.

أمّا طريقة حديثه فقد كانت تبعث علىٰ التقزّز والقرف.

عرّفني السيد حميد على الشيخ الذي قال: رأيت كتبك وقرأتها. قلت: لقد جئت من منطقة قلهك في وقت الظهيرة من هذا اليوم الصائف الحار، لكي أراك، ونتحدّث إلى بعضنا بصفتنا زميلين ننتمي إلى زيّ واحد.

أضفت: أشعر أنّ عزتك والاحترام الذي ينالك هو عزة واحترام لي، وبالعكس، أحسّ أن أي كلام سيئ يقال عنك، لا يبعث على رضا إنسان يشاركك

اللباس والزيّ نفسه.

شكرني على ما قلت، وذكر أنّ الأمر كما أقول.

قلت له: سؤالي الذي أوجّهه لك، هو لماذا تنال من الأستاذ مطهري في غيابه، ولماذا تذكره بجميع هذا الكلام السيئ الذي تقوله؟ أليس هناك شخص آخر غيره تدخل معه في معركة، بحيث جئت إلى هذه الشخصية العلمائية اللامعة، بالوجاهة التي لها، وبالمركز العلمي العالي والأفكار الدينية الجديدة التي يتمتع بها؟

أجاب: كلامي مع هؤلاء السادة مطهري، خامنئي، رفسنجاني وغيرهم؛ أن يهتموا بالناس ويفكروا بهم.

أجبت: وهل اعترض الناس علىٰ أنّ هؤلاء السادة لا يفكرون بهم! إنك تلقي بهذه الأقاويل في أفواه الناس، وتحرضهم من خلال ذلك للإعتراض علىٰ هؤلاء.

أجاب: كلاّ، بعد أن وصل هؤلاء إلى السلطة، فإنّ الناس باتت تتوقع منهم الكثير الكثير.

رددت عليه: أنا شخصياً ليس لي أي موقع تنفيذي في نظام الجمهورية الإسلامية، أسأل: ما هي طبيعة هذه التوقعات، وماذا تنتظر الناس؟

أجاب: الناس تنتظر الكثير. قلت: هل هذه التوقعات في محلها أم في غير محلّها؟ ردّ عليّ: لا أدري، اسأل الناس أنفسهم.

قلت: كم عدد الذين أسألهم؟ هل أسأل الشعب الإيراني، وكيف؟

أضفت: سمعت أنك كنت ترتقي المنبر قبل مدة في مسجد «قبا» وأماكن أخرىٰ من طهران، وتمارس الخطابة. أما الآن فأصبحت تتحدّث ضدّ جميع العلماء وأهل المنبر، أفلا تعتقد أنك على خطأ، ولا أساس من الصحة لاعتراضاتك.

انتقلت بعدها إلى كتاب «التوحيد» فقلت: قرأت كـتابك «التـوحيد»، وقـد سقت فيه الكثير من الآيات الدالة علىٰ المعاد والقيامة، وصرفتها من عندك وبرأيك الخاص، إلى عصر ظهور الإمام صاحب الزمان، وهذا ضرب من ضروب التفسير بالرأي، يستتبع ما يستتبعه من ذنبٍ عظيم.

كما أنّك انصرفت في كتابك هذا للوم العـلماء والمـتدينين وجـعلتهم غـرضاً لسهامك، ثم خرجت بنتيجة مؤدّاها أنّ إمام العصر حين يـظهر لاغـرض له ولا هدف سوىٰ مواجهة هؤلاء، أما الماديون والبعيدون عن الله فهم في راحة واطمئنان بال، ترىٰ ما هذا التفكير، وما هو الدليل عليه من القرآن والحديث؟

استطردت قائلاً: الذي يبدو من ظاهرك أنّك لا تملك شيئاً في هذه الدنيا، فلماذا تضيّع آخرتك من أجل عدة من الشباب البسيط الساذج، أو من أجل عدد مـن المتحمسين المتطرفين؟

قلت ذلك، وقد وقعت عيناي في هذه اللحظة على الشباب المرافقين للشـيخ آشوري، فرأيتهم ينظرون لي بغضب، حتىٰ كأنهم يستعدون للهجوم عليّ.

قلت بعد ذلك: لندع هذا جميعاً. أنا جئت لأسألك هذا السؤال: كم عندنا مثل (مطهري) وأنت تنتقده هذا الانتقاد وتحمل عليه بهذه الشدّة؟

لقد توافرت عـشرات الظـروف، ومـرّت السـنوات، حـتىٰ ظـهر للـوجود (مطهري) واحد يتحلّى بمثل هذا العلم والفضل والمكانة، والآن بدلاً مـن أن تأتي أنت وتكرّم هذا العالم المشهور الذي يلبس الزي الذي تلبسه، ويبعث فينا الفخر جميعاً، من خلال تمجيده والتبجيل به أمام الشباب حتىٰ يكبر في أعينهم، ويعرفوا قدره، تراك تنتقده وتنال منه وكأنه المسؤول الوحيد في هذا البلد، بحيث عليه أن

يتحمل جميع النواقص والعيوب ويكون مسؤولاً عنها. ألا تحتمل أن العدو ينتهز هذه الحالة ويستغلها. وبتضييع مطهري وأضرابه ينتهز الفرصة ويصطاد بالماء العكر، بحيث نكون أنا وأنت مصداقاً لمن خسر الدنيا والآخرة؟

ثم أليس في ذلك خدمة للأعداء؟ ثم إنك ترتدي زي المعممين، وليس لك أغراض سياسة، فلا أدري ما هو النفع الذي يعود عليك به مثل هذا الكلام...؟

حين كنت أقول هذا الكلام كان وقته قد انتهىٰ، فنهض من مكانه وغادر المحل بإشارة من الشباب الغاضبين.

وعندئذ التفت لي السيد حميد صاحب منشورات «الغدير» وهو يقول: فعلت حسناً بحديثك هذا معه، ويبدو أنه لم يستأ.

سألته: ولماذا طبعت له كتاب «التوحيد»؟ أجاب: لم أطبعه إلا بعد أن أوصاني بذلك بعض رفاقنا، حيث امتدحه، وقال إنه كتاب جيد، فطبعته. والذي أذكره أنّ السيد حميد ربما قال إنّ الطبعة الأولىٰ نفذت خلال مدة قصيرة، فأعدنا طبعه للمرة الثانية، وقد قررنا الآن عدم العودة لطبعه مجدداً.

بعد يوم أو يومين رأيت الشهيد مطهري، وأخبرته بما جرىٰ، فقال: شيخنا، هذا الشيخ منحرف جداً، اتركه، فهو غير قابل للإصلاح والتحوّل إلى الصراط الآدمي السويّ.

أضاف: وهم أيضاً لا يتركونه لحاله، فقد سمعت أنّه سقط كاملاً في أحابيل المجموعات الإلحادية وأضحىٰ تحت تأثيرها، وهم يستغلون حماقته ويستفيدون منه بهذا الشأن.

كانت قد مرّت أيام علىٰ ذلك، حين سمعت من السيد جواد هشترودي أنّ

الشيخ آشوري كان في بيتهم قبل ليالٍ، فنصحاه هو وأحد الزملاء من أهل العلم، وقد دام الحديث وطال حتىٰ ساعة السحر، وبعد أن أدّوا صلاة الصبح، جاء عدد من الأشخاص من ذوي الشوارب الكثيفة الغليظة، وأخذوه معهم إلى منطقة «نارمك» طبقاً للعنوان الذي أرشدهم إليه. ومع أنه لم ينم الليل بأكمله، فقد ذهب إلى بيت في تلك المنطقة حيث كانت جماعة بانتظاره، فشرع بالحديث، وكأنه قد بدأ تواً ولم يسهر الليل بأكمله!

سمعنا بعد ذلك أنّ مجموعة «فرقان» وجمعية «أمل المستضعفين» ترتبطان بالشيخ آشوري والشيخ گودرزي، وقد كان البرنامج الأساسي لعملهما هو كتاب «التوحيد» وكراسات أخرىٰ كتبها گودرزي، أو ألقاها دروساً.

لقد أفضىٰ هذا النمط من التفكير والدعاوىٰ إلىٰ قتل الكثير من الشخصيات الكبيرة، من بينهم الأستاذ الشهيد مطهري!

أما مصير هٰذين الشيخين المنحرفين اللذين كانا ينتحلان ادعاءات كبيرة علىٰ ضآلتهما، فقد آل إلىٰ الموت إعداماً في سجن «قصر» إذ أُعدم الأول دون أن يُخلع زيّه الديني العلماني، أما الثاني فقد أُعدم بعد أن حُكم عليه بخلع الزي، وقد نزلت بهما هذه العقوبة جزاءً على ما أصدراه من أوامر في قتل عدد من الشخصيات الإسلامية.

كنت في أحد الأيام التي تلت اغتيال الشهيد مطهري، قد زرت الشهيد مفتح في مركز عمله في كلية الإلهيات، فدخل عليه الدكتور مهدي زاده معاون الكلية، وهو يحمل بيده مظروفاً فيه رسالة، فسلمه إلى الشيخ مفتّح، وهو يقول: لقد كتبوا لك رسالة مرة أخرىٰ.

فتح الشهيد مفتح الظرف وقرأ الرسالة التي فيه، فانخطف لونـه وتـغير، وإن حاول أن يبدو هادئاً بارد الاعصاب.

أعطاني الرسالة لكي اطّلع على محتوياتها، فرأيتها وقد كُتب عليها بخطٍ أحمر وبحـــروف كـبيرة «فـرقان»! لقـد قـتلنا مـطهري بـالاستناد إلى هـذه الآيـات والأحاديث، وسنقتلك علىٰ الأساس نفسه أيضاً!

لا زلت أذكر أنّ أحد أدلّتهم هي الآية الكريمة: «قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أَيمان لهم»!

لماذا ترك الأستاذ الشهيد قم إلى طهران؟

حصل في يوم من أيام سنة ١٣٥٣ شمسـية، أن اتـصل بي الأسـتاذ الشهـيد تلفونياً، وطلب مني أن أمرّ عليه إن استطعت.

ذهبت إليه في محل عمله في غرفته بكلية الإلهيات، وقد كان حاضراً في اللقاء الشهيد مفتح الذي كان جاراً لنا، كما كان أستاذاً في الكلية نفسها.

قال لي شهيد العلم والدين ذاك: أردت أن أسألك ماذا تعمل وكيف تعيش؟ أعرف أنك تؤلف الكتب، ولكن هل يعطي أصحاب دور النشر حقّ الإنسان على مردود صحيح وكما يستحق، حتىٰ تستطيع أن تعيش من خلاله؟ ثم هل يعتبر حـق التأليف حقاً ذا قيمة في هذا البلد، حتىٰ يستطيع الانسان أن يعتمد عليه في معاشه؟ أجابني موضحاً: إنّ السبب الذي دعاني لرؤيتك وتوجيه مثل هذا السؤال لقد مررت بحالٍ شبيهة بحالك الآن، حين تركت مدينة قم وجئت إلى

سألته: وكيف؟

ردّ الأستاذ الشهيد عليّ: بعد أن فشل البرنامج الإصلاحي للسيّد الخميني، في إصلاح الحوزة*، أصبت بالضرر والأذىٰ من قبل حاشية آية الله البروجـردي، حيث كنت من تلامذة السيّد الخميني وأحد الناشطين الفاعلين في مجموعته. فـقد عكست عني حاشية السيد البروجردي صورة سلبية لديه، بحيث إنّ جميع جهودي في الالتقاء به مباشرة، وتوضيح الأمر له عن قرب، باءت بالفشل، فلم أستطع أن أتحدث إليه عن مسألتي.

بل الأكثر من ذلك أنّي كتبت يوماً رسالة ووجهتها إليه، قلت له فيها: في أية بقعة من العالم، يسود العرف الذي يُحكم على الإنسان غيابياً؟ لقد قالوا لك عـني أشياء، وذكروني بأمور، فابعث لإحضاري أمامك، حتىٰ أوضح المسألة بما ينتهي إلى رفع سوء التفاهم.

أعطيت الرسالة إلى الشـيخ المـنتظري الذي كـان زمـيلاً لي نـتباحث مـعاً الدروس، وكان يتردّد على بيت آية الله البروجردي، وطلبت منه أن ينتهز الفرصة المناسبة ليعطيه الرسالة بيده دون واسطة.

يقول الشيخ المنتظري: أعطيته الرسالة فرفض أن يتسلّمها!

إزاء ذلك اضطررت لترك قم والقدوم إلى طهران. أمضيت أوقاتي في البداية بلا هدف أو نشاط محدّد، إلىٰ أن دعاني المرحوم كوشانپور**، إلى عـقد جـلسة

---

* توفرت على ذكر ذلك مفصلاً في كتاب «حياة آية الله البروجردي» الطبعة الثانية، ملحقات الكتاب.

** المرحوم الحاج محمد حسن كوشانپور من تجار طهران المشهورين. كان رجلاً من أهـل =

أسبوعية في بيته، بحيث أقيم أولاً صلاة المغرب والعشاء جماعة، ثم أعطي درساً في التفسير، فوافقت على دعوته واستجبت لها.

من جهة ثانية شرعت بالتدريس في مدرسة «مروي»، وكنت أقوم أحياناً بإعطاء البعض دروساً خصوصية أو أرتقي أحياناً المنبر لممارسة الخطابة.

انتبه لي المرحوم كوشانپور في أحد الأيام وسألني: وكأنك كنت في مدينة قم؟ أجبت: أجل.

عاد للسؤال: هل ذهبت إلى هناك للزيارة؟

أجبت: كلا، لا زالت عائلتي في قم، وبذلك أذهب اسبوعياً لزيارتهم.

عاد ليسأل: ولماذا لا تأتي بهم إلى طهران؟

سكتُّ ولم أُجبه بشيء.

فكرّر السؤال مرة أخرىٰ: ها، لماذا؟

قلت: تريد الحقيقة، عليَّ أن أستأجر لهم بيتاً، ولا أملك المال الكافي لذلك، فهم يعيشون في قم في دار أُجرته قليلة.

ردّ عليّ: أكتب للسيّد البروجردي في أن يوافق على إعطائك شهرياً (١٥٠) توماناً من حق الإمام لاستئجار دار، وأنا شخصياً أدفع المبلغ.

قلت له: لا أكتب له.

سأل: ولماذا؟ أجبت: أولاً، لم أطلب حتىٰ الآن مثل هذا الشيء لا منه ولا من غيره، وثانياً، حتىٰ لو كتبت له مثل ذلك، فربما لا تصل الرسالة بيده، وإذا وصلت

= الخير اشتهرت المعونات التي قدمها إلى الحوزة العلمية في عهد آية الله البروجردي، ومؤسسة كوشانپور الثقافية في طهران تعود اليه.

ربما لا يرتب أثراً عليها.

قال المرحوم كوشانپور: وما معنىٰ ذلك؟ أجبته: الأمر كما أقول!

عاد ليسألني عن سبب ذلك، فوجدت نفسي مضطراً للإفصاح عن العلة الحقيقية، لكي لا يظن أنّ السيد البروجردي لا يثق دينياً بي، الأمر الذي يقود إلى الطعن بعدالتي إزاء الجماعة التي تصلّي ورائي، فقلت له موضحاً: الحقيقة أنا كنت من بين الذين أصابهم الضرر والأذىٰ من حاشية السيّد البروجردي بعد التعثّر الذي أصاب مشروع السيّد الخميني لإصلاح الحوزة. وهذا الموقف من المحيطين بالسيّد البروجردي هو الذي دفعني لترك الحوزة ومغادرتها. وقد حصل هذا معي، مع أني كنت محطّ عناية السيد البروجردي ومن تلامذته الجيدين.

عندما سمع المرحوم كوشانپور هذا الكلام، عاد ليقول: ليس من الضروري أن تكتب أنت شيئاً. فأنا سأتولىٰ ترتيب الأمور، إذ سأصرف لك شهرياً (١٥٠) توماناً أجراً على محاضراتك الأسبوعية في التفسير، كما سأدفع (١٥٠) توماناً أخرىٰ قيمة الأجار الذي تدفعه للبيت الذي تستأجره.

استطرد قائلاً: اذهب وجئ بالعائلة إلى طهران، ولا تتردّد بين قم وطهران. وبدوري فعلت ما قاله، واستقرّ الأمر بي في طهران.

بعد كلام مفصل عاد الشهيد مطهري ليقول: هذا هو سبب خروجي من الحوزة، فمنذ ذلك الوقت وحتى الآن وأنا أدفع، وسأبقىٰ أدفع، ضريبة ارتباطي وولائي للسيد الخميني من قبل المعارف [أهل الصنف من المعممين] والغرباء [النظام الحاكم وغيره].

أضاف الأستاذ الشهيد: طالما بقي وضعنا نحن المعممين، ووضع السادة المراجع

على هذه الشاكلة، فستبقىٰ هذه المسائل. يجب ان تشهد الحوزة تحولاً جذرياً، حتىٰ لا يكون بمقدور أربعة اشخاص [عدة قليلة] من غير المؤهلين، أن يلعبوا هكـذا بمقدرات الأفراد ومصائرهم، بحيث يتحولون إلى عقبة تحول دون إسداء الخدمات القيمة للإسلام والمسلمين.

استطرد الشهيد مطهري: أردت أن أقول لك هذا وأصور لك ما جـرىٰ لي، لكي يكون في ذلك تسكين لنفسك.

في هذه اللحظة خرج الشهيد مفتح من صمته حـيث كـان يـصغي إلى كـلام الأستاذ مثلي متعجباً، وقال: شيخنا، نحن معك منذ سنوات ولم نسمع مـنك هـذا الكلام أبداً!

أجاب الأستاذ الشهيد: أجل، حين أنظر إلىٰ حال الشيخ دواني أتذكر وضعي وما مررت به، لذلك قلت الذي قلته لكي يكون مواساة له.

رفضت اقتراح الأستاذ

ربما حصل ذلك بعد سنة كاملة من تلك الواقعة، حين هاتفني الأستاذ الشهيد يوماً، وقال لي: يـوجد في أحـد الشـوارع الجـانبية المـتفرعة عـن شـارع تـاج (ستارخان) مسجد جديد، هو على مشارف الإتمام، فالعمال مشـغولون في وضـع «الكاشي» الخاص بالمحراب. وقد زارتني الهيئة المشرفة على المسجد وأعضاؤها من أهالي يزد، وطلبت منّي أن أقترح لها إماماً يؤمّ المصلين جماعة فيه، وذكروا شروطاً رأيت أنها تنطبق عليك، والذي أراه أنّ من الأفضل أن تقبل، وإذا قبلت سأقول لهم بأن يأتوا إلى بيتي كي أُعرّفهم بك.

أضاف الشهيد مطهري: لقد قلت لهم، إنّي أعرف أحد الأصدقاء، إذا وافق فبها، وإلا فلا أعرف أحداً غيره يليق بالموقع أقترحه عليكم.

أجبت: شيخنا، أشعر بالشكر والامتنان لك، بيد أنّي أرىٰ أنّ إمامة الجماعة هي ممارسة تنطوي على المشكلات، إذ يجب على صاحبها أن يكون على اتصال دائم مع الناس.. إذا قدم أحدهم من الحج والزيارة عليه أن يبادر لزيارته، كما عليه أن يعود مريضهم ويتفقد من يقع منهم في مشكلة لكي يعينه في حلّها. وإذا لم تذهب أو أنّك قصرت في ذلك، فسيشملك عتبهم. وإذا ذهبت متأخراً إلى أحدهم، فسيشكو للآخرين أنّ الشيخ قدّم الآخرين عليه في زيارته، أو أنّه لم يمرّ علينا.. وهكذا.

هذا الموقع يدفع الناس لتوقعات من هذا القبيل، ويفتح الباب على العتاب والشكوىٰ، وشخصياً لا أرىٰ نفسي مستعداً لمثل هذه الأعمال، كما أنّي لا أطيقها.

ردّ علي الشهيد مطهري: أخي، لديك زوجة وأطفال، عليك أن تنهض بمسؤوليتهم. وإلا هل ترىٰ أنّ حق التأليف الذي يعطىٰ لك منقوصاً غير كامل، وما تجنيه من صعود المنبر للخطابة أحياناً، يفيان بتأمين نفقات حياتك المثقلة؟

أجبت: الأمر كما تقول، بيد أنّي حرٌ مع ذلك، وهذا الإحساس الذي أعيشه بالحرية يعوّض ما أعانيه من الجهات الأخرىٰ. ولكن مع ذلك، فلا بأس أن أمرَّ على المكان وألقي عليه نظرة من قريب، مادمت ترىٰ مصلحةً في قبولي، ثم أنقل لك النتيجة.

ذهبت إلى المسجد ورأيته من قريب. كان المكان جيداً نسبياً، وبناء المسجد على مشارف الاكتمال. ولكني تركته إذ لم أكن أجد في نفسي ميلاً للقبول، تماماً كما رفضت قبله إمامة صلاة الجماعة في مسجد أبي الفضل الواقع في الشارع نفسه،

والذي كان أهمّ من المسجد الجديد هذا.

قام الأستاذ بدوره بإبلاغ الهيئة الإدارية بأنّ الشيخ لم يوافق، وليس لدي شخص آخر أقترحه عليكم.

بعد ذلك بسنة رأيت السيد (...) فأخبرني أنّهم اختاروني بدلاً منك، بيد أني لم أطق البقاء معهم، وقد استبدلوا إمام الجماعة ثلاث مرّات حتىٰ الآن!

شكرت الله علىٰ أنّني لم أكن الإمام لكي لا أتسبب بالأذىٰ لنفسي وبالحرج للأستاذ الشهيد مطهري.

أفضل للانسان أن لا يتكلم كثيراً

كنت في أحد الأيام رفيقاً للأستاذ الشهيد في زيارةٍ قام بها من طهران إلى مدينة قم. وفي أثناء الطريق تحدثت كثيراً، وكنت أكثر ما أكدت على تقلبات الدهر ودواهيه وما أصابني من أذىً ومعاناة. كانت في الحقيقة فرصة اغتنمتها لأبثّ شكواي إلى إنسان صافٍ ورفيق مواسٍ.

بعد شهرين أو ثلاثة، كان الشهيد مطهري يتحدّث في مسجد الجواد مع شخص عن شخص آخر، فقال في وصفه إنه إنسان جيّد، بيد أنه يتحدّث كثيراً. فقد كنت وإيّاه في سفرٍ، فأخذ يتحدّث طول الطريق. قلت مع نفسي: ربما أنا المقصود من كلام الأستاذ، وهو يعني تلك السفرة التي ذهبنا فيها معاً إلى مدينة قم.

شعرت بالخجل، ولمت نفسي، وقلت: لماذا عليّ أن أشكو بهذا الشكل، إذ ربما عناني الأستاذ بكلامه.

مرّت على هذه الواقعة مدّة حين اتصل بي الشيخ فلسفي هاتفياً وأخبرني أنه

يحتاج أن يراني لمسألة. حين ذهبت إليه، قال: يريد السيد أحمد ميرخاني أن يؤسس مدرسة لجذب الشباب الذي يتعرض هذه الايام للأخطار، وهذه المدرسة أشبه ما تكون بمدرسة طلاب العلوم الدينية. وقد أراد مني أن أطلب منك أن تكون مديراً لهذه المدرسة.

أجبت: لا أرىٰ من المصلحة أن تفتتح الآن مدرسة للشباب، إذ من الصعب السيطرة عليهم في مثل الأوضاع والشروط الراهنه، ولكن إذا تحوّل المشروع لتأسيس مدرسة للفتيات حيث يشكو الآباء كثيراً من أن بناتهم في معرض الخطر، فأنا على استعداد لكي ألتزم بدرس أو درسين، شرط أن تأتي مساهمتي بالاشتراك مع سادةٍ آخرين.

تمّ الاتفاق على أن يتمّ التخطيط لهذه الفكرة في جلسة مشتركة تعقد في بيت السيد ميرخاني الواقع في شارع «خيام» مقابل بازار طهران [السوق الرئيسي في العاصمة] يحضرها السادة: فلسفي، مطهري، الدكتور سرفراز، الدكتور قائمي والشيخ محمد تقي جعفري.

اتفق السادة على صيغة بحيث تنتهي الجلسة في الساعة العاشرة ليلاً، لأنّ للبعض أعمالاً والتزامات بعد هذا الوقت. لذلك اقترح السيد ميرخاني أن نكون في بيته في الساعة الثامنة ليلاً لنتحدّث عن الموضوع ساعة، وفي الساعة التاسعة نشرع بتناول طعام العشاء، حتىٰ ينتهي كل شيء في العاشرة ليلاً.

كان الجميع قد حضر في الساعة الثامنة، وقد جلس الأستاذ الشهيد إلى جوار الشيخ فلسفي. وفي ذلك الوقت كان الصراع والمواجهة بين الأستاذ الشهيد والدكتور آريان پور قد بلغ أوجه في كلية الإلهيات.

حين كان الشيخ فلسفي لا زال يتناول الشاي، وقبل أن يبدأ الكلام في الموضوع الذي اجتمعنا من أجله، سأل الشهيد مطهري بصوت خافت: أقول؛ أين وصلت القضية بينك وبين آريان پور؟

حين سمع الشهيد مطهري هذا السؤال، بدا كأنه ينتظر الشخص المناسب الذي يبثه شكواه، ويلقي إليه ما يضطرم بداخله من آلام وهموم، من يقظة الأعداء وغفلة الأصدقاء ونومهم مما يجري. لذلك اغتنم الفرصة، واستدار بهدوء نحو الشيخ فلسفي وبدأ يتحدّث.

مرّت ربع ساعة.. عشرون دقيقة.. نصف ساعة.. ثلاثة أرباع الساعة، والأستاذ لا زال يتحدّث. أما الشيخ فلسفي فقد كان ينصت وحسب، وكان بين حينٍ وآخر ينظر نحونا.

تحدثنا نحن الباقين عن المشروع بعض الشيء وبصوت هادئ ولكن الحديث لم يكتمل، إذ كنّا بانتظار رأي الشيخ مطهري.

وصل عقرب الساعة إلى التاسعة، حين سمعنا أصوات دقّ بالأصابع على الباب، وصوت يقول بأنّ العشاء جاهز!

التفت السيد ميرخاني إلى الحضور وهو يبتسم: ما دمنا لم نصل في الموضوع إلى نتيجة، ولم نتحدّث فيه بشكل كامل، فتفضلوا على الأقل لتناول العشاء قبل أن يبرد!

أخرج الشهيد مطهري ساعته من جيبه وتساءل بأسفٍ وعجب: هل صارت الساعة التاسعة حقاً؟ أجبنا: أجل، قال: لم أكن أدري أن كلامي طال بهذا الشكل. نهضنا لتناول العشاء ونحن نضحك، فيما كان هو متألماً غير مرتاح.

تحدثنا عن برنامج العمل على سفرة الطعام، ثم واصلنا الحديث في الربع ساعة التي تلت تناول العشاء، ولكن الموضوع بقي ناقصاً لم يكتمل.

عندما خرجنا من البيت وافترق الأصحاب، بقينا أنا والشهيد مطهري معاً، لأن بيتنا كلينا في منطقة قلهك، لذلك ترافقنا في طريق العودة. كان الشهيد متألماً جداً وهو يعاني مما حصل أشدّ المعاناة قال: أشعر بالخجل حقيقة، فهل تحدّثت ساعة كاملة؟ عجيب، هل استغرق حديثي ساعة بأكملها؟

قلت: أجل، قال: إنه أمر سيئ حقاً. لا تدري ماذا يحدث هناك، إنّ القضية ليست قضية آريان پور، إنما تكمن المشكلة في الجهاز الذي يوفر الحماية لأعماله ولنشاطاته وهو الذي يدّعي النضال ويتنطّع به، وكلما نريد أن نحفظ الشباب من الانجرار للانحراف، نجد هذا الرجل المادي الذي لا دين له يقف عقبة كأداء في الطريق.

أضاف الشهيد مطهري: والذي حصل، هو من آثاره، إذ ما أن سألني الشيخ فلسفي عن مواجهتي معه، حتىٰ رحت أتحدّث عن القضية ساعة كاملة من فرط عدم الراحة وما أعانيه من ألم، ففرطت بوقت المجلس وما اجتمعنا من أجله، والحقيقة أني أشعر بالخجل!

قلت مع نفسي:

فإذا كنت تقصدني في حديثك تلك المرة في مسجد الجواد، فها أنت ذا تشتكي من عويصة واحدة أو عويصتين واجهتك، أما أنا فقد واجهت أكثر. إنّ أطرافك في هذه المشكلات أفندية بحيث تستطيع أن تذكر اسم آريان پور وشريعتي، ولكن ماذا بالنسبة لي؟! [كناية على أن أطرافه في معاناته هم من المعممين أهل الصنف].

حين عدت إلى نفسي قلت له: ليس هناك مشكلة، فالجميع يعرف معاناتك وما تواجه من أذىٰ من هذه القضايا.

ردّ علي الأستاذ: كلا، فما حصل هو عمل سيئ جداً. قلت في جوابه: ليس مهماً، ثم أنشدته بيتاً من الشعر يلامس حاله وحالي.

رعاية الأستاذ لي أكثر

ذكرت بأنّي كنت جاراً للشهيد الدكتور محمد مفتح. وقبل ذلك كانت تربطنا ببعضنا علاقة صداقة دامت سنوات في مدينة قم. وفي يومٍ من الأيام ذكر لي الشهيد مفتح إن الشيخ مطهري سألني عنك، وقال: كيف ترىٰ الشيخ دواني؟ أجبت: هو كما هو*، وأنت ألا تعرفه، خصوصاً وإنّ لك علاقة به طوال سنوات ممتدة في قم وطهران؟

ردّ عليّ: صحيح، ولكني أردت أن أسمع منك أيضاً وأنت جاره، فعدت إلى تكرار جوابي قائلاً: هو كما هو، ولا ضرورة للسؤال عنه، فهو كما تعرفه وكما تعرّفت عليه.

قلت للشهيد مفتح والابتسامة تعلو شفتيّ: شكراً لله على أنّ للاصدقاء مثل هذا الموقف منّي.

ردّ عليَّ الشهيد مفتح: ما قلته في جواب الشيخ مطهري يمثل الواقع.

رحت أفكّر مع نفسي متسائلاً: ألم يعرفني الأستاذ مطهري بعد، حتىٰ يسأل عنّي الجيران؟ وهل يفكّر في أن يوكل لي مجدداً مسؤولية أحد المساجد، حيث أخذ

---

* أشكر الله على أن أحداً لا يقول عني بأني شخص انتهازي متصنع ذا أحابيل وحيل.

يسأل عني ويدقق في حالي أكثر؟

بعد أسبوع من هذه الواقعة، قال لي شهيد العلم والدين والتقوىٰ والفضيلة، حين التقينا معاً: شيخنا، طلبت منّي أختي في مدينة مشهد (أو ربما قال فريمان مدينة الشهيد مطهري) أن أجد لها رجلاً من أهل العلم أثق به وأطمئن إليه، كي يقوم بأداء فريضة الحج نيابة عنها، لأنها عاجزة عن الذهاب إلى مكة.

أضاف: المبلغ المرصود للنيابة جيد (كان آنئذ ١٢ ألف تومان وهو مبلغ جيد في ذلك الوقت) وقد اخترتك لذلك، وأرىٰ من الأفضل أن تبدأ بإعداد وثيقة سفرك. قلت: ولماذا لا تذهب أنت شخصياً إلى الحج، وتحج بالنيابة عنها؟

ردّ علي: كلاّ، لا أستطيع فأنا ممنوع من السفر.

قلت: حتى لأداء فريضة الحج؟ أجاب: أجل، حتىٰ للحج.

قلت: منذ سنوات وأنا أراجع دائرة السفر كي أذهب إلى الكويت، وأجد نفسي ممنوعاً من السفر. ولا أدري فيما إذا كان هذا المنع يشمل سفر الحج أيضاً أم أنّه يختص بالكويت حيث أذهب عادة للخطابة وصعود المنبر. لقد جربت حظّي مرّات للحصول على جواز السفر فلم أفلح.

أضفت: بالإضافة إلى ذلك، أنا مريض ولا أستطيع السفر لوحدي.

أجاب الأستاذ: فكّر بالموضوع، فربما وصلت إلى قرار إيجابي تخبرني به، فأرتاح من هذه المسألة.

عندما راجعت، ذكروا بأنّي ممنوع من السفر، والمسألة لا تحل بمثل هذه السهولة، وإنّما تحتاج إلى وقت. بالإضافة إلى ذلك كان مرضي هو العائق الأصلي، إذ لا أستطيع السفر من دون أن أصطحب معي أحد أولادي. لذلك كله أخبرت

الأستاذ الشهيد بعدم قدرتي على أداء هذه المهمة.

عندما رأيت الشهيد مطهري بعد شهر أو شهرين من هذه الواقعة، سألته عمّا آلت إليه قضية حج رضيعته، فأجابني: لم يحصل شيء، عندما رفضت أنت، لم أعرّف شخصاً آخر، وربّما قال إنه أعاد المبلغ الذي كانت قد بعثت به إليه.

كلام زائد

ذهبت في أحد الأيام لرؤية الأستاذ الشهيد في بيته؛ البيت الذي كان قدم أتمّ بناءه للتو، وهو يتكون من طبقة واحدة، وقد فرشت غرفته الخاصة ببساط أسود فاتح، حيث كان يتفرغ فيها للمطالعة والكتابة.

حين رآني إلى جواره كانت الفرصة سانحة لكي يبثّ ما يعتوره من هموم ويعاني من آلام. قال لي: انظر شيخنا، بعد عمر طويل، استطعت أن أبيع بيتي الصغير الكائن في شارع «دولت» وأبني مكانه هذا البيت، الكائن هو الآخر في شارع «دولت» ولكن في مكانٍ أهدأ من المكان السابق.

أكثر ما كنت أؤكد عليه هو توفير مكان هادئ، بحيث أستطيع أن أنصرف بهدوء بال للبحث والمطالعة والكتابة. لقد تركت عملي في كلية الإلهيات، كما انصرفت عن التزاماتي الأخرى، بأمل أن أتفرغ لكتابة شيء.

أضاف: إنك تعرف جيداً أنّ الإنسان حين يمضي سنوات مديدة في العمل، يكون قد تأهل للتو لتدوين أفكاره وتنزيلها على الورق. هذا هو همّي وغمّي والهاجس الذي يشغلني.

ولكنهم أثاروا الضجيج ضدّي وبثّوا الأقاويل، وهم يقولون: لماذا لم يبن بيته

في منطقة (شوش) جنوب طهران، ولماذا لم يسكن هناك؟

استطرد بعد برهة بانفعال وعصبية: أنا لم أبن بيتي من سهم الإمام أو من الاستجداء ونهب الأموال؛ بل أعطاني بعض الأصدقاء قروضاً طويلة الأجل، فأضفتها إلى ثمن بيتي السابق، الذي بعته، وبنيت هذا البيت. لقد استطعت أن أُسدّد حتى الآن نصف القروض التي بذمّتي.

ثم قال بسرور: لقد حصلتُ في السنة الماضية (١٣٥٦، المصادف ١٩٧٨ م) على مبلغ جيّد من حقوق التأليف. فقد بيعت مؤلفاتي بشكل جيد نسبياً، كما أنّ بعضها طُبع، وبعضها أُعيد طبعه مجدداً. وبهذه الوسيلة خفت مؤونة القروض التي بذمتي.

بعد أن وقفت على قدمي معتمداً على نفسي، من دون أن أكون من أهل المحراب [إمام لصلاة الجماعة في المسجد] ولا من أهل المنبر، ومن دون أن يكون لي مصدر مالي ثابت، بل هناك ما يعود عليّ من مؤلفاتي وحدها وحسب، وهذا المصدر لا يمكن الاعتماد عليه بشكل كامل، لأنّه يعتمد على الأوضاع اليومية المتغيّرة. بعد ذلك كلّه، وبعد استقراري في هذه الدار، وتفرغي للعمل، تراهم لم يتركوني أيضاً، بل راحوا يتكلمون ضدّي بشكل منتظم، فهم لا يستطيعون أن يروا حتىٰ هذا المقدار منّي!

ختم الشهيد مطهري آلامه بالقول: من هذا الموقع رحت أتذكر البلاد الأجنبية، وكيف تبذل جهودها لترفيه حال علمائها وتيسير أمورهم، لكي تزيد من خلال تكريم هؤلاء، وحفظ هذه الذخائر العلمية، من إغناء رصيدها الثقافي، أما نحن فعلينا أن نعيش في إطار هذه الرؤىٰ الضيقة، والأعمال المجهولة.

لنذهب إلى قم لإيجاد التحوّل

حدث في يوم من تلك الايام أن طلبني الأستاذ الشهيد. حين ذهبت للقائه، قال: أخي الشيخ الدواني، إنّ للزملاء طريقتهم الخاصة بالتفكير. ونحن لا ندري المآل الذي ستنتهي إليه هذه الحركة فالسيد الخميني يعيشي في النجف تحت المراقبة. وفي كل يوم تشهد شوارع طهران والمدن مواجهة بين الشباب الثوري وبين أجهزة النظام.

أضاف: بقاؤنا في طهران بلا فائدة، فقد فكرت في موضوع وأودّ أن أحادثك به. فلكل شيء علاج إلا الحوزة، التي يجب أن نفكّر لها بشيء.

لقد فكرت بالموضوع فوصلت إلى نتيجة مؤدّاها، أن نذهب إلى قم ونبادر بإحداث تحول في أوساطنا (أنفسنا) يقود إلى تغييرات تدريجية في النهج التدريسي وكيفية تأهيل الطلاب بحيث يتوفرون على العلوم الإسلامية باتساق مع احتياجات العصر ومتطلبات الزمان. وأنت أيضاً يجب أن تأتي.

تعجبت مما قاله الأستاذ، وقلت: شيخنا، أنا تركت قم وجئت إلى طهران، والآن أعود إلى قم مجدداً؟

أجاب: أجل، أريد أن أُربّي في حوزة قم طلاباً في مجال الاقتصاد الإسلامي، أجد أنّ هناك حاجة مبرمة إليهم في وقتنا الراهن. فالمدارس المادية والشيوعية أخذت تضلّ الشباب، والشباب لا يعرفون شيئاً عن الإسلام. فتعال أنت معي لنعمل سوياً.

أضاف: أنت شخصياً تشتغل على تأريخ الإسلام والرجال والتراجم وبيان

حال وحياة الكبار، كما فعلت في كتاب «مفاخر الإسلام» الذي عملت له سنوات أمضيتها بالبحث والمطالعة، وكما كتبت البحوث والكتب الأخرىٰ، فتعال إذن واعمل مع الطلبة الذين نضعهم بين يديك، وانهض بمهمة تدريسهم وإعدادهم في هذه المجالات، في حين أنصرف أنا للعمل معهم في مجال الفلسفة الجديدة والاقتصاد الإسلامي اللذين يعدّان هذه الأيام من مسائل العصر، حيث يتحدّث بهما الجميع.

أضاف: نستطيع عن هذا الطريق أن نربّي مجموعة من الطلاب وأن نترك عن هذا السبيل أثراً ملموساً في الساحة، إذ سيكون هؤلاء الطلاب من ذوي الكفاءة في هذه الاختصاصات، بحيث يضطلعون بمهمة التأليف وكتابة البحوث والمقالات. أي إننا نستطيع عن هذا الطريق أن ننقل مالدينا إلى الآخرين.

لقد فكرت بالموضوع، فوجدت أنّ هذا سبيل الحل. وفي مثل الأوضاع الراهنة، فإن ما يُنتظر منّي ومنك هو مبادرات من هذا القبيل، أجل مثل هذه الأعمال لا غيرها.

استطرد الشهيد مطهري موضحاً: علىٰ سبيل المثال، ذهب الشيخ مفتح والشيخ باهنر في الأسبوع الماضي إلى كرج، واجتمعا مع مجموعة في بستان وأطلقوا على أنفسهم رابطة «الحياة البسيطة». أي أننا نعيش بشكل بسيط متواضع. في ذلك البستان تعهد الشيخ مفتح بإمامة المصلين جماعة، كما تعهد الشيخ باهنر بارتقاء المنبر للخطابة. وملخص رؤيتهم أنّه لكي نردّ عملياً على المعترضين، علينا أن نعيش فعلاً حياة بسيطة متواضعة، فالطعام الذي نتناوله اليوم مثلاً هو الخبز مع «ماء اللحم» فقط. ونحن نفعل هذا حتىٰ لا يعترضون علينا بعد ذلك، ويقولون إن هذا الرفاه الذي تعيشونه هو من الإسلام!

أضاف الشهيد مطهري مبدياً رأيه في سلوك هذه المجموعة: نريد أن نخدع أنفسنا! إنّ هذه المجموعة التي اجتمعت في البستان، أوضاع أغلبها حسنة، ولديهم البيوت وإمكانات الحياة الجيدة، فهل يا ترىٰ يمكن أن تنحل المشكلة ويكف المعترضون عن اعتراضهم لمجرد أنهم أكلوا في طعامهم الخبز و «ماء اللحم» وأطلقوا على أنفسهم مجموعة «الحياة البسيطة»؟ هل نخدع أنفسنا؟!

علينا أن نفكر بعمل أساسي، ونتحرك بشكل جذري وصحيح. علينا أن نبدأ بإحداث تحوّل في الوضع، والبداية والمنطلق يجب أن يكونا من الحوزة، ويجب أن يكون منطلق العمل ومحله حوزة قم. إنه لا شيء يعضد الإسلام ويساهم في بيان عظمته وقدرته، أفضل من أن نتجهز بأسلحة العصر؛ أي المنطق العلمي، وإعادة بناء المباني علمياً، وهو ما نفتقده.

كان يقول: إذا بقي وضع الحوزة ودروس الحوزة، وأسلوب المعممين (العلماء) ونهجهم على ما هو عليه الآن، فإنّ هذه النهضة لا تنتهي إلى ثمرة، وإذا قدّر لها وأن حققت نتيجة ما فستنهار لأنها لم تقُم على أساس رصين صلب، وسيكون مثلها مثل نهضة السيد جمال الدين ونهضة التبغ، وثورة المشروطة (الحركة الدستورية) حيث كانت ومضات اشتعلت ثم انطفأت.

يجب أن يكون العمل الأساسي متجهاً للتوافق مع متطلبات العصر. وهذا هو ما يخيف أعداء الإسلام، وليس الشعار والإثارة، فهذه أمواج لا تلبث أن تهدأ. قلت: شيخنا، هذا مشروع جيّد، ولكنه يحتاج إلى ميزانية، وأنا أفكر في بيتي ومعيشتي، فماذا أفعل بهما؟

أجاب الأستاذ الشهيد: دع بيتك للأولاد. لقد فاتحت بعضهم، فوعدوا بتأمين

ما يحتاج إليه المشروع من إمكانات.

قبلت ما عرضه عليّ الشهيد مطهري، واتفقنا على أن يخبرني هو بموعد شروع العمل. بيد أنّ الذي حصل بعد مدة، هو أن توفي في النجف الأشرف السيد مصطفىٰ الخميني بشكل غامض، وإثر ذلك انطلقت شرارة الأحداث بواقـعة (١٩ دي) في قم، ثم بلغت وقائع الثورة الإسلامية ذروتها، فذهب الإمام الخميني إلى باريس، وعاد بعدها مظفراً منتصراً إلى البلد، حيث أسس الجمهورية الإسلامية، وأضحىٰ الأستاذ الشهيد على رأس أكثر المسائل ذات الصلة بالثورة.

الشعلة التي انطفأت

في ليلة ١٢ أرديبهشت سنة ١٣٥٨ شمسية*، كنت جالساً في مكتبتي أتحدّث مع ولدي الكبير محمد حول المشروع الذي خطط له الشهيد مطهري للذهاب إلى حوزة قم. كنت أقول لولدي إنّ الأستاذ مطهري هو الشخص الوحيد الذي يفكّر بي. لا أدري إلى أي حدٍ كنا نوفق لو ذهبنا إلى قم، بيد أن الذي أطمئن إليه أنني أعمل مع الشيخ مطهري، وبالتالي فأنا متأكد من أن ضرراً لن يلحقني.

قال ولدي: لا زال الشيخ مطهري يفكّر بك، وإنما غاية مـا هـناك أنـه الآن مشغول.

قلت: اتصلت هاتفياً ببيت الأستاذ في يومٍ مـن الأيـام التي سـبقت انـتصار الثورة، فكانت زوجته على الجانب الآخر من الخط، حيث أخبرتني أن الأسـتاذ غير موجود في البيت، ثم قالت: شيخنا، الشيخ مطهري يفكر بك كثيراً، فهو يذكرك

* المصادف ١ / ٥ / ١٩٨٠، وهي ليلة استشهاد الشهيد مطهري.

دائماً ويذكر ما يلم بك وما تعانيه في مختلف المناسبات والأوقات، حتىٰ على مائدة الطعام، إنه يهتم بك كثيراً.

قلت لولدي أيضاً: أشعر بالأسىٰ أن تخطف السياسة الشيخ مطهري، فهو ليس من أهل السياسة. ليته يتفرغ للعمل العلمي كـاملاً، ويُـعنىٰ بـالسياسة وبـالأمور التنفيذية في البلد بشكل أقل.

في هذه اللحظة دقّ جرس الهاتف. حملتُ سماعة الهاتف، فواجهني صوت أحد الأصدقاء من العلماء، وهو يقول بتأثّر وانفعال: هل سمعت بالخبر؟ قلت: كلاّ، قال: لقد اغتالوا الشيخ مطهري. قلت: عجباً، متىٰ؟ ردّ عليّ الصديق: قبل عشر دقائق من الآن تقريباً. قلت: وهل الذي تقوله صحيح؟ أجاب: أجل!

ارتجفت يداي وتغيّر حالي. سألني ولدي محمد: ما الذي حصل؟ فأخبرته بما قاله الصديق لي. قال: إذن اتصل ببيته.

اتصلت رغم مرضي ببيت الشهيد مـطهري، فسـمعت عـبر سماعـة الهـاتف أصوات البكاء والنحيب تنطلق من النساء في بيت الشهيد. حدثتني سيدة، فقلت لها: السيدة زوجة الشيخ مطهري موجودة في البيت؟ أجابت: أجل، وبعد لحظات كانت السيدة زوجة الشهيد تحدّثني ببكاء ونحيب، وهي تسأل: من أنت، الشـيخ دواني؟ قلت: أجل، قالت: لقد قتلوا مطهري.

تغيّر ولدي محمد، ثم سقط إلى الأرض مغشياً عليه، ولم أكن حتىٰ ذلك الوقت قد رأيت أمامي شخصاً على هذه الحال حتىٰ رأيت ولدي محمداً.

اتصلت هاتفياً بالبعض إما سائلاً أو مخبراً عن الواقعة التي وقعت.

أجل، إن ما كنا نعانيه، هو نفس ما كان يضطرم في نفوسكم أنتم أحباء الشهيد

مطهري وعارفيه... آه، لقد سقط مطهري شهيداً.

لقد التحق الأستاذ مطهري بالرفيق الأعلىٰ بعد أن ملأ الدنيا فكراً جديداً نيّراً، وأملاً عريضاً لخدمة الإسلام والمسلمين. والذي بان بعد ذلك، أنّ المجموعة الجاهلة «فرقان» قامت باغتيال الأستاذ الشهيد في شارع «فخر آباد» بأمرٍ من الأجانب، بعد أن خرج من اجتماع، فأصابته في رأسه للفور، فانطفأ عقله المنوّر.

لم أصعد المنبر بعد ذلك!

حصل ذلك بمناسبة مرور أربعين يوماً على اغتيال الشهيد مطهري، حين شهدت الكثير من المساجد والمؤسسات والمراكز المختلفة مجالس تأبين بهذه المناسبة. دُعيت بدوري لأتحدّث عن شخصية الشهيد السامية في أحد مساجد شرق طهران.

صعدتُ المنبر وأخذت أتحدث عن أستاذ المعقول والمنقول، والكاتب الإسلامي الكبير، والمفكر المعاصر المشهور الشهيد مطهري. بدأتُ حديثي عن الشهيد أيام كان في الحوزة العلمية في مدينة قم، ومررت على مقامه الرفيع ودوره في كلية الإلهيات في طهران، ثم عرضت لكتاباته وآثاره القيمة، وما كان يحمله من حرقة علىٰ الإسلام والمسلمين، فقد كان همه العلم والإسلام وهاجسه الدين والمذهب وكيفية صيانة المسلمين وحفظهم من الأخطار. وأنا أتحدّث سيطر علي هذا الهاجس: أليس من المؤلم أن نفقد في هذا الوقت إنساناً مرموقاً هو في وجوده مجموعة من الفضائل والكمالات، ومنافح أصيل عن الإسلام بأفكاره النيرة المستبصرة؟ والذي يزيد في شدّة الألم ويضاعفه أن نفقده بهذا الشكل، حيث حلّت

ـ رصاصات الغدر الآثمة ـ في دماغه الذي ينطوي على جميع هذه الأفكار الذهبية والرؤىٰ اللامعة المنوّرة، حتىٰ أصبح نثاراً؟!

من شدّة ما هيمن هذا الهاجس عليّ، انكمش فكي الأسفل وتجمد، وانغلق فمي، بحيث باءت محاولاتي في مواصلة الحديث بالفشل، إذ لم أستطع أن أكمل الحديث.

قال لي بعض الحضّار ـ بعد ذلك ـ لقد انخطف لونك وأصبح أبيض كالجص.

حملت إلى الطبيب الخاص الذي يعالجني، وقد كان يعرفنا معاً ـ أنا والشهيد مطهري ـ فقال لائماً ومعاتباً: لماذا عرجت على ذكر خاطراتك مع الشهيد مطهري وأنت على هذه الحال، ومن على المنبر وأمام جمع كبير؟ إنك قد صعقت من هول المفاجأة، لذلك فأنت بحاجة إلى العلاج لمدة من الزمن، وعليك بعد الآن أن لا تشارك في مجالس التأبين لا متحدثاً من على المنبر، ولا مشاركاً بالجلوس فيها!

منذ ذلك الوقت تركت صعود المنبر بشكل رسمي ونهائي، ولم أستطع بعد ذلك أن أصعد سلالم المنبر الذي يتجاوز الدرجات الثلاث، ما خلا مرة واحدة.

لازلتُ الآن وكلما بدت الفرصة المناسبة: أقول: وا أسفاه ويا حسرتاه لغياب الأستاذ مطهري صاحب تلك الثروة من المعارف والعلوم التي يحملها وبأفكاره الجديدة تلك!

حقاً؛ ألا يبعث غيابه على الحسرة والأسىٰ؟!

الشهيد مطهري

مدارات في فكر الإحياء والنهضة

خالد توفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الذي يطالع كتاب الشيخ علي دواني فيما يطويه من ذكريات ومواقف يلمس جيّداً أنّ فكر الشهيد مطهري وحياته تعود إلىٰ بضعة مرتكزات تقوم عليها.

وقد تراءت هذه المرتكزات في خمسة محاور أساسية، هي:

١ ـ إيلاء الحرية الفكرية والتفكير الحرّ اهتماماً بالغاً، بحيث لم يحمل مطهري هذه الخصلة في إرساء أبنية الفكر الإسلامي التي عرض لها وحسب، بل تجاوز ذلك في التعامل مع اتجاهات الفكر الآخر الذي مدَّ خيوطه في المجتمع الايراني. وإذا عرفنا أنّ حياة مطهري الفكرية حافلة بالنقد والاحتكاك مع مختلف الأفكار، فإن هـذه الخصلة ستكتسب أهمية فائقة لما تمنحه للنقد من موضوعية وتوازن.

٢ ـ شخصية مطهري شخصية إحيائية؛ بمعنىٰ أنّها حملت همّ الواقع الإسلامي بمختلف أبعاده، وفكّرت بسبل النهوض به بمختلف جوانبه. والشخصيات الإحيائية بعضها يقتصر علىٰ نظرية وبعضها يجمع بين نظرية الإحياء وممارسته، وقـد كـان مطهري من الصنف الثاني.

واذا شاءت بعض الأقلام أن تقصر الإحياء في العالم الإسلامي عـلى بـضعة أسماء لا تتجاوزها، من خلال ممارسة الإلغاء على أسس منهجية ومذهبية وجغرافية أيضاً، فإنّا وجدنا في الإطار الإحيائي الذي انتخبناه مجالاً ليس لإعادة قراءة إنجاز مطهري وحده، بل عدد آخر من رموزنا الفكرية والعلمائية.

ثم إنّ الأمة تستفيد من هذه المنهجية الشاملة، في التعامل علىٰ نحوٍ أخصب مع شخصيتنا، بعكس المنهج التجزيئي. وهذا ما دعانا إلىٰ ان نخصّص الملحق الأول في

الدراسة، للحرية الفكرية، والمنطلق الإحيائي في شخصية الشهيد مطهري.

٣ ـ شكّلت العلاقة الملتبسة بين الحوزة والجامعة، والمثقف والفقيه مشكلة اجتماعية ـ فكرية في حياة المسلمين منذ أكثر من مئة عام. وفي المجتمع الإيراني اكتسبت هذه القضية أبعاداً أكثر تعقيداً، وشهدت أطروحات حلّ؛ كان من بينها: الرؤية التي نهض بها مطهري. وهكذا جاء الملحق الثاني في دراسةٍ اشتملت معالجة هذا الجانب في نشاط مطهري.

٤ ـ اقترنت مع بدايات حياة مطهري نزعةُ التجديد والإصلاح الحوزوي والمرافق الأخرىٰ التي تتواصل مع الحوزة. وقد كانت له رؤىٰ نقدية وتأسيسية جريئة أطلّت على الواقع قبل أربعة عقود عرَضْنا لمعالمها في الدراسة الثالثة من هذه الملاحق.

٥ ـ أخيراً طفنا في الملحق الرابع والأخير مع وقائع ناطقة في الهمّ الديني والغيرة الإسلامية، برزت كبيرة في حياة الشهيد مطهري.

حول هذه المرتكزات دارت الدراسات الأربع التي قدمناها في هذه الملاحق، كي تعمّ الفائدة من الذكريات والخواطر، عبر إعادة وصلها بخلفياتها في الرؤىٰ والأفكار.

نقطة أخيرة ـ منهجية ـ نشير من خلالها، إلىٰ أنّنا اعتمدنا نص مطهري والمصادر الإيرانية خاصة في إنجاز هذه الدراسات، في محاولة أشبه ما تكون بقراءة بعض معالم المشهد الثقافي الإيراني من الداخل، عبر شخصية مطهري.

نرجو أن تتكامل هذه الملاحق التي كتبناها، مع أصل الكتاب الذي ترجمناه للشيخ علي دواني، في إعطاء صورة متكاملة عن الشهيد مطهري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

خالد توفيق

الحرية الفكرية والمنطلق الإحيائي في شخصية مطهري

الحرية الفكرية كأساس

نبدأ بواقعة لها دلالة. نعرف جميعاً أنَّ الشهيد مرتضىٰ مطهري مكث مدّة نيّفت على العشرين عاماً وهو يشتغل بالتدريس في كلية الإلٰهيات والمعارف الإسلامية أستاذاً للفلسفة والمنطق والفقه (١٣٧٦ ـ ١٣٩٨ هـ)، وقد انتبه قبل بضع سنوات من انتصار الثورة الإسلامية إلىٰ أنَّ أحد الأساتذة يروّج في كلية «الإلهيات» للفلسفة المادية، ويقوم بالدعاية للمادية الديالكتيكية بين الطلّاب، ضدَّ الفلسفة الإسلامية.

أثار تصرّف الأستاذ هذا ردود فعل الطلبة، فتأزمت الأوضاع حتىٰ كادت تخلّ بالجوّ الدراسي، فما كان من الأستاذ مطهري وهو يرأس قسم الفلسفة في الكلية إلا أن بعث برسالة رسمية إلىٰ الهيئة العلمية طالباً فيها تأسيس كرسي للمادية الديالكتيكية في هذه الكلية بالذات ـ كلية الإلهيات ـ وأكّد: «ضرورة أن يضطلع أستاذ مُلمّ ومؤمن بالمادية الديالكتيكية بتدريس المادة»[1] كما يقول ـ نصّاً ـ مطهري الذي عبّر عن هذه الرغبة في مكانٍ آخر بنص قوله: «لقد كتبت قبل أعوام، كتاباً الى مجلس إدارة هذه الكلية ونبهت فيه إلىٰ أنّ كلية الإلهيات هي الكلية

---

(١) حول الثورة الإسلامية، الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري، دار سروش، ١٩٨٣، ص٤٩.

الوحيدة المؤهلة لتخصيص كرسي لتدريس الماركسية، شريطة أن لا يقوم بـذلك استاذ مسلم، وإنّما أستاذ يتفهم الماركسية حقّاً، ويؤمن بها حقّاً، ولا يؤمن بالله حقّاً. لا يخطر ببال أحد أنه لا يجوز تدريس الماركسية في كلية الإلهيات. بل بالعكس يجب أن تدرّس، ولكن على يد أستاذ مؤمن بها وملتزم بها، ثم يأتي دورنا لنقول ما لدينا ونعرض منطقنا، ولا يُرغَم أحد على قبول هذا المنطق»[٢].

أرجـو أن نـنتبه جـيداً لمـواصـفات الأسـتاذ المـطلوب لتـدريس المـادية الديالكتيكية، فالشهيد مطهري لا يريده أن يكون عارفاً بهذه الفلسفة مختصاً بهـا علمياً وحسب؛ وإنّما يريده ـ أيضاً ـ أن يكون مؤمناً بها.

ولكن لماذا؟ ألا يُعدّ هذا الأسلوب بنظر البعض ضرباً من ضروب الدعـاية لفكر الضلال؛ بل قد يحسبه بعض السطحيين تضييعاً للإسلام والشباب ؟

يذهب الشهيد مطهري في واحد من أركان مشروعه الفكري الإحيائي إلىٰ أن الفكر الإسلامي لا يمكن أن يمتدّ بشكل صحي بين النـاس وبـين فـئات الشـعب، والمتعلمين والمثقفين بالخصوص، إلّا من خلال المواجهة المفتوحة مع ضروب الفكر الآخر. ويؤمن إلى جوار ذلك أنّ فتح مجال الحرية للفكر الآخر، سيجعل هذا الفكر يظهر في حركة الواقع وبين المثقفين بحجمه الحقيقي.

وإذا كنّا نكرّر القول أنّ الإسلام قويّ، وفكره يمتلك مؤهلات مقارعة الفكـر الآخر أيّاً كان مشربه، فإن الواقع هو الذي سيتحوّل إلىٰ معيار للحكم على أهلية الفكر الحيوي لنهضة المجتمع (لا أقول محتواه فـلمحتوى الفكـر مـعايير أخـرىٰ). وحينئذٍ سيتحدّد الفكر الآخر ليس من خلال القمع والاضطهاد وإسباغ الهالة عليه

---

(٢) المصدر السابق، ص١٢.

عبر جرّه إلى السرية والكتمان، وإنّما من خلال منحه الحرية الكاملة في التعبير عن نفسه بصيغٍ علنية وبمنهجٍ استدلالي برهاني.

على هذه الأرضية يهتف مطهري بروّاد الفكر الآخر في محاضرة ألقاها بعنوان «حرية الفكر وحرية الرأي»:

«إنني أعلن لكلّ الأصدقاء من غير الإسلاميين، أنّ التفكير في ظلّ الإسلام أمرٌ حرّ، فكّروا كما تشاءون، وأعلنوا عن آرائكم كيفما شئتم شريطة أن تكون آراءكم الحقيقية حقّاً، اكتبوا كيفما يروق لكم، فلا أحد سيحُول دون ذلك»[٣].

بعد أن ينتهي مطهري من ذكر هذه الحادثة خلال محاضرة ألقاها بمسجد «الجواد» بالعاصمة طهران في شهر آذار / ١٩٧٩ أي أثناء احتدام الصراع بين التيارات المختلفة غداة انتصار الثورة؛ بغية الرسو على تقنين واضح للحياة الفكرية والثقافية في البلد، وطبيعة العلاقة التي يجب أن تسود بين الاتجاهات الفكرية الإسلامية وغير الإسلامية، يعلّق عليها بالنصّ:

«هذا هو الأسلوب الصحيح لمواجهة المسألة. إما إذا أراد شخص أن يؤثّر على الطلبة السذّج وضئيلي الثقافة بالدعاية بينهم خفية وعن طريق الإغواء والخداع، فهذا ما لا يجوز. وقد اقترحت علىٰ ذلك الأستاذ مراراً بأن يبادلني آراءه بدلاً من عرضها علىٰ فئةٍ من الطلبة؛ وقلتُ له دعْنا نتبادل الآراء أمام الطلبة أنفسهم، أو أمام عدد أكثر من الحضّار إذا رغبتَ بذلك؛ بل يمكن توجيه الدعوة إلىٰ أساتذة وطلبة الجامعات الأخرىٰ لنتبادل الآراء في جلسة عامة يحضرها آلاف الأشخاص ونتناظر في الموضوع. وقلت له كذلك: مع أنني لست مستعداً بأيّ وجه من الوجوه

---

(٣) حول الثورة الإسلامية، مطهري (الترجمة العربية)، ص١٢، من محاضرة ألقاها في كلية الإلهيات بتاريخ ٢٢ / ١ / ١٩٧٩.

للتحدّث عبر الإذاعة والتلفزيون [وقد كان ذلك في عهد بهلوي] بيد أني مستعدٌّ لأن أناظرك في برنامج إذاعي أو تلفزيوني»[٤].

ثم أعقب ذلك بقوله نصّاً: «وبرأيي إن هذا هو السبيل الوحيد لمواجهة الآراء المعارضة. أما إذا أردنا الوقوف حيال هذه الأفكار، فسنكون قد عرّضنا الإسلام والجمهورية الإسلامية للهزيمة والانكسار. طبيعي أنّ صراع الأفكار ودخولها بمعتركٍ فيما بينها، هو غير الإغواء والخداع»[٥].

وفي أوج العنفوان الثوري الذي رافق أحداث الثورة الإسلامية، حيث برزت بعض الاتجاهات الإسلامية التي تحاول أن تحجر على كلّ شيء يعبّر عن الرأي والفكر الآخر، واجه الشهيد مطهري هذه الموجة، بصيحة مدوّية: «إنّني أُحذّر الشباب والمؤيدين للإسلام من التصوّر بأنّ سبيل المحافظة على المعتقدات الإسلامية يتمثل بالحجر علىٰ عقائد الآخرين في إبداء آرائهم، وإنّما يمكن حماية الإسلام والمحافظة عليه بقوّة واحدة هي «العلم» ومنح الآخرين الحرية في التعبير عن آرائهم المعارضة، ثم التصدي الصريح الواضح لتلك الأفكار»[٦].

ثم أضاف: «إن الإسلام لا يستطيع مواصلة حياته في المستقبل إلّا بالمواجهة الصريحة والشجاعة للأفكار والعقائد المتباينة»[٧].

وفي مناسبة أخرىٰ شدَّد مطهري على حرية الفكر وضرورة أن تكون هذه الحرية مكوّناً من مكونات الحياة الثقافية في الدولة الإسلامية، حيث قال: «إنّني

---

(٤) حول الثورة الإسلامية (الترجمة العربية)، ص٤٩، وفي النص الفارسي، يلاحظ: پيرامون انقلاب اسلامي، ص٦٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق، الترجمة العربية، ص١٦، والأصل الفارسي، ص١٩.

(٧) المصدر السابق.

أُعلن أنّه ليست هناك أيّة حدود للأفكار في نظام الجمهورية الاسلامية، ولن يكون هناك أيّ «توجيه» للأفكار، فالجميع يجب أن يكونوا أحراراً في عرض أفكارهم الواقعية الأصيلة»[٨]. (الأصيلة هنا بمعنىٰ الفكر الحقيقي الذي يعتنقونه من دون مواربة أو تقيّة).

بيدَ أنّ الصورة تبقىٰ مجزوءة غير متكاملة لو أغفلنا الإشارة إلى الأبعاد المكملة في مبدأ حرية الرأي والفكر في الدولة الإسلامية؛ والأبعاد المكمّلة في موقف الشهيد مطهري، هي:

أوّلاً: إنّ حرية الفكر الآخر لا تعني حرية التآمر، فالتآمر ممنوع في كيان الدولة الإسلامية، وما هو مباحٌ عرض الأفكار والاستدلال عليها.

يقول مطهري في ضمان حرية الاتجاهات الفكرية غير الإسلامية، وحرية الأحزاب غير الإسلامية أيضاً، ولكن بقيد عدم التآمر: «الأحزاب ستكون حرّة في ظلّ الحكومة الإسلامية، وسيتمتع كلّ حزب بالحرية، حتىٰ لو كانت له أفكار غير إسلامية، ولكننا لن نسمح للتآمر والخداع والتمويه»[٩].

وكمثالٍ علىٰ هذا التمييز نقتبسه من الأستاذ مطهري نفسه؛ يرىٰ أنّ الإسلاميَّ حرّ (يتحدّث إبّان أحداث الثورة) في أن يُعلن عن الجمهورية الإسلامية كهدفٍ لحركته الثورية، وفي المساق نفسه فإنّ الماركسي حرّ في أن يعلن عن شعار الدولة التي يرغب بها.

وفي إطار ذلك، فإنّ من حق الإسلامي أن يرفع صورة قائده الإمام الخميني، تماماً كما من حقّ الماركسي أن يرفع صورة لينين. أما الخداع والنفاق فهما يبدوان

---

(٨) حول الثورة الإسلامية، الترجمة العربية، ص١١، والأصل الفارسي، ص١١.

(٩) المصدر السابق، الترجمة العربية، ص١٥.

حين يسير الماركسي وراء الاتجاه الإسلامي ويرفع صور الإمام الخميني ليحتمي بها نفاقاً ويتكتم على حقيقة متبنياته، وبنصّ مطهري: «إنّ حرية إبداء الرأي، هي إعلان ما تعتقدون به حقّاً؛ أنّ مَن تؤمنون به هو لينين، طيّب! ارفعوا إذن صورته، إنني أسألكم: لِمَ ترفعون صورة إمامنا؟ لِمَ الكذب؟ لِمَ المراوغة؟ لِمَ الخداع؟ يجب أن لا نخلط بين حرية الفكر وحرية المراوغة والنفاق والتآمر».

وفي السياق نفسه يقول: «ما دمتم لا تؤمنون بآية الله الخميني، وما دمتم تقولون في أوساطكم أنكم ستكونون معه حتىٰ المرحلة الفلانية ثم تعلنون النضال ضدّه، لِمَ إذن ترفعون صوره؟ إنّه يطالب بالجمهورية الإسلامية ويعلن رأيه بصراحة، فلِمَ لا تعلنون رأيكم بصراحة؟»[١٠].

لقد عرضنا قبل قليل اقتراح مطهري على مجلس إدارة كلية الإلهيات في ضرورة تنسيب أستاذ ماركسي يدرّس المادّية الديالكتيكية. بعد عرض هذا الاقتراح عاد مطهري ليقول: «يجب ألّا يخطر على بال أحد بأن الماركسية لا ينبغي أن تدرّس علىٰ يد أستاذ مؤمن وملتزم بها. يجب ـ فقط ـ الوقوف حيال الكذب والخداع والافتراء».

ثانياً: من العناصر التي تكمل رؤية مطهري حول الموضوع، هو التمييز الذي يقيمه بين حرية الفكر وما يُطلِق عليها حرية الجمود الفكري. فبقدر ما تكون الأولىٰ مطلوبة وعنصراً لا غنىٰ عنه في حركة الإحياء وأسس النهضة، فإنّ الثانية مرفوضة. ويبدو لنا أن ما يعنيه بالجمود الفكري هو تدخّل السلطة في عالم الأفكار وتبنّيها لاتّجاه فكري أو منهجي معيّن، ثم دفع الناس قسراً وتوجيههم عنوة نحو ذاك

---

(١٠) المصدر السابق، العربية، ص ١١.

الاتجاه، كما حصل في تاريخ المسلمين من تسويق جهاز السلطة الأموية للفكر الإرجائي، والعباسية للفكر الأشعري، والسعودية للوهابي، وسلطة الدول الاشتراكية (سابقاً) للماركسية وهكذا. وإنّ قبول الاتجاه الفكري لحماية السلطة السياسية وارتماءه في أحضانها، هو دليل ـ برأي مطهري ـ على عدم إيمان هذا الفكر وأصحابه بالحرية الفكرية؛ بل عدم ثقتهم بأنفسهم وعدم إيمانهم بفكرهم. يقول في هذا المضمار: «فكلّ مدرسة لا تؤمن بنفسها ولا تعتقد بمبادئها، تقف دون حرية الفكر، ودون حرية التفكير، وهذه المدارس تقوم ـ لا مناص ـ بتأطير المجتمع وحصره داخل دائرة فكرية خاصة، والوقوف حيال نمو أفكارهم، وهذا ما نراه اليوم في الدول الشيوعية»(١١).

وإذا كان مطهري يهاجم الجمود الفكري لصالح الحرية الفكرية، فيجب أن نعرف بوضوح، أن دعوته لحرية الفكر في إطار الممارسة الإسلامية وفي نطاق الرأي الآخر، لا تأتي على حساب الاستقلال الفكري للأُمة، مثلما أنَّ الاستقلال الفكري يجب أن لا يتحوّل إلىٰ ذريعة للجمود. فنحنُ إذن أمام مقولات ثلاث، هي: حرية الفكر، الجمود الفكري، الاستقلال الفكري. ومطهري داعية كبير لحرية الفكر، مبارز شجاع للجمود، وهو في الوقت نفسه مع الاستقلال الفكري، وستتضح المسافة أكثر ـ فيما بعد ـ بين الاستقلال المنشود والجمود المرفوض.

ثالثاً: يقيم مطهري تمييزاً بين حرية الفكر والرأي، وبين حرية العقيدة، فالإسلام يمنح الإنسان الحقَّ الأوّل في ظلّ الدولة الإسلامية، أمّا حرية العقيدة فتخضع لسياق فهم آخر. يقول مميزاً: «إنّ حرية التفكير وانتخاب الدين هي

---

(١١) المصدر السابق، العربية، ص ١٠.

مسألة، بينما حرية العقيدة هي مسألة أخرىٰ»[١٢]. وفي مكان آخر يقول: «هناك تباين بين (حرية الفكر) و (حرية العقيدة)»[١٣]. والذي يذهب إليه الشهيد مطهري أنَّ الإنسان حرّ في الفكر، لأن الأخير يخضع إلى المنطق والاستدلال. وبالتالي فإنّ المناط في الحرية الفكرية، هو ما يُشاد على أساس المنطق والدليل، أما ما يفتقر إليهما، فلا معنىٰ للحرية فيه.

وبالنسبة للمعتقدات، يميِّز مطهري فيها بين لونين؛ بين عقائد تقوم على أساس المنطق والدليل، فالإنسان حرٌّ فيها، بما في ذلك حريته في انتخاب الدين الذي يقوده إليه المنطق والدليل، وبين عقائد تفتقر إلى البناء المنطقي والأساس البرهاني، ولا تمثّل في حياة الإنسان إلّا محض صلة نفسية أو أهواء يميل الإنسان اليها، أو «معتقدات» توارَثها عن الآباء والأجداد، أو حاكىٰ فيها الآخرين ومضىٰ عليها مقلِّداً، متعصباً لها دون أن يكون لها نصيب من المنطق.

في هذه الحال لا يسع الإنسان أن يتلفع بحرية الفكر، في تبرير معتقداته التي لا تقوم على أساس، بل إن منطق حرية الفكر يدعو لمهاجمة أمثال هذه المعتقدات والكشف عن خواء مضمونها المنطقي وافتقارها للتماسك البرهاني.

إذن، لا حرية في العقيدة لما لا دليل عليه، ولا حصانة للمعتقدات التي لا تملك أساساً منطقياً. إنّما يدخل في حياض الحرية الفكرية وحرية الرأي، ما له أساس في المنطق وقوام في الفكر، ويخضع في منهجه إلى الحجّة والدليل.

وما هو مطلوب في أصل الوجود الإنساني أن يكون الإنسان حرّاً في تفكيره،

---

(١٢) حرية العقيدة أم حرية التفكير، الجهاد وحالاته المشروعة في القرآن، مطهري، ص٤٤ (الترجمة العربية).

(١٣) المصدر السابق، ص٣٧، فقرة بعنوان: حرية الفكر أم حرية العقيدة.

مُتحرراً من قيود المعتقدات المتوارثة عن تقليد ومحاباة، أو عن إثرة لقوم وتعصّب لعقيدتهم.

يقول مطهري: «الفكر منطق، والإنسان يملك قوّة باسم قوّة التفكير، بحيث يكون بمقدوره ممارسة الانتخاب على أساس التفكير والمنطق والاستدلال. أما العقيدة فهي بمثابة الارتباط. وما يفتقر من العقائد إلى الأساس الفكري، يكون أساسه التقليد والتبعية والعادة، بل مزاحمة حرية البشر. وما نبحثه في مجال الحرية؛ ليكون البشر أحراراً، هو التفكير. أما المعتقدات التي ليس لها جذر فكري، فهي عقدة وجمود روحي فقط، تمَّ توارثها جيلاً عن جيل. وهذه هي العبودية بعينها.

لذلك فإنّ الحرب من أجل القضاء على هذه العقائد، هي في حقيقتها حرب في طريق تحرير البشر وليست حرباً ضد حرية البشر»(١٤).

أما من يدافع عن «حرية» المعتقدات التي لا تقوم على أساس منطقي، فهو يدافع عن الركود والتقليد والتعصّب، و «الحرية في الركود تساوي حرية سجين في البقاء في السجن، وحرية شخص في أن يبقىٰ مقيّداً بقيوده» كما يقول الشهيد مطهري في امتداد النص السابق.

كتب الضلال

رابعاً: في آخر ما ألقىٰ من محاضرات، تحدّث الشهيد مطهري في مسجد الجواد بالعاصمة طهران، في شهر آذار ـ ١٩٧٩ عن الخطوط العامة لمشروع الجمهورية الإسلامية التي لم يكن قد تمَّ التصويت عليها بعد، وفي الجانب الفكري أكّد مجدَّداً على

---

(١٤) المصدر السابق، ص٣٧ ـ ٣٨.

الحرية الفكرية للرأي الآخر، كونها درعاً لحماية الثورة الإسلامية: «يجب أن يتمتع كلّ فرد بحرية الفكر والبيان واليراع، وبهذا فقط يمكن لثورتنا الإسلامية أن تستمر في الطريق الصائب للنصر».

ثم عرض في الأثناء إلى الرأي الفقهي الذي يقول بحرمة كتب الضلال.

حينئذٍ بادر أحد الحاضرين لتوجيه السؤال التالي؛ لحل ما بدا تعارضاً بين القول بحرية الرأي وبين حرمة كتب الضلال: لقد ذكرتم أنّ نشر كتب الضلال ممنوع في الإسلام، فهل يعني هذا الحيلولة دون نشر مثل هذه الكتب، سواء أكان ذلك عن طريق الرقابة أم عن طريق نشر كتب تعمل على تفنيد الآثار المضلّة هذه؟

ثم أضاف السائل: تكمن أهمية الموضوع في أن الأسلوب الأول سيؤدي إلىٰ ممارسة الاضطهاد كما أشرتم، والأسلوب الثاني سيتسبّب ببروز آثار تدريجية تظهر على المدى البعيد؟

أجاب الأستاذ مطهري بقوله: «قسّمتُ الكتب في مستهل حديثي إلىٰ قسمين: الكتب القائمة علىٰ منطق خاصّ، وعلىٰ طريقة خاصة في التفكير، وإن كانت كتباً مناوئة للدين وللإسلام ولله. فقد يتوصل أحد إلىٰ فكرة أو أطروحة خاصة يقوم بعرضها عن طريق تأليف كتاب. هذا لا مانع منه، وهناك العديد من هذه النماذج. هناك أشخاص يتحدّثون صراحة ضدّ الله، وضدّ الإسلام، وضدّ الرسول، بيد أنّهم صادقون، لأنّ ذلك هو رأيهم، وتلك هي طريقتهم الخاصة في التفكير. الإرشاد والهداية والتوسل بالمنطق الصائب هو السبيل الوحيد لمواجهتهم. أما النوع الثاني من الكتب فهو يختلف، فالمسألة هنا هي مسألة الكذب والافتراء والخداع... لنفترض أنّ شخصاً يؤلّف كتاباً عن رئيس الحكومة ويتهمه بآلاف التهم، ترىٰ هل تقضي الحرية ـ برأيكم ـ السماح له بنشر مثل هذه الأباطيل بين الناس؟ في المقابل

هناك مَن يوجّه الانتقادات البنّاءة القائمة علىٰ أدلّة لرئيس الحكومة. بديهي أنّ لمثل هذا الفرد الحقّ التامّ في التعبير عن رأيه».

ثم يخلص للقول: «إنّ صلب ما نقول به هو ضرورة ممارسة الرقابة على الأكاذيب والافتراءات وعدم السماح لرواج حرية الكذب بين الناس بذريعة حرية الرأي والفكر والعقيدة»(١٥).

علىٰ خلفية هذه الرؤية تسجّل نصوص مطهري المكتوبة موقفاً لا يخاف الشبهات ولا يخشىٰ أن يعيش المجتمع المسلم أسئلة الآخرين وإثاراتهم، بل قد يفرح لها من جهة ما توفره من فرص للفكر الإسلامي في أن يعبّر عن قوّة منطقه ومتانة منهجه وثراء محتواه.

نقرأ له في هذا المجال؛ قوله: «أنا لا أشعر بالقلق أبداً ـ خلافاً للكثيرين ـ مما يثار من شكوك وشبهات في المسائل الإسلامية، رغم عُلقتي الوطيدة بالدين وإيماني العميق به؛ بل أشعر بالفرح في أعماق قلبي. لماذا؟ لأنني أعتقد أنّ هذا الدين الإلهي المقدّس تتجلّىٰ قوّته ويستبين علوه ويكتسب رونقاً أكبر، في الجبهة التي يتعرّض فيها للهجوم أكثر من غيرها. وهذه هي خصوصية الحقيقة، إذ يساعد الشكّ والتشكيك في تجلّيها ونصوعها»(١٦).

وشخصياً أنا على يقين من أنّ هذا النص لو اقتطع من سياقه لتسبب في تشويه موقف مطهري؛ بل لأقولها صراحة؛ إنّ بعضهم ما يزال لا يتفهم هذه الرؤية المنفتحة،

---

(١٥) حول الثورة الإسلامية، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(١٦) نظام حقوق زن در اسلام (بالفارسية)، ص ٢٣، والكتاب سلسلة مقالات كتبها المؤلف في مجلة «زن روز» في عهد الشاه رداً على ما أثارته حول موقف الإسلام من المرأة، ثم جمعت وطبعت في كتاب.

وإن كان لا يجرؤ على الإفصاح عن رأيه في مخالفتها. وفي كلّ الأحوال لا يجب إساءة فهمها، فالشهيد مطهري عُرِف بحسّه الديني العميق وغيرته الشديدة على الإسلام، حتىٰ خصّص جلّ نشاطه الثقافي لمواجهة الهجوم الفكري، وإنّما أراد أن يُطلّ على الشبهات من واقع ما تنتهي إليه في ممارسة الإسلاميين ـ لو نهضوا بمسؤوليتهم ـ من قوّة وإحكام في جبهة الفكر الإسلامي(١٧).

على أساس هذا الإيمان العميق بالحرية الفكرية وانطلاقاً منه، نطوف في بقية هذا المقال على لمحات من عناصر الفكر الإحيائي ـ فكر النهوض والحركة والانبعاث ـ لدى الشهيد مرتضىٰ مطهري.

---

(١٧) من زاوية إيمانه العميق بالحرية الفكرية، نستطيع أن نتفهم البواعث التي حدت بالشهيد مطهري إلىٰ أن يمتدح المعتزلة في أعماله الفكرية، فهو يدافع عن منحاهم العقلي المنفتح ويهاجم الاتجاه الأشعري، إذ يكتب: «لا شك في أننا لو قارنّا المعتزلة بالأشاعرة، لرأينا أنّ المعتزلة كانوا يمتلكون حرية فكرية واستقلالاً ذهنياً لائقاً. ولابد أن نعتبر خطوة المتوكّل العباسي ضدّ المعتزلة وتركيزه للمبدأ الأشعري فاجعة عظمىٰ للعالم الإسلامي» (الإنسان والقضاء والقدر، ص١٢٦). كما له إشادات بهم في مواطن أخرىٰ وتشكٍّ عميق من الاتجاه الأشعري الذي يُنسب إلىٰ هيمنته على العقول، انتكاسُ الجيل الثاني من روّاد الإصلاح في العالم العربي.

طبيعي أنّ امتداح المنحى العقلي عند المعتزلة لا يعني الاتفاق معهم في كلّ شيء.

ومن المؤشرات الدالة على عميق إيمانه بالحرية الفكرية، هو استشهاده أكثر من مرّة بقصّة المفضل بن عمرو مع ابن أبي العوجاء، وكيف أنّ الثاني ردَّ على الأوّل بعد تراددٍ بالكلام، بقوله: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك، فإن تمّت لك حجّة تبعْناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك. وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق، فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّىٰ في جوابنا. إذ كان يريد أن يقول أنّ المدار في مواجهة ضروب الرأي الآخر، والتيارات الفكرية للخصوم، هو الدليل مع الأدب، وقد دأب على الاستشهاد بهذه الواقعة أكثر من مرّة: منها على سبيل المثال في كتابه «حول الثورة الإسلامية، ص١٥»، وكتابه «قصص الأبرار، ج٢، ص٢٧» وربما عاد لها في أماكن أخرىٰ.

المنطلق الإحيائي وفكر النهوض

السؤال الأوّل الذي ينطلق بداهة؛ هو أيُّ معنىً نضعه للإحياء، بحيث نـقيس عليه فكر الآخرين وسلوكهم، وفيما إذا كان من الجـائز عـدُّهم في زمـرة رجـال الإحياء أم لا؟

سأغامر بالقول: إنَّ رسم إطارٍ للإحياء؛ محـدّد بـعناصر بـعينها تـتحوّل إلى معايير، هو أمر يخرج عن نطاق البحث الأكاديمي الصارم، ويدخل في إطار الرؤية والنظر. وبالتالي فإنَّ معنى الإحياء وعناصره، يختلف من إطار حضاري إلىٰ آخر، وهو يتوزّع داخل الإطار الحضاري الواحد إلى اتجاهات متعدّدة.

وحين نتحدّث في نطاق المسلمين، يمكن أن نتفق على مفهوم عريض للإحياء يتألف من حسٍّ بالواقع المعاش وبمرارته، وبالامتلاء بهـمّ تـغييره وتجـاوزه نحـو الأفضل، شرط أن يستند التغيير إلىٰ رؤية فكرية تحليلية لعلل الواقع المعاش، إلىٰ جوارها رؤية فكرية تترسم منطلقات التغيير والتجاوز، وقد تمـارس الشـخصية الإحيائية بعض منطلقات فكرها في التغيير، لو أُتيحت لها إمكانات ذلك، وقد تموت وتختفي من الساحة، ويبقىٰ فكرها الإحيائي مناراً لعمل الآخرين.

وفي مجال الإسلاميين، قد نلتقي بشخصيات إحيائية في جانب الممارسة والعمل،

دون أن يكون لها نظرية إحيائية مدوَّنة، وإنّما لها بعض المرتكزات الفكرية الأساسية التي توجه نشاطها وتضبط ممارستها، وربما تكون الشخصية إحيائية في جانب الممارسة والعمل، في حين تقتدي في الجانب الفكري بنظريات المصلحين الآخرين وتواصلها.

كما تختلف الشخصية الإحيائية بين أن تكون شخصية شاملة يتوفر منهجها الفكري والحركي على أبعاد واقع الأمة بكاملها، فتمارس الإحياء الشامل، وبين أن تقتصر همومها على بعض الأبعاد دون غيرها، فتُعدّ حينئذٍ شخصية إحيائية جزئية.

ومادام الحديث عن شخصيات إحيائية في مجال حياة المسلمين وواقعهم المعاش، فإنَّ الإسلام سيكون هو منطلق الفكر الإحيائي على مستوىٰ تحليل الواقع وتحديد مشكلاته؛ وعلى مستوىٰ إيجاد صيغ الحلول لهذه المشكلات. والشيء الطبيعي هو أن يكتسب الإسلام فهماً لدىٰ رجال الإحياء هؤلاء؛ يأتي في غناه وحيويته أخصب كثيراً من ضروب الفهم السائدة، بل سيأتي فهم هؤلاء المحيين، ثورة على الفهم السائد أو تجديداً فيه على أقل تقدير.

وهذا ما يفسّر لنا اقتران أسماء أغلب رجال الإحياء في الصفّ الإسلامي، بمحاولات فكرية رامت تجديد الفكر الديني وإعادة فهمه.

نستطيع تلخيص هذه الرؤية في مقصود الإحياء ومعنى الشخصية الإحيائية في دنيا المسلمين، بالعناصر التالية:

١ ـ توافر الإحساس بالواقع المعاش وبمرارته.

٢ ـ الامتلاء بهمّ تغيير واقع الأمة وتجاوزه نحو الأفضل.

٣ ـ استناد التغيير إلىٰ رؤية فكرية ـ تحليلية لعلل الواقع المعاش.

٤ ـ توفر رؤية فكرية لدى الشخصية الإحيائية تمثّل منطلقات التغيير وصيغ النهوض والتقدم، وما يمتّ إلىٰ هذا المسار من قضايا رئيسية، من قبيل الموقف من الغرب وغير ذلك مما له مساس بنهضة الأمة.

٥ ـ أن يكون الإسلام هو منطلق الرؤية التحليلية لأزمة الواقع؛ وهو مصدر صيغة الحل.

٦ ـ قد تكون الشخصية الإحيائية شخصية شاملة على النطاق الجغرافي حيث تمتدّ همومها لجميع الوجود الإسلامي في كافة أقاليم المسلمين، وشاملة أيضاً على نطاق اهتمامها بجميع أبعاد الواقع وما يعاني منه المسلمون، وقد تكون جزئية في النطاق الجغرافي، وفي مجال اعتنائها ببعض الجوانب وتركيزها عليها دون غيرها.

٧ ـ قد تجمع الشخصية الإحيائية الدورين معاً، فتكون صاحبة نظرية في الفكر الإحيائي، إلى جوار ممارسة الفعل الإحيائي ونشاط النهضة، وقد تكون صاحبة فكر ونظرية بلا ممارسة، أو ممارسة فقط في حين تعود في الفكر إلى احتذاء نظريات مصلحين آخرين ومتابعتها.

إذا اتفقنا على عناصر هذه الرؤية، تكون قد أطلّت في حياتنا خلال قرن من الزمان شخصيات إحيائية كبيرة من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد إقبال ومحمد جواد البلاغي وهبة الدين الشهرستاني، وقبلهم المجدّد الشيرازي، ثم محمد حسين كاشف الغطاء، ومحمد رضا المظفر والميرزا النائيني وعبد الحسين شرف الدين ومحسن الأمين العاملي وعبد الحميد بن باديس ومحمد باقر الصدر ومحمد جواد مغنية ومرتضىٰ مطهري والإمام الخميني.

وإذا شئنا أن ننطلق من المحددات التي وضعناها، فإنّ محمد حسين الطباطبائي

وعبد الهادي الفضلي ـ وأضرابهما ـ يدخلان في رموز الإحياء الإسلامي المعاصر، من خلال ما تضمنه فكرهما من مرتكزات في الإحياء والنهضة، وكذلك من خلال بعض مسارات سلوكهما.

مناهج الإقصاء والإلغاء

بيدَ أنّ المشكلة التي تصدم وعي الجيل الراهن أنّه اعتاد من خلال المناهج السائدة، أن يغضّ النظر عن الكثير من هذه الأسماء ويقتصر في مصاديق الإحياء والنهضة على عدّة قليلة من الأسماء بعضها لا يستحق لقبه. فالوعي الراهن ينصرف حين يتمّ الحديث عن كبار رموز الإحياء والنهضة، إلى أسماء بعينها ربما لا تتجاوز الأفغاني وعبده ورشيد رضا وقبلهم الطهطاوي وخير الدين التونسي، وبعدهم عبد الحميد بن باديس.

ومردّ هذه النظرة القاصرة، هي المناهج التي توجّه عقول الباحثين، وتغذّي في الجيل وعيه. وهذه المناهج قائمة ـ مع الأسف ـ في المنحى العام لها، علىٰ أساس ممارسة الإلغاء الشنيع، والاتجاه صوب الحذف والإقصاء، تارةً علىٰ أساس طبيعة المنهج المنتخب الذي يرتكز في الغالب إلىٰ طبيعة نخبوية ومحتوىٰ علماني[1]، وتارةً

(١) كمثال له دلالته العميقة على هذا المنحىٰ يلاحظ: البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ ـ ١٩٣٩)، وأهمية هذا الكتاب هو في الدور التوجيهي الذي قام به لعقول بقية الباحثين. إذ يعرف المتماسون مع هذا اللون من الممارسة الفكرية أنّ محاولة حوراني في هذا الكتاب تعدّ تأسيسية ومنهجية، فقد اقتفىٰ أثرها جمهرة كبيرة من الباحثين فيما بعد، مارسوا الإقصاء نفسه الذي مارسه حوراني، فعزل أبناء الشيعة ومفكريهم وعلماءهم، وسقط بالتالي عن حيّز الدراسة العراق وأجزاء من لبنان والحجاز أو منطقة الخليج عموماً.

على أساس الانتماء المذهبي والجغرافي ـ المذهبي، وأحياناً يجتمع العاملان في آنٍ واحد فيمارس الباحث الإلغاء والإقصاء على أساس منهجي وعلى أساس مذهبي وجغرافي(١٩).

وما تريد أن تنهض به هذه الأسطر، أن تقدم مرتضىٰ مطهري باعتباره شخصية إحيائية على مستوى الفكر والممارسة، وذلك انطلاقاً من العناصر السبعة التي أشرنا إليها آنفاً.

والشيء الغريب في طريقة احتفاء الساحة الفكرية الإيرانية بالشهيد مطهري،

---

(١٩) مع تقديرنا لسلامة المنطلقات التي صدر منها عمل الباحث الأردني (فلسطيني الأصل) د. فهمي جدعان في كتابه الكبير والمهم «أسس التقدّم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث»، حيث رام أن يتجاوز الحجْر الذي مارسته بعض الدراسات الحديثة على أعمال بعض المفكرين في العالم العربي، وكذلك ما أظهره من قصد في توسيع رقعة الدراسة لكي «تحتضن مفكري المشرق العربي والمغرب العربي علىٰ حدّ سواء» كما يقول، إلّا أنّه عاد ليسقط بما نقد الآخرين به، حين مارس أبشع أنواع الإقصاء والإلغاء على أساس الانتماء المذهبي، فأخرج العراق ـ أعرق بلدان الشرق ـ من خريطة الدراسة باستثناء إشارات لبعض علماء أهل السنة ـ الآلوسي مثالاً ـ ولم يلتفت لما قدّمه علماء الشيعة ومفكروهم في هذا البلد وفي لبنان والحجاز والبحرين ومناطق تواجدهم الأخرىٰ.

والكاتب نفسه عاد ليسقط في الإشكال نفسه في الدراسة التي نشرها بعنوان «نظريات الدولة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر» (نظرية التراث، الأردن، ١٩٨٥، ص ٦١) حينما أراح نفسه بتصنيف السيد محمد باقر الصدر على الإيرانيين واعتبره كاتباً إيرانياً، ثم أهمل كتابات عربية قحة حول نظرية الدولة كتلك التي أنتجها مبكراً وقبل عقود من الآن محمد مهدي شمس الدين (لبنان)، باقر شريف القرشي ومحمد عبد الساعدي ومحمد باقر الصدر (العراق)، وعبد الهادي الفضلي (السعودية)، ومحمد جواد مغنية (لبنان) وغير هؤلاء كثير!

هذه إشارات في مثالين اثنين يعكسان ضرباً مريعاً من ضروب الإقصاء المنهجي والإلغاء على أساس الانتماء المذهبي والجغرافي، وهذه الإشارات تصلح لأن تتحوّل إلىٰ دراسة مستقلة تكشف إسفاف بعض الممارسات الفكرية وضيقها!

أنّها اهتمت بالكثير من الجوانب التفصيلية في فكره، والسرد الواسع في حياته، دون أن تقدر على التقاط الإطار الكلي الذي يضع مطهري في مداره الحقيقي كونه شخصية علمائية إحيائية، تقع على طراز كبار شخصيات الإحياء في العالم الإسلامي خلال مئة عام.

وربما كان التقصير في هذا الجانب يعود إلىٰ قصور العدّة المنهجية والتحليلية للأقلام الإسلامية في التعاطي مع مفكرينا وعلمائنا. فهذا الغياب لم يقتصر على مطهري وحده بل شمل مَن عرَضْنا لأسمائهم فيما سبق، إذ لم توضع شخصيات كالبلاغي وكاشف الغطاء والمظفر والصدر والطباطبائي في مدارها الواقعي، كونها رموزاً فذة وكبيرة في الإحياء الديني، في فكرها وسلوكها. قدمت الكثير اللامع مما تجاوزت به الرموز الأوائل الذين ظهروا قبل مئة عام أو أكثر.

استثني من ذلك دراسة واحدة قدمت رؤية متكاملة وجادّة في هذا الاتجاه، صدرت عن الباحث عبد الكريم سروش، تحت عنوان: «مرتضىٰ مطهري : رمز من رموز الإحياء في العصر الجديد»[٢٠]، ومنهج الباحث في هذه الدراسة، أنّه حدَّد تعريفاً للإحياء انطلق منه، ثم عاد لاستقصاء سُبل الإحياء وكيفياته في ممارسة المحيين[٢١]، وأخيراً استعرض أسماء كبار رموز الإحياء، إلى أن وصل إلى الشهيد

---

(٢٠) يتألف جزءا أهمّ كتاب تكريم صدر عن الشهيد المطهري، من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير (الجزء الأول) و ٢٩١ (الجزء الثاني). ومع ذاك يلاحظ افتقار هذه الصفحات إلىٰ دراسة تضع إنجاز مطهري وشخصيته في مدار إنجازات كبار رموز الإحياء في العالم الإسلامي.

أما دراسة سروش المشار إليها فتنظر في: تفرج صنع (بالفارسية) عبد الكريم سروش، ص٣٦٦ فما بعد.

(٢١) رصَدَ سروش ستة مسارات في سلوك رجال الإحياء الإسلامي وممارستهم، هي:

مطهري، حيث استجمع إنجازه الإحيائي ـ على الصعيد الفكري بالذات ـ في خمسة مكاسب أساسية.

كما أستثني دراسة جادّة أخرىٰ قدّمها وزير الإرشاد الأسبق السيد محمد خاتمي قرأتْ إنجاز مطهري في إطار مفهوم الإحياء الشامل، واجتهدتْ في تقديم فكره في نطاق كبرىٰ قضايا المجتمع، إلىٰ جوار شخصيات بارزة أخرىٰ[٢٢].

منطلقات عريضة في الإحياء

مع مطهري لا نحتاج لتحميل النصوص فوق طاقتها، ولا لممارسة التعسف في تفسيرها، كي ندلل على الطابع الإحيائي في شخصيته، وما يزخر به عطاؤه من فكر النهضة، وتركيز شديد على قضايا النهوض والتجديد، والتغيير والتقدم. فنصوصه تنطق بيسر وتدلل على المقصود بكثافة، وهي من الكثرة بحيث يصعب استيفاؤها في

---

١ ـ تحرير الدين ممّا أصابه من خرافة.
٢ ـ التركيز على المكوّنات الجوهرية للدين التي أُهملت بمرور الزمان.
٣ ـ الاستفادة من أفكار الآخرين الجيدة وإضافتها إلىٰ مسار المعارف الدينية.
٤ ـ التركيز على محورية القرآن.
٥ ـ التعرف على الأفكار الجديدة في عوالم العلم والسياسة والاجتماع، ومحاولة تأسيس بنىٰ دينية لها.
٦ ـ التأصل في مباني الدين ومعارفه ومواجهة الشبهات من خلال هذه الأصالة.
ينظر: تفرج صنع، مصدر سابق، ص٣٦٨.

(٢٢) ينظر: بيم موج (بالفارسية)، سيد محمد خاتمي، طهران مؤسسة سيماي جوان، ص٤٧ ـ ٩٣. وهذا الكتاب يمثّل واحدة من أهمّ القراءات الجادّة لواقع التجربة الإسلامية في إيران بعد مرور عقد ونصف عليها، وذلك انطلاقاً من مجموعة دراسات فكرية عن الإمام الخميني، مرتضى مطهري، محمد باقر الصدر، وفصل ختامي عن أبرز أسئلة الواقع الإسلامي الراهن. وقد نشرت بعض فصوله مترجمة في صحيفة السفير البيروتية.

هذه العجالة.

لنصغي إليه جيداً، وهو يقول نصاً:

«نحن الآن بحاجة أكثر من أي شيء آخر، إلىٰ يقظة.. إلىٰ ثورة دينية وإسلامية.. إلىٰ إحياء للتفكير الديني، نحن بحاجة إلىٰ نهضة تنويرية إسلامية، وفكرنا الديني يجب أن يصلَّح. تفكيرنا حول الدين غلط. أستطيع القول بجرأة: إنّنا إذا تجاوزنا أربع مسائل في الفروع [الرقم كناية عن القلة لا الحصر] وبالذات في العبادات، وعدداً آخر في المعاملات، لا يبقىٰ لدينا فكر صحيح حول الدين»(٢٣).

طبيعي أنّ التصحيح يكون بالإسلام نفسه ومن خلال العودة إليه، لا بنفيه وإهماله، كما تتوهم بعض تيارات الإصلاح في بلادنا.

وبشأن هذه النقطة بالذات، يعبِّر مطهري عن رؤيته في الإصلاح، ويضع علامة فارقة بينه وبين الدكتور علي شريعتي، حين يكتب: «بنظرنا يجب أن تنطلق الإصلاحات من الدين، ومن الأفكار الدينية، بواسطة العلماء المجدِّدين.. يجب أن تنطلق كلّ حركة إصلاحية من متن ثقافتنا الإسلامية، كما هي عليه نظريتنا في بحث (المشكلة الأساسية في المؤسسة الدينية)، و كتاب (المرجعية والعلماء). أما من وجهة نظر الدكتور [شريعتي] فان الإصلاح يجب أن يبدأ من الدين بواسطة المثقف المعاصر..»(٢٤).

وفي نصوص أخرىٰ يتحدّث عن محورية القرآن في حركة الإحياء وممارسة الإصلاح، لنكون بذلك أمام ثلاثية تتسلسل كما يلي: يمثل الإحياء الديني الإسلامي

(٢٣) ده گفتار، مقالة: إحياء فكر ديني (بالفارسية)، مرتضىٰ مطهري، ص١١٨.

(٢٤) أستاد مطهري و روشنفكران (بالفارسية)، ص ٦٠ ـ ٦١.

أهم أولويات عصرنا، القرآن هو محور الإحياء، والعلماء هم جسر هـذا الإحـياء وأدواته.

أما من الوجهة التحليلية فيمكن تلمّس المـدارات التـالية في فكـر مـطهري النهضوي وممارسته الإحيائية :

١ ـ إطلاق صيحة العودة إلىٰ كتاب الله، والاعتماد على القرآن كمحور للإحياء.

٢ ـ تنشيط الاجتهاد والدعوة للإصلاح الحوزوي والمرجعي .

٣ ـ تبني الدعوة إلىٰ تجسير العلاقة بين الحوزة والجامعة أو الفـقيه والمـثقف؛ وعلى نحوٍ آخر: الفقه والحياة، بل قل: الدين والحـياة، عـلى اعـتبار أنّ التـيارين الحوزوي والجامعي، هما ـ في المجتمع الإيراني ـ من أبرز القوى الفكرية المؤثرة في المسار الاجتماعي.

٤ ـ تجديد الفكر الديني وإعادة تأسيس بعض مناهجه، كعلم الكلام.

٥ ـ تحرير طاقة المرأة، فلمطهري كتابان على الأقل حول قضاياها.

٦ ـ محـاربة التـحجر والركـود في الفكـر والمـمارسة مـن جـهة، والالتـقاط والاستلاب من جهة أخرىٰ، والدعوة إلى الانفتاح الفكري والاستنارة العقلية، مع التمييز الدقيق في الحدود الفاصلة بين الاستقلال الفكري والانفتاح الفكري.

٧ ـ التأكيد في الحالة الحضارية للأمة، علىٰ أهمية النمو الاجتماعي وتحرير طاقة المجتمع بما يقود إلىٰ تفتح جميع القابليات ودخولها في مسار النهضة والبناء.

٨ ـ الانفتاح على قضايا المسلمين والتأكيد على وعي خاص للتاريخ يأخـذ بالحسبان أهمية بعض الأحداث كسقوط الأندلس.

٩ ـ تنمية الحس الديني والغيرة الإسلامية وتعميم هـذه الروح بـين العـلماء

والمؤسسات الدينية المسؤولة ـ الحوزة في طليعتها ـ ومحاولة تعميم هذا الحس وتنميته في الوجدان الاجتماعي العام.

إشارات تطبيقية

يصعب علينا تغطية المنطلقات الآنفة على طريقة البحث المنهجي المتكامل، لذلك سنكتفي ببعض التطبيقات من خلال إشارة أو أكثر إلى كلّ مدار من المدارات المذكورة آنفاً، على أن نفرز النقاط الثانية والثالثة والأخيرة، ببحوث مستقلة بها في الفقرات الآتية إن شاء الله.

نبدأ باعتناء مطهري بالقرآن كمنطلق للإحياء ومحور للنهضة. وربما كان مفيداً أن نعود في هذا المجال إلىٰ إشارة منهجية للباحث الإيراني بهاء الدين خرمشاهي، الذي أشار في دراسة له عن الاتجاهات الجديدة في التفسير، أنّ جلّها ـ إن لم يكن كلّها ـ ترتبط برجال الإحياء والنهضة. ودلالة هذه الحالة، أنّه لا معنىٰ للإصلاح الشامل بين المسلمين إلّا بإحياء كتاب الله.

لذلك تجد كبار رجال الإحياء والإصلاح في العصرين الحديث والمعاصر، أعطوا القرآن قسطاً وافراً من جهودهم، وارتبطت بأسمائهم أبرز المحاولات التجديدية في التفسير، على مستوى المنهج والمحتوىٰ.

هذه الملاحظة التي تحولت لدى الباحث خرمشاهي إلىٰ أساس لتأليف كتاب كامل حولها[٢٥]، تجد لها في سلسلة رجال الإحياء والنهضة في العصر الحديث،

---

(٢٥) تفسير وتفاسير جديدة، بهاء الدين خرمشاهي، (بالفارسية)، فصل: العودة إلى القرآن والنهضات الإصلاحية، ص١٥ فما بعد.

الكثير مما يؤكد صحتها.

فللسيد جمال الدين الأفغاني منطلقات في التفسير، وكذلك ارتبطت أسماء محمد عبده والقاسمي ورشيد رضا وابن باديس والطاهر بن عاشور ومحمد جواد البلاغي ومحمود الطالقاني ومحمد باقر الصدر والإمام الخميني ـ وغير هؤلاء كثير ـ بمحاولات جزئية أو شاملة في التفسير، عكست مسعىً تجديدياً على صعيد المنهج والمحتوىٰ.

الأمر لا يختلف مع مطهري الذي يندّ بصيحات متوجعة عن غربة كتاب الله ووقوعه مهجوراً في الوسطين الحوزوي والاجتماعي. وإذا كان مطهري يعتقد أنّ مصير أيّة حركة في الإصلاح الديني سيكون الفشل أو النجاح الضئيل، إذا لم ترتبط بالحوزة (المؤسسة الدينية) أو تتعاون معها على الأقل[٢٦]، فسيكون في طليعة واجبات الحوزة أن تعود بنفسها إلىٰ كتاب الله، وتعنىٰ به وإلّا سيصيبها الفشل في مهمة الإصلاح.

لذلك تراه حين نظر إلىٰ واقع الإغفال الذي تتعامل به المناهج الحوزوية والحوزويون مع القرآن، قال متسائلاً: «إذا كان هذا الجيل يتعامل مع القرآن بهذه الطريقة [من الهجر والإهمال] فهل نتوقع من الجيل الجديد أن يتلو القرآن ويفهمه ويعمل به؟»[٢٧].

وعن طبيعة النظرة السائدة في الحوزة لدارس القرآن والمهتم به (آنذاك) وما تستبطنه من مفارقة مذهلة تحكي عدم دقة المعايير، يكتب مطهري: «ما يحصل في

---

(٢٦) الاجتهاد في الإسلام، الشهيد مطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، ص٣٧.
(٢٧) ده گفتار، مقالة: رهبري نسل جوان (بالفارسية) ص١٩٠.

أهم المدارات الدينية وأكثرها حساسية [الحوزات العلمية] هو أن يواجَه الإنسان الذي يبذل عمره للقرآن بآلاف الصعوبات والمشكلات.. فهو يتعرّض للضائقة في معاشه وحياته، ويصيبه الحرج في شخصيته ومكانته. أما إذا بذل عمره لكتبٍ من قبيل «الكفاية» فستكون له الحظوة وينال كلّ شيء.

وحصيلة مثل هذه الحالة أن ينتهي الأمر إلىٰ أن يكون هناك آلاف الأشخاص يعرفون «الكفاية» من أربعة وجوه. فهم يعرفون الكفاية وردّ الكفاية، وردّ الرد، وأخيراً ردّ ردّ الرد، بيد أنّا لا نعثر على أربعة [كناية عن القلّة لا الحصر] يعرفون القرآن بشكل صحيح»[28].

لهذا كلّه نهضتْ بهذا الرجل همّته المباركة، فألّف في القرآن مباشرة ما لا يقلّ عن كتابين، وانطلق من الرؤية القرآنية المباشرة، في بناء بعض نظريات الفكر الإسلامي، حول الإنسان ـ مثلاً ـ والتاريخ والجنس والمرأة.

ومطهريْ الذي يعتقد أنّ الفكر الإسلامي ـ وإن انطلق صافياً ـ إلّا أنّه أضحىٰ عرضة للتلوّث والتشوّه والانحراف لـ «ملامسته التدريجية للمناهل الفكرية الأخرىٰ، أو بسبب تلاقف الأيدي له على مرّ الأجيال»[29]، يعود ليسجّل أنّ «القرآن الكريم [هو] مقياس عظيم للتقويم أو جهاز تصفية لكلّ الملوثات التي ظهرت ـ في الفكر الإسلامي ـ على مرّ التاريخ»[30].

---

(٢٨) يلاحظ: بحثي دربارهٔ مرجعيت و روحانيت (بالفارسية) وكذلك يراجع: ده گفتار، مقالهٔ: مشكل أساسي در سازمان روحانيت.

(٢٩) الإسلام ومتطلبات العصر، الشهيد مطهري، تعريب علي هاشم، ص٨٨.

(٣٠) المصدر السابق، ص٩٢ ـ ٩٣.

مشروع رؤية في أسباب الانحطاط وعوامل التقدّم

الإحياء إحساس عميق تعيشه الشخصية الإحيائية لواقعها المُعاش، وهمٌّ يملأ عليها وجودها ويدفعها باستمرار لتحليل الواقع بغية الوقوف على علل التخلّف، وترسّم منطلقات النهوض.

ومنذ مئة عام ـ وربما أكثر ـ ما يزال سؤال الأسئلة لجميع رجال الإحياء والنهضة في العالم الإسلامي؛ هو: لماذا تخلّف المسلمون وتقدّم غيرهم، وما هو سبيل المسلمين لتجاوز أوضاعهم؟

وطوال قرن أو أكثر وهذا السؤال ما يزال جديداً لم يقع في صنف الأسئلة المكرّرة، لكونه يتجدّد يومياً، ويفرض نفسه باستمرار، دون أن يفقد معناه وجدواه، إلا بزوال البواعث التي تبرره من واقع حياة المسلمين وما هم فيه.

والشهيد مطهري طرق السؤال، أسوة بغيره من رجال الإحياء والنهضة، وكانت له رؤيته في عوامل الانحطاط، وجهده في ترسّم سُبل التقدم والنهوض.

يكتب في نصٍ كثيف الدلالة علىٰ ذلك: «لستُ أعلم بالدقّة متىٰ واجهت مسألة انحطاط المسلمين؟ ومنذ متىٰ عنيت شخصياً بالبحث والتحقيق فيها، ورحتُ أفكر في مجالها؟ ولكني أستطيع أن أقول جازماً إنّ هذه المسألة كانت ماثلة أمامي منذ أكثر من عشرين عاماً تدعوني إلى التفكير الملحّ حولها، ومطالعة ما يكتبه الآخرون في مجالها».

يضيف: «ومنذ ذلك الحين لحد الآن لم أكن أجد أمامي قولاً أو كتاباً في هذا

الموضوع إلّا قرأته بكلّ شوق أو استمعت اليه بتلهّف، تواقاً لمعرفة رأي المتحدّث أو الكاتب بدقّة».

ثم يذكر أن عدم قناعته التامة بما ذُكر، دفَعه للتعمّق والدقـة في تحـليل هـذه المسألة «ذلك لأن معرفة سبيل إصلاح الأوضـاع الحـاضرة في العـالم الإسـلامي مرتبط بشدّة بمعرفة علل الانحطاط وموجباته التي توفرت في الماضي، أو التي هي قائمة فعلاً».

ثم يخلص بعد مقدّمات: «وهنا انفتحتْ أمامي الأبعاد الواسعة لهـذا البـحث، وعرفتُ أنّه إذا كانت النية على القيام بتحقيق وافٍ علمي حول هذا الموضوع، فإن البحث يجب أن يشمل موضوعات كثيرة، وإن التحقيق فيها كلّها خارج عن إمكانية شخص واحد، أو على الأقل يحتاج إلىٰ سنين من البـحث والتمـحيص. ومـع ذلك صممت ـ كمقدمة لذلك ـ على ذكر البحوث المرتبطة مصنّفة بنحو مختصر، وعـلى التحقيق في بعض الموضوعات كنموذج للبحث وفتح الطريق أمام الآخرين»(٣١).

إنّها دعوة لعمل فكري ـ أعتقد ـ أنّ مبرراته مازالت قائمة في الواقع الإسلامي المعاش.

يستمر مطهري علىٰ مدىٰ (٤١) صفحة ـ هي مـقدّمة الكـتاب ـ في تـصميم خريطة البحث في قضية أسباب انحـطاط المسـلمين، مـؤكداً أنّ البـاحث في هـذا الموضوع، عليه أن يكون شديد الإصغاء إلىٰ ما يقوله الآخرون ـ من غير المسلمين

---

(٣١) الإنسان والقضاء والقدر، مرتضى مطهري، ترجمة محمد علي التسخيري، ص١٥ ـ ١٧. ومقدمة الكتاب التي تقع في (٤١) صفحة تدور بمجموعها حول عوامل الانحطاط، وهي تشبه مع اختلاف الجهة عمل فكري آخر كان قدّمه الشهيد محمد باقر الصدر في مـقدمة كتاب «اقتصادنا».

ـ عن أسباب تخلّف المسلمين، وعليه أن يتناول موضوعه من دون تستر على الحقائق والوقائع ولو كانت مُرّة، وأن يلتزم جانب الوضوح والصراحة مبتعداً عن المجاملة.

وبعد أن يعود لطرح السؤال مجدداً: «كيف عادَ المسلمون بعدَ كل ذلك التقدّم والرقيّ في العلوم والمعارف والصناعات والنظم، القهقرى؟ وما هو ـ أو مَن هو ـ المسؤول عن هذا التقهقر؟»[٣٢]، يعود ليؤكد أنّ الإجابة على السؤال تتطلب ممارسة البحث على عدّة مستويات؛ أهمها:

ـ مستوى البحث الاجتماعي في واقع المسلمين الراهن.

ـ مستوى البحث الفلسفي التأريخي، الذي ينصرف إلىٰ دراسة فلسفة التاريخ، خصوصاً بالبعد الذي يتصل بعوامل ازدهار الحضارات ونموّها، ثم أفولها وسقوطها.

ـ مستوى البحث الفلسفي، الذي يعنىٰ بدراسة حقيقة ما يقال من أنّ بعض الأفكار العقائدية لها دخل في تأخّر المسلمين وانحطاطهم، من قبيل نظامهم الأخلاقي، القضاء والقدر، المعاد، الإيمان بالمهدي، كما يكون أداة لدراسة بعض التيارات الفكرية في حياة المسلمين، مثل الاتجاه الأشعري، المعتزلي والفلسفة والتصوّف.

ـ مستوى البحث التأريخي الذي يعنىٰ بتحليل محطات بارزة في تاريخ المسلمين من قبيل الحروب الصليبية، سقوط الأندلس، حملة المغول والاستعمار الحديث[٣٣].

لم تتح الفرصة لمطهري كي يتناول جميع مفردات الخريطة البحثية المقترحة،

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢١.

(٣٣) ينظر: الإنسان والقضاء والقدر، مصدر سابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

وإنّما قدّم في بعضها دراسات مكتملة، في حين اكتفىٰ في بعضها الآخر بالمحاضرة والمقال، وأحياناً بالإشارة. ومع ذلك، جاءت حصيلة الفكر الإحيائي ـ النهضوي كبيرة فيما تركه.

ففي كتابه المشار إليه تناول مسألة القضاء والقدر، وكيف تحوّلت إلىٰ «مشكلة» في الحياة الفكرية للمسلمين تأريخياً، وإلى التباس في حياتهم الراهنة، دفَع للظنّ أنّها أحد أسباب تخلّف المسلمين وتأخرهم.

وفي إطار تحرير بعض المفاهيم الإسلامية مما أصابها، خصوصاً ما يقع في مكوّنات النظام الأخلاقي الإسلامي، قدّم رؤىً نافذة في مسائل من قبيل الزهد، القناعة، الصبر، الرضا، التسليم والتوكل، مؤكداً أن أوضاع الانحطاط والفهم الخاطئ الذي سادَ المسلمين، هو الذي حوّل هذه العناصر الأخلاقية إلىٰ عوامل تثبيط واستسلام، وإلا فهي بعيدة في محتواها، كلّ البعد عن هذا المنحدر.

نقرأ له عن التوكل نصّاً مثقلاً بالدلالات لما نحن فيه: «يطرح التوكل في آيات القرآن الكريم على شكل مفهوم إحيائي وحماسي..؛ بيدَ أنّكم حين تبحثون عن وضع هذا التوكّل بين أفكار المسلمين اليوم ترونه مفهوماً ميّتاً. فحينما نريد أن نركن إلى السكوت والانزواء وعدم التحرّك؛ وعندما نريد التنصل عن المسؤولية وإلقاءها وراء ظهورنا، نتشبّث بالتوكل بقوّة. وهكذا انقلب مفهوم التوكّل في تصوّرنا رأساً على عقب، ودخل في أذهاننا بعكس ما ورد في القرآن»(٣٤).

المفهوم نفسه يطبقه على الزهد، الذي يرىٰ أنّه يختزن طاقة عظيمة توجّه نحو

---

(٣٤) الحق والباطل، ص ١٢٤، نقلاً عن: «الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظرة العلامة المطهري» ترجمة رعد هادي جبارة، ص ١٥٠.

الإحياء والحماسة والحركة، في حين التبس المفهوم في وعي المسلمين حتىٰ تحوّل إلى الضدّ تماماً. فأصبح علي بن أبي طالب يوصف بالزهد، وقد ملأ ـ وما يزال ـ أزمان المسلمين حضوراً متوهجاً، وعطاءً لا ينقطع، وأصبح الإنسان المتماوت الذي يغطي فشله بعنوان ديني زاهداً أيضاً(٣٥).

كما يلاحظ مطهري في رؤيته الإحيائية، أنّ عصور الانحطاط قصرت معاني تلك المفاهيم ـ بعد أن شوّهتها ـ في نطاق الحياة الفردية، وسلبتْها مدلولها الاجتماعي في حياة المجتمع، وفي حركة الأمة ونهضتها .

في منحىً آخر من مدارات فكره النهضوي، يذهب الشهيد مطهري إلىٰ أنّ أمام الباحث في موضوع إنحطاط المسلمين، ثلاث دوائر، عليه أن يتحرّك من خلالها، هي: الإسلام، المسلمون، والعوامل الخارجية(٣٦).

وجوهر البحث في الدائرة الأولى يعود إلىٰ تصوّر في فلسفة التاريخ والفكر الحضاري يقول: إنّ العامل الذي يكون أساساً في الانطلاقة الحضارية يعود بنفسه، بعد أن يستنفد طاقاته عبر صيرورة الحضارة وبلوغها الذروة، ليكون هو العامل الأساس في سقوطها.

ومعنى ذلك في حال المسلمين، أنّ الإسلام الذي كان منطلقاً لقوّتهم وبلوغهم الحضاري، عاد ليكون ـ منذ عدّة قرون ـ سبباً في ركودهم وانحطاطهم . وبالتالي فإنّ من العبث التفكير بنهوض جديد عبر الإسلام ومن خلاله .

---

(٣٥) يلاحظ المصدر السابق، ص١٥١ . وكذلك : في رحاب نهج البلاغة، مرتضىٰ مطهري، ترجمة هادي اليوسفي، ص١٥٩ فما بعد .

(٣٦) الإنسان والقضاء والقدر، ص٢٥ .

لم يواجه مطهري هذا التصوّر، بحشد الشعارات عن أهلية الإسلام لكلّ عصر ومكان، ولم يجْبه القائلين به بالسّباب والشتيمة، وإنّما توفّر علىٰ تحليل مركبه النظري والتأريخي عبر بحث موسّع، جاء في الجزء الأول منه ـ فلسفة التاريخ ـ فلسفياً، وفي الجزء الثاني إسلامياً اجتماعياً. وكانت الحصيلة هي كتاب من أبرز كتب الشهيد مطهري يقع في مجلدين ويحمل عنوان «الإسلام ومتطلبات العصر»، وذلك بالإضافة إلىٰ عودته لمناقشة هذا التصوّر والردّ عليه في الكثير من مؤلفاته الأخرىٰ، كما فعل ـ بالذات ـ في الفصل الرابع من كتابه «نظام حقوق المرأة في الإسلام»[٣٧].

في البناء الحضاري

جميع ما يدخل في الإحياء والنهضة، له مسيس صلة بالبناء الحضاري للأمة. وفي حالة الشهيد مطهري، نتلمس ـ في فكره ـ وفرة المنطلقات الحضارية التي نفسّرها في ضوء همّه الإحيائي ونشاطه النهضوي.

إنّ العناية بمسائل الهوية والذات وتحديد الموقف من الحضارة الغربية، والاهتمام بالأهداف والغايات، وتحرير الطاقة الإنسانية في إطار نظرة شاملة، والتأكيد على عناصر التخطيط والعقلانية، وتنشيط الطاقات الكامنة في الأمة، والتركيز على النظرة المستقبلية، هذه جميعاً ـ وغيرها ـ هي عناصر أوْلاها الشهيد مطهري عناية خاصة في نشاطه الفكري.

---

(٣٧) نظام حقوق المرأة في الإسلام، الترجمة العربية، الفصل الرابع، بعنوان: الإسلام وتجدّد الحياة، ص٧٣ فما بعد.

ومسألة البناء الحضاري تتلاحم ـ كما أكّدنا ـ مع مسار الإحـياء والنهـضة، وتلتقي أحياناً في القضايا ذاتها.

فقضية إحياء الفكر الديني، والحاجة إلى الإصلاح والتجديد ربما كانت مـن أوائل القضايا التي ترتبط بالبناء الحضاري في فكر الشهيد مطهري.

وإذا كان جلّ الدارسين يربطون انبثاق فكرة الإحياء والتـجديد الديـني في العالم الإسلامي بالأوضاع الحديثة التي أطلّت على المسلمين بعد اكتشافهم للغرب وتعرفهم على تفوّقه، فإنّ مطهري يعتقد أن فكرة الإحياء أصيلة في الحياة الإسلامية ذاتها، وهي قضية داخلية لم تأت المسلمين من خارج فكرهم ومحيطهم، بل إن لها في الفكر الإسلامي نفسه مرتكزات تدلّ عليها .

يكتب : «لقد ظهرتْ فكرة إحياء الدين بين المسـلمين إبـان القـرنين الثـاني والثالث الهجريين (علماً أنّها ظهرت في البداية بـين عـامّة المسـلمين ثم سرتْ إلى الإمامية) لقد ظهرتْ هذه الفكرة عند المسلمين شعوراً مـنهم بـضرورة التـجديد والإصلاح في الدين، حيث تظهر فيه البدع، ويتعرّض إلى البلى والاندثار على مرّ التاريخ، فلابدَّ من التجديد فيه»[٣٨] .

وبالنسبة إلىٰ موقف مطهري بالذات، يقول: «وأنا أتحدّث عن هـذه المـفاهيم لابدّ لي أن أتطرق إلىٰ موضوع يتعلّق بها، وهو موضوع إحياء الدين.. لقد وُفِّقتُ مرة لإلقاء محاضرة حوله بعنوان (إحياء الفكر الديني) وذلك في جلسة دينية كانت تعقد شهرياً، وذكرتُ هناك أنّ الدين ـ كأيّة حقيقة من الحقائق ـ يُصاب بأعراض .. قلت: إن الدين كالماء الذي ينبع من العين الصافية، بيد أنّه يتلوّث بمجرّد جريانه في

---

(٣٨) الإسلام ومتطلبات العصر، ص٢٥٨ .

الأنهار، ويجب تطهيره وتعقيمه من هذه الملوّثات»[٣٩].

ومثلما إنّ الإحياء والتجديد يتمّ بالدين لا بغيره، وبالعودة إليه لا بنفيه، فكذلك البناء الحضاري للأمة.

فالإسلام غير معنيٍّ بالأمور الشكلية، وإنّما معنيٌّ بتحديد الجوهر؛ بتحديد هوية هذه الأمة وإطار شخصيتها الحضارية بإزاء الأمم والحضارات الأخرىٰ. من هنا كانت كلمة الإسلام وموقفه القاطع في التأكيد علىٰ «أنّ ذوبان الشخصية حرام، والشعور بالخوف والاستلاب أمام الآخرين حرام، والتقليد الأعمىٰ لهم حرام.. الذوبان والتلاشي في الآخرين حرام.. الانخداع بالأجانب كانخداع الأرنب بالحيّة حرام. اعتقاد أنَّ الإيراني يجب أن يصبح إفرنجياً جسماً وروحاً وظاهراً وباطناً حرام[٤٠].. والإقامة أربعة أيام في باريس، ثم تبديل مخرج (الراء) بمخرج الغين، وقول (غحتُ) بدلاً من (رحت) حرام»[٤١].

ومن منطلق الفكر الحضاري وكحلقة من حلقات البناء فيه، توفّر مطهري على معالجة موضوع التخلّف ـ التقدّم بالمعنى الحضاري العام الذي يتجاوز الاقتصار على التنمية وحدها، إلىٰ جميع مناحي الحياة والنشاط الإنساني.

ومن الزاوية الحضارية التي تمنح الإسلاميين رؤية خاصة للموضوع، كتب يقول: «لكل مدرسة اجتماعية نظرتها الخاصة إلىٰ أسباب تقدّم المجتمعات وانحطاطها وزوالها. وهذه الأسباب توضّح ـ من جانب آخر ـ نظرة تلك المدرسة إلى المجتمع

---

(٣٩) المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٤٠) هذه الدعوة إلىٰ سلخ إيران عن كلّ ارتباط لها بالإسلام والشرق، هي التي كان يرددها تقي زاده ـ من كبار روّاد التغريب في إيران ـ الذي كان يدعو إلىٰ «غربنة» إيران في كلّ شيء.

(٤١) نظام حقوق المرأة في الإسلام، ص٩٥.

والتأريخ وإلىٰ مسيرة التكامل والهبوط»[٤٢]، أي إلى نشوء الحضارات وسقوطها.

ثم دلف من هذا المدخل إلى استنطاق القرآن الكريم في رؤيته للموضوع، مشيراً إلىٰ ما ذكره كتاب الله من عوامل في التقدم وأخرىٰ في الإنحطاط والسقوط[٤٣].

وإذا كان ما تحتاج إليه الأمة في البناء الحضاري لذاتها والنهضة الشاملة لكيانها، هو منظومة من الفكر ترسم الهدف لحركة الإنسان، وتمنح غايةً لوجوده، وتشدّ الأمة إلى رؤية كونية، فإنّ مطهري وعىٰ هذه الحاجة مباشرة، فتناول الجانب الأوّل الذي يرتبط بهدف الإنسان في بحث مستقل[٤٤]، ثم عاد ليتعمق أكثر في الجانب الثاني المتمثل بوضع الأمة في إطار رؤية كونية تقوم على دعائم ثابتة، كان يُحبُّ أن يطلق عليها اسم «الأيديولوجيا»[٤٥].

وإذا كان مطهري في فكره الإحيائي قد تناول مجموعة من المفاهيم التي اكتسبت في حياة المسلمين وطريقة تفكيرهم معنىً معاكساً تماماً للمراد منها ـ كما رأيناه يتحدّث عن ذلك في بحثه للتوكل والزهد والقضاء والقدر ـ فإنّه قد عاد في الفكر الحضاري لممارسة المحاولة نفسها في قضايا من قبيل الهجرة التي وضعها في إطار حضاري، وإحيائي ـ نهضوي بحيث تبعث في الإنسان الكامنَ من طاقاته،

---

(٤٢) المجتمع والتاريخ، القسم الثاني، تعريب محمد علي آذرشب، فقرة: تقدم المجتمعات وانحطاطها، ص٤٢.

(٤٣) المصدر السابق، ص٤٢ فما بعد.

(٤٤) ينظر: الهدف السامي للحياة الإنسانية، الشهيد مطهري، الترجمة العربية.

(٤٥) تنظر مجموعة دراساته التي قدّمها تحت عنوان: مقدمة إلى النظرة الإسلامية للعالم، وهي تقع في عدّة أجزاء، سبق أن أشرنا في مقدمتنا للكتاب عن بواعث تأليف هذه الدراسات.

وتحرك في الأمة الساكن من قابلياتها.

بهذه النظرة كانت الهجرة في حياة المسلمين الأوائل، أساساً متيناً لأكبر انطلاقة حضارية ليس في حياتهم وحسب، وإنّما في تاريخ العالم ومصير الإنسانية جمعاء[(٤٦)].

والهجرة يجب أن تتحرّك اليوم على الخط نفسه ولا تكون هزيمة وتراجعاً وخذلاناً، ولا انكساراً نفسياً للعاملين وذريعة للانزواء.

بالمنهج نفسه درس مطهري مفهوم الشهادة في الإسلام وموقع الشهيد في الأمة، وأراد للاستشهاد أن يتحوّل إلى حالة بذْل وعطاء عامة في الأمة؛ تساهم كلّما تعمقت فيها في بناء ذاتيتها الحضارية والتقدم نحو نهضتها. وكان الكثير من الذي حصل في إيران إبان أحداث الثورة الإسلامية مديناً لثقافة الشهادة والشهيد هذه[(٤٧)].

وكخصلةٍ لها موقعها الخطير في الفكر الحضاري الإسلامي والإنساني، ألفَت الشهيد مطهري عناية الإسلاميين إلىٰ أهمية التخطيط المستقبلي، وكيف يؤدّي إهمال هذا الجانب في عمل الحركات الإحيائية، إلىٰ إهدار الكثير من الطاقات البشرية. يكتب: «إنَّ التجارب دلّت على أنّ عدم وضوح (البرنامج المستقبلي) لكلّ حركة، أفقدت الكثير من الطاقات البشرية. لذا من الضروري أن تطرح الحركة الإسلامية ـ في إيران ـ البرامج الواضحة، الخالية من الإبهام، حتىٰ يمكن الحؤول دون ضياع

---

(٤٦) تنظر دراسته: الهجرة والجهاد، الترجمة العربية.

(٤٧) يُنظر: شهيد يتحدّث عن الشهيد، تعريب محمد علي آذرشب، والكتاب هو سلسلة أحاديث للشهيد مطهري عن أيام عاشوراء والإمام الحسين (عليه السلام).

الطاقات البشرية»[٤٨].

وما دمنا نتحدّث عن الطاقة الإنسانية، فمن المهم أن نختم هذه الفقرة بدراسة للشهيد مطهري حملتْ عنواناً غير مشجِّع، بيد أنّها أوصل ما يكون بالفكر الحضاري. وأقول بصراحة: إنّي فوجئت بهذه الدراسة التي حملت عنوان «الرشد الإسلامي»[٤٩] واكتشفتها متأخراً. وعنصر المفاجأة يكمن في أن الإسلاميين قلّما يهتمون بهذا النمط من الدراسات التي تتناول تنمية الجهد الإنساني في إطار حضاري مفاهيمي وتطبيقي. وحين قرأت الدراسة ـ التي أنصح الآخرين بالرجوع اليها ـ تراءت لي فيها صورة من بحوث المرحوم مالك بن نبي.

فهي ـ أوّلاً ـ تبحث في التنمية السياسية والاجتماعية للأمة، وتعويد المسلمين على الاهتمام بالمستقبل «فالتأهب لمواجهة المستقبل وقيادته وتوجيهه، هي من مؤشرات التنمية الاجتماعية».

ومواجهة المستقبل للتحكّم به، ليست قضية عبثية، أو هي محض ادّعاء، بل تخضع للتنبؤ «ومن الطبيعي أن التنبؤ العلمي هو الذي يخضع للقوانين العلمية».

ثم يضيف: «والتنبؤ العلمي يعتمد في أساسه على معرفة المؤثرات والعوامل الفاعلة في المرحلة الراهنة ومتطلباتها. فمعرفة الحاضر لها دورها الكبير في القدرة

---

(٤٨) الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، الترجمة العربية، ص٩٧.

(٤٩) وقع الظلم على هذه الدراسة للشهيد مطهري من جهتين على الأقل؛ من جهة أنها طبعت في طي كتاب يحمل عنوان «مقالات اسلامية» ثم اختير لها في الترجمة العربية ـ عنوان يفتقر للجاذبية ولا يدلل على جميع محتوياتها. هذا مضافاً الى عدم الدقة في ترجمة العنوان والوقوع تحت تأثير كلمة «رشد» العربية الأصل المستعملة في الفارسية بمعنى التنمية، والتوهم أنّها في العربية تعطي نفس المعنىٰ في حين انّها ليست كذلك بل معادلها كما ذكرت «النمو أو التنمية» أما الرشد فهي ما يقابل الغي ولا يقصده مطهري البتة

على التنبؤ، إذن فشرط التنمية وعي العصر ومعرفة متطلباته، والذين لا يعرفون عصرهم جيداً لا يمكنهم التنبؤ بالمستقبل، ولا السيطرة عليه وتوجيهه وقيادته»[٥٠].

لقد ضمت هذه الدراسة على وجازتها منطلقات حضارية في الوقت والعمل وفي القابليات الذهنية والطاقات المعنوية والنفسية والإرادية التي يمكن تنميتها في الأمة، وتوظيفها في النهضة والبناء الحضاري.

الشيء المهم الآخر فيها، أنّها دمجت بين المفاهيم وتطبيقاتها، وأتت على أمثلة يومية في حياة المسلمين، تمثّل هدراً دائماً للطاقات، يمكن أن تتحوّل بسهولة إلىٰ خط البناء والنمو.

ومن طريف أمثلته حين يتحدّث عن الكتب والمطبوعات، هو نقده الشديد لبعض ما يكتبه الإسلاميون، فهذا اللون من الكتابات التي تنتج ـ برأيه ـ عن غياب التنظيم في المؤسسة الدينية، بدلاً من أن تؤدي «إلىٰ تنمية الوعي والمعرفة واليقظة، نلاحظ أنّها تقود إلى التخدير والانحراف، وبدلاً من الهداية والتوجيه، تؤدي إلى الضياع والضلال»[٥١].

يبقى أن نشير في الجانب الإحيائي والحضاري، إلىٰ أنّ لمطهري دراسة كاملة في الحركات الإسلامية والتيارات الإصلاحية والتجديدية في العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الهجري. وهذه الدراسة تجمع إلىٰ جانب التقويم والنقد، جانب الإشارة إلىٰ إمكانات الجهاز الحركي في وسط المسلمين الذي يتألف من العلماء

---

(٥٠) مقالات إسلامية، التنمية الإسلامية، ص ٩٤.

(٥١) المصدر السابق، ص ٩٥.

والحركات والاتجاهات الناشطة.

وربما كان من أغنىٰ إشاراتها النقدية، هي العوامل التي يسوقها مطهري في أسباب انحسار الفكر الإصلاحي وأفوله في العالم العربي.

الجمود الفكري

ترتبط الممارسة الفكرية دائماً لدىٰ رجال الإحياء والنهضة، بميول كبيرة للتحرّر الفكري وممارسة النقد ومهاجمة الجمود. ومع الشهيد مطهري نقف في الفكر مع ثلاث مقولات، هي: حرية الفكر، الجمود الفكري، الاستقلال الفكري.

ومطهري ـ كما سبق أن ذكرنا ـ هو داعية كبير لحرية الفكر، مبارز شجاع للجمود، وساعٍ إلى الاستقلال الفكري.

لقد تحدّثنا مطلع هذا البحث عن حرية الفكر، لدى الشهيد مطهري. وبقي الجمود والاستقلال، والمسافة القائمة بينهما.

حين يتحدث مطهري عن واقع الشباب وميله في بلاد المسلمين نحو التغرّب ونبذ الأصالة الشرقية، تراه يعزو أحد أسباب ذلك إلى الجمود. يقول: «ولا تخفىٰ أسباب هذه الحالة وعواملها علىٰ أحد. والذي لا ينبغي كتمانه أنّ الجمود والركود الفكريين اللذين حكما العالم الإسلامي، خلال القرون الأخيرة، وتوقُّف الفقه الإسلامي خاصة عن النمو، وظهور روح الميل والالتفات إلى الماضي، والامتناع عن مواجهة روح العصر، تعدّ من أسباب الهزيمة»(٥٢).

---

(٥٢) ختم النبوّة، الترجمة العربية، ص٤٩.

وفي مكان آخر يتحدّث عن الجمود والجهل كآفتين بارزتين، حيث يكتب: «مرضان خطران يهدّدان الإنسان في هذا المجال، هما الجمود والجهل. عاقبة المرض الأوّل التوقّف والسكون والتخلّف، وعاقبة المرض الثاني السقوط والانحراف. فالجامد ينفر من كلّ جديد ولا يأنس إلا بالقديم، والجاهل يبرِّر كلَّ جديد باسم مقتضيات العصر وباسم التجدّد والرقيّ. الجامد يُعدّ كلَّ جديد فساداً وانحرافاً، والجاهل يحسب كلّ شيءٍ على الحضارة والتقدّم العلمي»(٥٣).

من هذا المنطلق تهاجم كتابات مطهري مظاهر الجمود سواء تمثّلت نفسها فكرياً أم سلوكياً، وسواء تحركت في الماضي أم في الحاضر؛ ولا فرق في صدورها من قِبل أفراد أو مذاهب واتجاهات.

يذكر في صفات الجامد أنّه «لا يفرّق بين البذرة والقشرة، ولا بين الوسيلة والهدف، فالدين في نظره ملزَم بحفظ الآثار القديمة، والقرآن ـ في نظره ـ إنّما نزل من أجل إيقاف حركة التاريخ وتثبيت أوضاع العالم علىٰ ما كانت عليه. وفي نظر الجامد أنّ قراءة جزء «عمّ» والكتابة بالقصبة، واستعمال محفظة قلم من الورق المقوىٰ، والاغتسال في حوض الحمام القديم، وتناول الطعام باليد، واستعمال مصباح نفطي، والعيش في الجهل والأمية، هي شعائر دينية يجب المحافظة عليها. والجاهل علىٰ عكس ذلك، أنظاره مشدودة إلى العالم الغربي يرقب كلّ موضة جديدة ظهرت، ليقوم فوراً بتقليدها وإطلاق اسم الحتمية التاريخية عليها»(٥٤).

وإذا كان من مظاهر الجمود هو السقوط في الشكلية، وتصنيم الأشكال، فإنَّ

---

(٥٣) نظام حقوق المرأة في الإسلام، الترجمة العربية، ص٨٣، الفارسية، ص٨٦.
(٥٤) المصدر السابق، ص٨٣.

الإسلام بريء من هذا المنحىٰ، ويدفع المسلمين إلى الأهداف والمعاني تاركاً للبشر اختيار الطريق والوسائل. وهذه الخصوصية، هي التي ضمنت للإسلام عدم تصادمه «مع مظاهر التقدّم العلمي والحضاري، وسهّلت تطابق هذا الدين مع مقتضيات العصر»[٥٥] مما فتح الطريق للتقدّم أمام المسلمين، لو ساروا عليه.

ومن واقع رفض الجمود الفكري ـ أيّاً كان مصدره ـ اندفع الشهيد مطهري في نقد الاتجاه الأشعري في تاريخ المسلمين وحاضرهم، واعتبار انكسار الاتجاه الاعتزالي وانحساره من أكبر الضربات التي أصابت المسلمين، ثم تحمّس إلىٰ حدٍ اعتقدُ أنّه مبالغ فيه، في نقد الاتجاه الأخباري، وتحميله فوق ما يجب أن يتحمّله من مسؤولية في الوسط الشيعي[٥٦].

وعلى أساس ميل الجيل الثاني من المصلحين ورجال الإحياء، الذي أعقب السيّد جمال الدين الأفغاني، إلىٰ أضيق ما في النهج الأشعري ممثلاً بالوهابية والحنبلية والسلفية المتشدّدة، يفسِّر مطهري ظاهرة انكفاء خطّ الإحياء الديني في العالم العربي، إذ تحولت المعركة ـ كما يقول ـ من «النضال ضدّ الاستعمار والاستبداد، إلى النضال ضدّ العقائد التي تخالف معتقدات الحنابلة خصوصاً ابن تيمية»[٥٧].

---

(٥٥) ختم النبوة، ص ٤٠.

(٥٦) يلاحظ في مهاجمة الأشاعرة وامتداح التحرّر العقلي الاعتزالي: الإنسان والقضاء والقدر، ص١٢٦. كما يلاحظ في نقد الأشاعرة والأخباريين: الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي، ص١٣٨ وأماكن أخرىٰ كثيرة من الكتاب.
اما الأخباريون، فقد ذهب مطهري ـ حسبما أعتقد ـ إلىٰ حدّ المبالغة في نقدهم، يُنظر مثلاً بالإضافة إلىٰ ما ذكر: الإسلام ومتطلبات العصر، الاجتهاد في الإسلام، الاجتهاد وغيرها من كتبه.

(٥٧) الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، ص٥٥.

وفي الاتجاه الذي يتواصل مع رفض الجمود الفكري ومحاربة الكيانات التي تمثله في الحاضر وفي التاريخ، شدّد مطهري ـ في امتداد هذه المسألة، وبما يكون حلقة مكمّلة لها ـ على ضرورة تحلّي الفكر الإسلامي بالعقلانية والتزامه بالنهج الاستدلالي البرهاني، في التعاطي مع أفكار الآخرين.

وفضيلة مطهري، هي جرأته في إبداء الرأي وممارسة النقد وتسمية الأشياء بأسمائها، ففي أحد كتبه لم يتوانَ عن مهاجمة بعض الإسلاميين من الكتّاب العرب لتأثّرهم بالنزعة الأشعرية، حيث ذكر منهم محمد فريد وجدي، وسيّد قطب إلىٰ حدٍّ ما، ومحمد قطب، وأبو الحسن الندوي، ثم كتب نصّاً: «وقد وصل الينا ـ نحن الشيعة ـ شيء من مثل هذا التفكير، وإن بشكل متفاوت»[٥٨].

كما هاجم بعض ما للمسلمين من موروث في الفكر السياسي والاجتماعي، مما لا يدلل على نضج في التعبير عن مواقف الإسلام في هذا المضمار، بل إنّ في هذا الفكر الديني الموروث، شيئاً مما ينظّر للاستبداد ويبرّر فكر الطاعة، ويسبغ الشرعية على «النظريات السياسية المستبدة» التي تلفعت باسم «الله» وادّعت «أنّ الحاكم مسؤول فقط أمام الله لا غير»[٥٩].

فمثل هذا الموروث في الفقه السلطاني والفكر الديني هو الذي ألجأ قطاعات من المجتمع إلىٰ رفض الإيمان والمعتقد الديني ثمناً للقول بحق الأمة.

وفي مواجهة الفكر الآخر ـ حتى المادّي الملحد منه ـ فإنّ دأب مطهري المناداة بممارسة النهج العقلاني القائم على أسس استدلالية، بحيث يبدو الإسلام كمدرسة

---

(٥٨) الدوافع نحو المادية، الترجمة العربية، ص ١١٩.
(٥٩) المصدر السابق، ص ٨٩.

استدلالية يترابط فيها التوحيد والعقيدة مع المجتمع والسياسة[٦٠].

وما دمنا نتحدّث عن الجرأة والصراحة، والصدق في الإصغاء للرأي الآخر، نذكر في هذا المجال مثالاً شاهداً على الحال، ففي حديث له عن الثابت والمتغيّر في الإسلام انجرّ البحث إلىٰ شبلي شميل الذي قام بتعريب «أصل الأنواع» لداروين وقدمه بالعربية مع شرح «بوخنر» الألماني. ذكر مطهري أنّه قرأ لشميل كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء» الصادر باللغة العربية، وأشاد إيجابياً ببعض أفكار الكاتب، مع أنّه سجّل أنّ شميل ماديّ المنهج، علماني الاتجاه، مسيحيّ الدين.

ولا أحسب أن إسلامياً جرؤ سابقاً ويجرؤ الآن علىٰ مدح فكرة واحدة من أفكار شبلي شميل، كما فعل مطهري[٦١].

التطرّف في التجديد

علىٰ قدر حماس مطهري لمحاربة الجمود الفكري ومواجهة نزعات تعطيل العقل، تراه حذراً من السقوط في نزعة التطرّف في التجديد، وإلا فالمشكلة تعود كما هي، إذا كان المقرر أن يخرج المسلمون من الجمود ويسقطون في التجديد المتطرف.

الإحياء الديني يرتبط ـ في نهج مطهري ـ مع عدم مسّ الأصول والمحافظة على الأحكام الإسلامية؛ أي أنَّ المسلمين يحتاجون من رجال الإحياء والنهضة، إلىٰ مخرجٍ «لمشكلات عصرهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية» من دون تفريط

(٦٠) الدوافع نحو المادية، ص١١٧ ـ ١٢١.

(٦١) نظام حقوق المرأة في الإسلام، ص٧٥.

بأصول الإسلام وأحكامه[٦٢].

وعلى هذه الجبهة، حارب مطهري نزعتين، هما أخطر ما يواجهه فكر المسلمين في هذا المجال. النزعة الأولىٰ أسماها «الاجتهاد الحرّ» أو تعويم الاجتهاد، بحيث يغدو ممارسة مفتوحة من دون ضوابط علمية محدّدة. والثانية تتمثل بالانبهار بالعصرية ومحاولة «عصرنة» كلّ شيء في الإسلام، حتىٰ لو كان ذلك علىٰ أساس محتوى الإسلام ومادته.

لا ريب أنّ النزعتين متحمستان أكثر ممّا ينبغي للتحديث والعصرنة. ونزعة الاجتهاد الفكري الحرّ، أو الاجتهاد العائم من دون ضوابط، غالباً ما تصيب أعمال المثقفين المسلمين غير المتأصلين علمياً (العلوم الدينية)، وقد يشار إلى الظاهرة هذه بالالتقاط، وهو نمط من التلفيق المرفوض بين الإسلام وغيره.

يتناول مطهري النزعة الأُولىٰ بقوله: «بعض آخر من الذين لديهم اهتمام بقضايا العصر ويفكرون في آفاق المستقبل، يفرطون بالإسلام بسخاء وكرم ـ مع الأسف ـ فهم يتخذون من متطلبات الزمان والروح العصرية معياراً للحق والباطل. وتحت غطاء «الاجتهاد الحر» نراهم بدلاً من أن يجعلوا الإسلام هو المعيار للحقّ والباطل في زمانهم، يعتبرون المتطلبات والروح العصرية السائدة في عصرهم معياراً للإسلام نفسه. على سبيل المثال هم يرون أنْ لا ضرورة للصداق (مهر المرأة) لأنّه يتنافىٰ وروح العصر؛ وتعدّد الزوجات هو من ذكريات عهد عبودية المرأة ومخلّفاته، وهكذا الحجاب، أما الإجارة والمضاربة والمزارعة فهي من مخلّفات عهد الإقطاع وبقاياه، والحكم الشرعي الكذائي من ذكريات العهد الفلاني،

(٦٢) أستاد مطهري وروشنفكران (بالفارسية)، ص٩٨.

وبما أنّ الإسلام هو دين العقل والاجتهاد، فان الاجتهاد يسمح لنا بإلغاء هذه الأحكام!»[٦٣].

هذه النزعة في ممارسة «الاجتهاد الحرّ» العائم غير المنضبط في إطار أسس علمية ومعايير واضحة، تذكّرنا بما تشهده الساحة العربية اليوم من ممارسات كلّها ـ على تناقضها وتضاربها وشذوذها ـ تأتي تحت مظلّة الاجتهاد، كما هو الحال في دعاوىٰ محمد النويهي ومحمد أحمد خلف الله ومحمد اركون وكثيرين غيرهم.

يعزو مطهري هذه الظاهرة إلى النزعة المفرطة في التجديد، تلك النزعة التي تعود لتعكس نفسها في ظاهرة أخرىٰ لا تقلّ ضرراً عن سالفتها، حيث يكتب: «على أيّة حال، فإنّ النزعة التجديدية المفرطة التي ظهرت لدى الشيعة والسنة على السواء، هي في الحقيقة تعبير عن حشر ما ليس من الإسلام بالإسلام، وإفراغ الإسلام من مضمونه الحقيقي وجوهره، لغرض إضفاء الطابع العصري عليه، وجعله يتناسب ومتطلبات الزمان. وهذه النزعة في التجدّد المفرط هي آفة ومرض كبير يهدّد النهضة، وإنّ من مهامّ القيادة الإسلامية ووظائفها، التصدّي لها ووضع حدّ لها»[٦٤].

ومن نتائج هاتين النزعتين، وكثمرة لهما، ظهرت في بلاد المسلمين «مجموعة من الذين لا يعرفون الإسلام جيّداً، يحاولون الكتابة باسم الإسلام، وهم متأثرون بالفكر الأجنبي، فأخذوا يكتبون عن أخلاق الآخرين (الأخلاق الأجنبية) باسم الأخلاق الإسلامية، ويكتبون أيضاً عن فلسفة التاريخ وفلسفة الدين وعن النبوة

---

(٦٣) الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، ص٩٢.
(٦٤) المصدر السابق، ص٩٣.

والاقتصاد الإسلامي، بأُطر الآخرين ومن خلال مناهجهم، ثم يعرضون ذلك باسم الإسلام»[٦٥].

والذي يذهب إليه مطهري أنّ الوسيلة لمواجهة هذه النزعات لا يكون عبر «الحجر على هذه الأفكار وحظرها» ـ وإلّا هل يمكن منع العطشان من الماء!ـ إنّما يكون بتحمّل الحوزة العلمية لمسؤوليتها في مجال الفكر الإسلامي إذ عليها أن تقدم «للمجتمع القدر الكافي من الكتب في جميع المجالات الإسلامية، بقلم سلس وأسلوب عصري». وهذا لا يكون إلا بأن تدرك الحوزة العلمية مسؤوليتها العلمية والفكرية، وتعيها بدقّة، بحيث يجب عليها من ناحية: «مضاعفة أعمالها العلمية والفكرية إلىٰ عشرة أضعاف ما هي عليه» كما عليها أن تدرك ـ من ناحية ثانية ـ «بأنَّ الانشغال بدروس الفقه والأصول وحدهما، لا يستطيع أن يستجيب لمشاكل الجيل المعاصر»[٦٦].

أخيراً نشير بشأن نزعة التطرف في التجديد، إلى التباسٍ ما يزال يقع فيه بعض الإسلاميين، إذ ما أن يتمّ الحديث عن ضرورات المواكبة والاستجابة لمتطلبات العصر، حتى يُظنّ أن ذلك يجب أن يتمّ على حساب الإسلام، لأنّ المتبادر إلىٰ ذهنه من معنى المواكبة، هي صفة المرونة المطلقة والتغير الدائم في محتوى الإسلام والنظرية الإسلامية نفسها؛ في حين إنّ هذا يعتبر خطأً منهجياً، كما أوضح ذلك رموز كبار في الفكر الإسلامي، وهم يؤكّدون أن الإسلام يتضمّن عناصر ثابتة، وفيه مساحة متغيّرة . والحياة أيضاً فيها عناصر ثابتة ومساحة متغيّرة. وثوابت الإسلام تقابل

---

(٦٥) الحركات الإسلامية، ص ٩٠ .

(٦٦) المصدر السابق، ص ٩٠ ـ ٩١ .

ثوابت الحياة، أما المساحة المتغيّرة فيه، فهي وحدها فقط تكفي لامتصاص متغيّرات الحياة ومواكبة مستحدثاتها على الصعيدين الفقهي والفكري.

يقول الشهيد السيد محمد باقر الصدر بهذا الشأن: «من الخطأ ألف مرّة أن نقول بأن الإسلام يتكيف وفق الزمان» ثم يوضّح ذلك بقوله: «الصيغة النظرية للإسلام صيغة ثابتة فوق التجدّد وفوق التغيير. لابدّ لها هي أن تحكم كلّ عوامل التغيّر، وكلّ عوامل التجدّد، لا أنّ عوامل التجدّد والتغيّر تحكم الرسالة وتحكم الإسلام، بل الإسلام يحكم على كلّ عوامل التجدّد»(٦٧).

الاستقلال الفكري

أحسب أن استيفاء الحديث عن الجمود الفكري فتح المجال واسعاً للحديث عن الاستقلال الفكري. فالاستقلال غير الجمود، والمسافة بينهما غدت واضحة. ونصوص مطهري فيها الشيء الكثير مما يؤكد على الاستقلال الفكري وضرورته للأمة في جميع مراحل وجودها. ومنطلق الحديث لديه أنّ «لكل مجتمع ثقافة، وهذه الثقافة تعبّر عن روح تلك الجماعة»(٦٨). من هنا يمر طريقا النهضة والانكسار كلاهما من قناة الثقافة. فإذا اكتسبت الثقافة طابعاً حيوياً فاعلاً، أصبح بمقدور الجماعة أن تنهض. وإذا ذابت ثقافتها وتلاشت، تكون الجماعة قد خطت خطواتها الأولىٰ نحو الانهيار والضياع.

---

(٦٧) المحنة، محاضرة للشهيد الصدر، ص٧٥ ـ ٧٦. ويشترك مع الشهيد الصدر السيد محمد حسين الطباطبائي والشهيد مطهري في صوغ رؤية متكاملة في الفكر الإسلامي عن الثابت والمتغيّر.

(٦٨) پيرامون انقلاب اسلامي، بالفارسية، ص٤٥.

من هذا الموقع، يتّفق مطهري مع أغلب المفكرين ورجال الإحياء المسلمين، في أنّ الاستعمار يستهدف أوّل ما يستهدف ثقافة الأمة، وأن أخطر أنواع الاستعمار هو الاستعمار الثقافي. يكتب: «لاشك أنّ أخطر أنواع الاستعمار وأكثرها أذىً من بين أشكال الاستعمار، هو الاستعمار الثقافي. وإلا هل يمكن لأمة أن تُستعمر اقتصادياً وسياسياً، من دون أن تُستعمر قبل ذلك فكرياً»(٦٩).

رؤية تتطابق تماماً مع ما كان كتبه الشهيد الصدر قبل ذلك بثلاثة عقود، من أنّ العالم الإسلامي خضع لثلاث تبعيات للغرب؛ أخطرها هي التي أسماها (التبعية في المنهج) وطريقة التفكير»(٧٠).

عاش مطهري بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أقلّ من ثلاثة أشهر، يمكن القول إنّه بذَل خلالها مسعىً كبيراً في التأكيد على الاستقلال الفكري كضمانة لديمومة الانتصار الذي تحقق.

لقد أمضىٰ أيامه وهو قلق من هذه الناحية، ولم يكن يتوانى عن التعبير عن قلقه في جميع جلساته العامة والخاصة، يقول في إحداها: «بسبب عوامل القلق هذه، تراني أؤكّد علىٰ مسألة الاستقلال، وبالذات الاستقلال المبدئي [الفكري والنظري]. فما لم نحقق الاستقلال الثقافي فإن الانكسار سيكون بانتظارنا، وان نحن أسقطنا النظام [البائد] وحتى مع فرض تحقق استقلالنا السياسي والاقتصادي، إذ من دون الاستقلال الثقافي، سوف تواجهنا الهزيمة، ولن تحصد الثورة ثمارها»(٧١).

---

(٦٩) المصدر السابق ، ص ١٦٠ .
(٧٠) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، المقدّمة، ص ٩ .
(٧١) پيرامون إنقلاب اسلامي ، ص ١٦٤ .

خاتمة

مثّلت هذه الأسطر محاولةً أوّلية بسيطة لدراسة شخصياتنا، على نهج يتجاوز الاحتفاء بكلمات التمجيد والتبجيل وذكْر المؤلفات، ويطمح أن يضع هذه الشخصيات في مدارها الواقعي، كونها رموزاً ريادية لم يقتصر إنجازها على مدّ وعي الأمة بالفكر، وإنّما تركتْ في وجودها بصمات مؤثرة.

وزبدة هذه المحاولة يتمثل بالنظر إلىٰ هذه الرموز الريادية كونها شخصيات كبيرة في خطّ الإحياء الذي عمَّ العالم الإسلامي مُنذ أكثر من مئة عام، وبالتالي فإنّ همّة الباحث تنصرف إلى استقصاء معالم الفكر الإحيائي والنهضوي في فكر هؤلاء، واكتشاف نظرياتهم في أبرز قضايا الأمة ومشكلاتها الحضارية.

من مزايا هذا المنهج أنه يوفّر للأمة فرصاً أوفر في التعامل الخصب مع فكر أولئك وإنجازاتهم، وهو يمنح الحيوية لفكرهم بعد أن يصوغه على شكل نظريات إزاء قضايا الواقع.

كما إنّه يكسر الحصار المنهجي المفروض على رجالنا، ويتجاوز الإقصاء والإلغاء الذي يمارَس ضدّهم على أساس الانتماء المذهبي.

وهذه المحاولة هي حلقة في طموح يراودني منذ سنوات للعودة إلى الوراء، وإعادة كتابة تأريخ رجالنا بهذا الاتجاه. ومن الأسماء التي تلامس هذا الطموح وتلحّ عليه: محمد جواد البلاغي، هبة الدين الشهرستاني، عبد الحسين شرف الدين، محسن الأمين العاملي، محمد حسين كاشف الغطاء، محمد رضا المظفر، الميرزا النائيني، محمود الطالقاني، محمد باقر الصدر، محمد حسين الطباطبائي، مرتضى مطهري، محمد جواد مغنية وأسماء أخرىٰ بعضهم من الأحياء أطال الله في أعمارهم.

يبقى أن نجدّد الإشارة بشأن الشهيد المطهري بالذات، إلىٰ أن باحثاً إيرانياً

درس مطهري في إطار هذا المنهج، وعدَّه حلقة في سلسلة رجال الإحياء؛ جاء إنجازه في امتداد إنجازات الأفغاني، وعبده، ورشيد رضا، وإقبال، ثم الطالقاني، وبازركان، وشريعتي.

وجِزمر ما خلُصت إليه هذه الدراسة أنّ إنجاز مطهري كرائد من روّاد الإحياء الإسلامي تمثل بالعناصر التالية:

أوّلاً : تحرير الدين من الخرافة .

ثانياً : بناء منظورات إسلامية للقضايا المعاصرة انطلاقاً من مباني الإسلام نفسه. فعل ذلك في الفلسفة والكلام والنظام الحقوقي، وفي دراسة التاريخ الإسلامي.

وكان في كل ذلك ينصب العقل معياراً في الممارسة الفكرية، تحليلاً ونقداً.

ثالثاً : مواجهة الشبهات التي تحاصر المسلمين وتضغط على عقولهم وتهدّد وعيهم، سواء أكانت شبهات قديمة موروثة، أم جديدة طارئة أطلّت على العالم الإسلامي بتأثير الثقافة الغربية والمتغربين.

رابعاً : انفتاحه على العرفان الإسلامي، ودرايته النظرية به، ثم دفاعه عن رموز العرفان.

والعرفان الذي آمن به مطهري ودافع عنه، لم يكن يمرح بلا حدود ولا قيود، بل دافع مطهري عن العرفان المستهدي بضياء القرآن ونهج البلاغة.

خامساً : امتاز مطهري بعقل سؤول ، لا يجمد على المتوارث والموجود، بل يحرّر رؤاه بالسؤال تلو الآخر، وبتجاوز سطح الظواهر والأفكار إلى عمقها وجذورها(١).

---

(١) مرتضى مطهري إحياء كننده‌اي در عصر جديد، عبد الكريم سروش، تفرج صنع (بالفارسية)، ص٣٦٦ ـ ٣٩٥. وقد كان بودّنا أن نقدم هذه الدراسة مترجمة، لولا طولها.

الفقيه ـ المثقف
خلفية الأزمة وتأسيس الحل

يحمل البحث في موضوع المثقف والنخبة المثقفة في إيران عناصر مشتركة أساسية مع نظيره السائد في العالم العربي، ويتميّز عليه ـ إلى جوار ذلك ـ بعلامة فارقة كبيرة تختص بهذا البلد، وتطبع الحياة الفكرية والثقافية فيه ببصماتها.

مدارات النقاش في الساحة العربية تتحرّك في أربعة مجالات عامة[1]، هي:

١ ـ النشأة، وما ترمي به خلفية تكوين المثقف والنخبة المثقفة من ظلال على المسار الفكري والثقافي.

---

(١) أنجزتُ دراسة في هذا المجال نُشِرَ جزءٌ منها بعنوان: «المثقفون في مجتمعاتنا: خلفية النشأة والموقف من السلطة والمجتمع» ، مجلة الوحدة، طهران، العدد (١٥٨) أيلول / ١٩٩٣.

وكتحليل تأريخي ـ اجتماعي لنشأة المثقف في البلاد العربية وتبلور مواقفه الاجتماعية ومواقعه من السلطة والغرب يُنظر: المثقفون العرب والغرب، هشام شرّابي، دار النهار، بيروت ١٩٧٨.

٢ ـ الموقف من المجتمع، ويندرج في ضمنه الموقف من الإسلام، وقضايا الهوية والذات والاستقلال الفكري.

٣ ـ الموقف من السلطة.

٤ ـ الموقف من الغرب.

أما في إيران فيدخل، بالإضافة إلىٰ هذه العناصر، مدارٌ آخر يُشار إليه ـ تلخيصاً ـ بطبيعة العلاقة بين الفقيه والمثقف، كما قد تندرج أحياناً ضمن «طبيعة العلاقة بين الحوزة والجامعة».

ومن الخطأ أن نتصوّر أنّ ظهور المدار الجديد في قضية المثقف داخل المجتمع الإيراني، يعود إلىٰ مسألة نظرية طارئة، أو أنّها تخضع لمنهج خاص في الدراسة، بل هي قضية عملية تجد دواعيها في البنية الاجتماعية والتأريخية للبلد، ولدور الإسلام فيه، بل لنقل ـ على وجه الدقّة والوضوح ـ لدور التشيّع فيه.

فالمجتمعات العربية تشترك جميعها مع المجتمع الإيراني بالانتماء للإسلام، بيد أنّها لم تعش مشكلة من هذا القبيل، والسبب العميق يعود إلىٰ ما خلف البنية الاجتماعية، متمثلاً بموقع وتأثير وتغلغل التشيّع في هذا المجتمع، وبالتالي تحلّي مؤسساته (التشيّع) ـ وفي الطليعة منها مؤسسة الحوزة العلمية ـ بدور كبير في بناء وتوجيه المجتمع.

تأريخ النخبة المثقفة الإيرانية، التي وُلدت في النصف الثاني من العصر القاجاري، لا يكاد يختلف كثيراً عن تاريخها في البلاد العربية، وفي بقية بلاد المسلمين، باستثناء المسار المشار إليه، الآتي أساساً ـ فيما نعتقد ـ من الخصوصية الشيعية للمجتمع الإيراني، والقابل لأن يتكرّر في أي مجتمع إسلامي ـ عربي او غير عربي ـ يحمل الخصوصية ذاتها.

حين ننظر إلى القضية من هذه الزاوية نعرف أنّ السجال المكثف الذي شهده المجتمع الإيراني منذ انتصار الثورة الإسلامية ـ وما يزال ـ حول طبيعة العلاقة بين الفقيه والمثقف، وبين الحوزة والجامعة، لا يعكس موضوعاً طارئاً من المواضيع المستجدة، وإنما أكسبته الثورة وما رافقها من تحولات فكرية واجتماعية، أبعاداً جديدة.

ربما كانت البداية الحقيقية الجادّة التي فجّرت القضية ودفعت بها كمشكلة كبيرة في الحياة الإيرانية المعاصرة، تعود إلى الحركة الدستورية أو ما يُطلق عليها بثورة المشروطة (١٩٠٦) ففي ظلال أحداث هذه الحركة، شهد المجتمع الإيراني انشطار القوى المؤثرة في الحياة السياسية والاجتماعية إلى علماء ومثقفين أو «منوّر الفكرها» [أي منوّرو الفكر] بحسب الاصطلاح الإيراني الشائع، وذلك على أساس البطانة الفكرية والعلمية ـ وبصيغة أدقّ: الآيديولوجية ـ لكل فئة من هاتين الفئتين.

الحدّ التأريخي الآخر الذي فجّر الأزمة مجدداً وعمّقها أكثر، يعود إلىٰ عهد رضا خان وسقوط هذا العهد في واقعة ٢٠ / شهريور (١٩٤١) المعروفة في التاريخ السياسي الإيراني المعاصر، فيما جاء الحدّ الثالث مقترناً بانتصار الثورة الإسلامية نفسها.

من الطبيعي أن تختلف القراءة باختلاف المناهج والانتماءات الفكرية (الأيديولوجية؛ بتعبير أدق) والمواقع الاجتماعية والاقتصادية. وباختلاف القراءات تختلف النتائج من باحث إلىٰ آخر، وتتفاوت المحصلة من اتجاه إلى اتجاه.

ما يعنينا من هذه القراءات المتفاوتة، القراءة التي قدّمها الصف الإسلامي عبر رموزه من علماء ومثقفين، حيث تشتهر في هذا السياق رؤى السيد محمود الطالقاني

والمهندس مهدي بازرگان والدكتور علي شريعتي والشهيد مرتضىٰ مطهري والسيد محمد حسين الطباطبائي والإمام الخميني.

أهمية قراءات هؤلاء أنّها لم تقتصر على التحليل، بل تجاوزت ظاهرة الحالة الملتبسة التي اتسمت بها علاقة المثقف بالفقيه والحوزة بالجامعة، إلىٰ وضع الحلول وسبل تجاوز حالة النفي والقطيعة والإقصاء الناتجة عن علاقة الالتباس، إلىٰ دفع الفئتين في سياق دور ثقافي ـ اجتماعي متكامل، من دون أن تعني وحدة الهدف اتفاقَ الجميع في أدوات التحليل وصيغه، كما في دور كلّ فئة من الفئتين ومكانتها[٢].

وإذا كانت الأسماء المشار إليها قد ساهمت في المسألة قبل إنتصار الثورة الإسلامية، فإنّ وضع ما بعد الثورة لم يستغن عن مساهماتها ورؤاها، ولم يتجاوزها حتى الآن، وإن كانت الساحة قد شهدتْ مساهمات جديدة، وأسماء أخرىٰ أطلّت عليها.

لقد كان لمطهري مشاركة فعّالة في تجاوز العلاقة الملتبسة بين الفئتين، وإعادة تجسير الصلة بين الفقيه والمثقف، والحوزة والجامعة، ومازالت جهوده تسجّل حضورها حتىٰ الساعة. فقد أمضىٰ ردحاً من حياته في الحوزة العلمية، ثم انتقل إلى الجامعة ومكث أستاذاً فيها عشرين عاماً أو تزيد، كما أنّ نشاطه الفكري كان يصبّ

---

(٢) مررْنا على العلاقة التاريخية الملتبسة بين هاتين الفئتين وما يستشرف من صيغ حلول ترمي إلى تجسير العلاقة بينهما في إطار دور علمي ـ اجتماعي متكامل، من خلال المقالين التاليين:

ـ إشكالية العلاقة بين الحوزة والجامعة: قراءة في الأبعاد التاريخية والمعرفية والايديولوجية، خالد توفيق، كيهان العربي، ١٧ تشرين الثاني / ١٩٩٥.

ـ الحوزة والجامعة: العلاقة الملتبسة تاريخياً وآفاق الوحدة في الحاضر، خالد توفيق، كيهان العربي، ٣٠ تشرين الأول / ١٩٩٥.

بهذا الاتجاه.

والذي نروم إليه في هذا البحث، أن نحيط بمعالم دور الشهيد مطهري في هذه الدائرة، ولكن في سياق خط يهيئ لنا مرتكزات الفكرة، ويسهّل استيعاب عناصرها العامّة، كما يشير إلىٰ آخر معطيات الساحة الفكرية الإيرانية حولها.

التحليل الاجتماعي لظاهرة الرفض

نبدأ بالركن الأول من القضية المتمثل بوجود تيار داخل الحياة الثقافية الإيرانية يهاجم النخب المثقفة دون تمييز. وهذا التيار المهاجم ينطلق من الخلفية التاريخية للنخب المثقفة في البلد، حيث ارتبط دور هذه النُخَب في نشأتها وتأسيسها بعاملين لا مجال لإنكارهما[٣]، هما:

العامل الأول: ارتباط نشأتها بالسياق التأسيسي لولادة مثيلتها في الغرب. إذ حاولت النخبة المثقفة في إيران التي تكونت ككتلة نخبوية في النصف الثاني من العهد القاجاري، وترسّخت مكانتها أواخره، أن تكون صدىً وامتداداً للنخبة المتنوّرة (نسبة إلىٰ ما يطلق عليه بعصر الأنوار) في أوربا[٤].

---

(٣) ينظر في هذا المجال: د. عبد الهادي حائري: أولى المواجهات بين ايران والغرب (بالفارسية) نشر أمير كبير، طهران. ربما يعدّ هذا الكتاب الذي يقع في (٦٣٥) صفحة من القطع الكبير أهمّ دراسة تحليلية في متابعة المواقف التي اتخذت في الساحة الإيرانية إزاء طلائع الثقافة الغربية الوافدة، وهو من هذه الزاوية وثيقة شاملة تستقصي التيارات المختلفة التي رافقت نفوذ الفكر الغربي إلىٰ إيران باتجاهاته المختلفة، خلال ما يُطلق عليه بالعصور الحديثة.

(٤) ينظر بالإضافة إلىٰ كتاب عبد الهادي حائري المرجعي، محاولة صدرت للتوّ، تتسم باليسر

فليس من باب المصادفة أو التحميل أن تُطلِق الكتابات النـقدية عـلىٰ هـذه النخبة وصف «مُنَوَّر الفكرها» كناية عن شدّة ارتباطها بالمنشأ الأوربي[1].

العامل الثاني: طبيعة المنهج الذي قامت الثورة الإسلامية عليه وانتصرت على أساسه. فقد كانت في إيران عشية الثورة نخبٌ ثقافية تنتمي إلىٰ مختلف الاتجاهات ـ وإلىٰ قوىٰ اليسار بالذات ـ بيدَ أنَّ الذي حصل هو أنّ الجمهور ألغىٰ في حماسه وشدّة اندفاعه وكثافة حضوره دورَ النخب، بحيث انتصرت الثورة دونما حاجة إلىٰ وسيط فكري أو عضوي متمثل بنخبة أو حزب.

وبين الخلفية التاريخية السلبية للنخب المثقفة في نشأتها ودورهـا، وافـتقارها للدور الفاعل في أحداث الثورة[2]، امتلأ الوعي العام بشعور فكري ونفسي مستغنٍ

= والسهولة، وهي تتابع بأسلوب صحفي بدايات النخبة في إيران، من خلال كتاب: تهاجم فرهنگي ونقش تأريخي روشنفكران، مؤسسة كيهان، إسماعيل شفيعي سروستاني.
وبشأن هذا الكتاب يراجع مقالنا: الغزو الثقافي والدور التأريخي للمثقفين في إيران، كيهان العربي، ٧أيار / ١٩٩٤.

(١) برز دور هذه النخبة في الجانب السياسي عبر الحركة الدستورية التي انطلقت عام ١٩٠٦ (ثورة المشروطة). وبشأن دورها ينظر:
ـ ريشه‌هاي فكري مشروطيت در إيران [الجذور الفكرية للحركة الدستورية في إيران] في كتاب: تشيع ومشروطيت در إيران، عبد الهادي حائري، ص ١١ فما بعد.
ـ مقدمۀ فكري نهضت مشروطيت [الأساس الفكري للحركة الدستورية] علي أكبر ولايتي، وذلك قبل أن تبتلعه مهمات العمل في وزارة الخارجية.

(٢) بشأن مأزق النخب الثقافية عشية الثورة وإبان انتصارها ـ وبالذات مأزق النخب اليسارية ـ ينظر الحوار المهم والشامل مع د. جنگيز بهلوان، مجلة كيان، العدد ١٣، السنة الثالثة.
ففي هذا الحوار ثمة لمحات دقيقة في بيان ازدواجة النخبة وموقفها غير المفهوم من الثورة وجماهيرها، منها: إنّها لم تستطع أن ترفض الثورة لأنّها ـ النخبة اليسارية بالذات ـ كـانت تطالب بالتغيير، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ لم تؤيدها لأنّها لم تشترك في إيجادها من جهة، =

عن النخب الثقافية والتنظيمات الحزبية معاً.

ومع ذلك ينبغي أن لا نتصوّر أنّ التيار الرافض للنخب ولدور المثقف يخضع لإيحاءات إجمالية سلبية تُغذّيها ذاكرة شعبية تحمل أسوأ التصورات عن خلفية النخبة ودورها التأريخي، بل هناك أيضاً تحليلات اجتماعية وفكرية تنطوي على عناصر نافذة، وإن كان بعضها يمكن أن يخضع لنقد جزئي أو كلّي.

والذي يلاحَظ أنّ الأقلام الإسلامية ساهمتْ في بناء هذه الرؤية النقدية ذات الطابع الاجتماعي ـ الفكري إلىٰ جوار بقية الأقلام والاتجاهات، وكان من بين المساهمين الشهيد مطهري.

يكتب أحد الدارسين المعاصرين فقرة لها دلالتها اجتماعياً في مضمار تحليل موقف الرفض لظاهرة المثقف رمزاً، والمثقفين تياراً، إذ يقول: «تُحاط كلمة (المثقف) في مجتمعنا المعاصر، خصوصاً بعد الثورة الإسلامية، بصدىً مذموم، وكأنّ الذي يريد أن يتحدّث عن الاتجاه الثقافي المرتبط بالمثقفين إنّما يريد أن يؤسس لموقع جديد يكون في مقابل الدين والعلماء. طبيعي أن هذه الشبهة لم تأتِ من فراغ ومن دون دليل تأريخي يعضدها، فالنهضة الثقافية للنخب المثقفة ارتبطت في الغرب، بمواجهة العلماء بشكل علني ومباشر، وانطلقت أحياناً لتكون ضدّ الدين وفي مواجهته. وقد اكتسب مثقفونا حظّاً وافراً من هذا الميراث الغربي، مما قاد إلى أن تتسم النظرة للمثقفين بعدم التعاطف إجمالاً، من قبل أهل الديانة، ثم ازدادت نظرة

= ولكونها قامت علىٰ أساس ديني وطني من جهة ثانية.

في هذا اللقاء يتحدّث د. بهلوان عن موت هذه النخب وتلاشيها، وانبثاق نخبة جديدة مكانها تحاول أن يكون لها دور في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلد خصوصاً في عهد الإعمار وإعادة البناء.

الشك وعدم التعاطف في مجتمعنا بعد الثورة..، حتىٰ لم يعد يستساغ وجود المثقفين وحضورهم بسبب الخلفية التأريخية، بل أخذ المجتمع يلفظ المثقف سواء أكانَ دينياً أم غير ديني»[٧].

يشير هذا النص الوافي ـ كما غيره من نصوص الباحثين الآخرين ـ إلى القضية التي راحت ترمي بظلالها على مسار المثقفين عموماً، فالمثقف كرمز والمثقفون كطبقة، راحوا يحملون عبء تلك الخلفية التي ترافقت مع انبثاق النخب الأولىٰ قبل أكثر من قرن ونصف[٨].

فتلك النخب فتحت عينيها وهي تنظر إلى الغرب كمنقذ وملهم، بحيث لم ترض في جلّها بأقل من الالتحاق المطلق بعجلته، ولم تعتنِ مطلقاً بمقولات الهوية الخاصة للثقافة والمجتمع، ومايزال تأريخ تلك النخب يحتفظ بشيء غير قليل ممّا له دلالة على هذه الدعوة للانسلاخ من الهوية، ونبذ الخصوصية وإعادة بناء الذات في إطار الغرب ومن خلاله.

النصوص كثيرة، وربما كان أكثرها رنيناً بالذاكرة ـ حتىٰ أنّه يستعصي على النسيان ـ هو نصّ السيد حسن تقي زادة، الذي بدأ حياته في أسرة دينية علمائية، وتلقىٰ بنفسه العلوم الحوزوية وقطع فيها شوطاً كبيراً، ثم عاد ـ بعد أن خلع العمامة ـ ليضع كلّ شيء جانباً ويعلن دعوته للتغريب التي يلخصها قوله: يجب على إيران أن

---

(٧) رازداني وروشنفكري وديندارى [الكتاب بحث في العلاقة بين الحكيم والمثقف والمتدين يطلّ عليه من خلال العلاقة بين الحكمة والثقافة والتدين]، عبد الكريم سروش، ص٢.

(٨) ينظر بشأن هذه النقطة: ملف النخب الثقافية في إيران، خلفية الظاهرة وعناصر الرفض الاجتماعي لها، خالد توفيق، كيهان العربي، ٢٥ أيلول / ١٩٩٥.

تتغرّب في كلّ شيء، ظاهراً وباطناً، حتىٰ تلتحق بركب الحضارة[٩]!

لقد سلك «ملكم خان» الرائد الأكبر للتغريب في إيران، هذا الطريق من قناة التجديد الديني والمذهبي، وكذلك فعل كسروي؛ أما تقي زادة فلم يوارب أبداً في الدعوة إلى التغريب صريحاً، تبعه في ذلك بقية رموز هذه النخبة من أمثال فتح علي آخوند زادة، عبد الرحيم طالبوف، زين العابدين مراغَئي، أبو القاسم لاهوتي وغيرهم[١٠].

مشكلة الالتقاط

تطرح مسألة الالتقاط الفكري في الساحة الإيرانية بوصفها واحدة من أهم المعضلات. ومن بين مشكلات هذه المسألة هو عدم الاتفاق على تعريف أو مفهوم محدّد للالتقاط، وإن كان المفاد العام يميل في تحديد المراد من هذه المشكلة إلى رمي المثقف عامة بعدم الأصالة؛ ووصْف المثقف الديني خاصة بعدم وعيه الكافي للأصول الإسلامية على مستوى العقيدة والفروع والمفاهيم، من مصادرها الأصيلة.

والذي يغذّي هذه المشكلة ويجعلها تتضخم باستمرار، هي الشواهد التي نعثر

(٩) ولد السيد تقي زادة سنة ١٨٧٨ وتوفي سنة ١٩٦٩، يعدّ من أبرز روّاد التغريب في إيران، يلي في الأهمية «ملكم خان» ، طُبع من آثاره حتى الآن (١٢ مجلداً) وربما كانت أفضل نافذة على حياته هي مذكراته التي صدرت أخيراً تحت عنوان: زندگي طوفاني [حياة عاصفة] خاطرات سيد حسن تقي زادة، (٩٩٤) صفحة من القطع الكبير .

(١٠) عن دور هؤلاء ينظر: روشنفكران وجنبش مشروطيت ، في كتاب مهدي أنصاري: شيخ فضل الله نوري ومشروطيت، ص٩٧ فما بعد، كذلك ص ٣٧ .

أما كنقد عام فيمكن مراجعة: شمهاي از تاريخ غربزدگي ما [إضمامة أو نبذة من تأريخنا التغريبي] رضا داوري، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ بالتقويم الفارسي.

عليها من أعمال المثقفين الإسلاميين، إذ يسهل للدارس أن يلمس في أعمال هؤلاء ما يؤكد هذا المنحىٰ. ويبدو لنا أنّها تعود بالتحليل التأريخي إلى المنشأ الاجتماعي للنخب المثقفة في إيران، وفي التحليل المنهجي إلى التلقّي الفكري ـ الثقافي.

فمن الوجهة التأريخية، لا ننتظر من هذه النخب التي ولدت وهي بمثابة صدىً لمثيلاتها في الغرب، أن تعبّر عن أصالة الثقافة الاجتماعية لبلدها، خصوصاً وإنّها لم تستحق لقبها كنخبة مثقفة إلا بتعرفها بهذه الدرجة أو تلك على ثقافة الغرب، وتنصلها بنفس القدر عن ثقافتها الوطنية.

أما المثقف الديني، فهو وإن كان يقفز علىٰ سياق النشأة التأريخية للنخبة المتغربة ويتجاوزه، إلا أنّه يكون عرضة للالتقاط من الوجهة المنهجية على أساس المهمة التي يريد أن ينهض بها. فالمثقف الديني يتحرّك في الساحة وليس لديه مشكلة نظرية مع الإسلام، بل هو ينطلق من الإسلام وعلىٰ قاعدة الدفاع العقلاني عنه، وهنا يكون عرضة للسقوط في هوة الالتقاط.

فرسالة المثقف الديني والمهمة التي يطمح بتحقيقها، تتمثل ـ في واحدٍ من أهم أبعادها ـ بالتوفيق بين الفكر الإسلامي والمعرفة العصرية من خلال أطروحة الدفاع العقلاني عن الدين. هذه الرسالة وهذا الطموح هما اللذان يوقعان المثقف الإسلامي في مشكلة الالتقاط. فمنطق التوفيق يستلزم بذاته ـ في هذه المواطن ـ الدخول بمساومة، فلا توفيق بلا مساومة ولا مساومة بلا تنازل.

هذا جانب من المشكلة، أما الجانب الآخر فهو يتمثّل بالأدوات التي يحملها المثقف، إذ غالباً ما نجده متمكناً من الثقافة العصرية وليس له من المعرفة بالإسلام إلا النزر القليل. وممارسة التوفيق انطلاقاً من أدوات تميل سلفاً إلىٰ جانب الثقافة

المعاصرة، سيجعل المصالحة بين الفكر الإسلامي والمعرفة العصرية، تأتي في الغالب على حساب الفكر الإسلامي نفسه.

هذه المشكلة كانت وما تزال مشهودة في الأوساط الاجتماعية التي ينشأ المثقف الديني على أرضها، إذ تجد هذه الفئة على الأغلب تحمل ثقافة واسعة بالفكر المعاصر رموزاً وتيارات وقضايا، في حين تفتقد مثل هذا الاطلاع والمعرفة بالإسلام نفسه؛ وتفتقد أيضاً الأداة التي تمكّنها من التعاطي اجتهادياً (فقهياً وفكرياً) مع الإسلام لاستلهام رؤاه الفكرية والتشريعية والعقيدية.

فالالتقاط إذن، هو مشكلة تبسط بظلالها على أجواء المثقفين، وهي تعلَّل تارة على أساس تأريخي يعود إلىٰ نشأة النخبة المثقفة، وتارة أخرىٰ على أساس منهجي يعود إلىٰ طبيعة الهدف الذي يطمح المثقف الديني أن يحققه.

انتبه مطهري لهذه المشكلة جيّداً والتزم طريقة في الحل سنشير إليها لاحقاً، بيدَ أنّ البديع في الأمر أنّه لم يقف عليها، بل انتبه إلى الوجه الآخر الذي ينشأ في الطرف الثاني المتمثل بالحوزة والوسط العلمائي. فبقدر ما تكون الفئة المثقفة عرضة للالتقاط(١١)، فإنّ الوسط الحوزوي هو الآخر عرضة لداء التحجر وضيق الأفق

(١١) ثمّة في آثار الشهيد مطهري إشارات نقدية واسعة لأعمال المثقفين الإسلاميين. والنقد في هذا المجال ينطلق من موقع الحرص ويهدف إلى التصحيح، كما فعل مطهري ذلك مع محمد إقبال ومهدي بازركان وعلي شريعتي وغيرهم. ينظر: أستاد مطهري وروشنفكران، الطبعة الثالثة ١٩٩٥.
بيدَ أنّ هناك من القراءات ما تهدف إلىٰ توظيف نقد مطهري لأغراض آيديولوجية وأحياناً سياسية، غافلاً عن أن مطهري كان بصدد حل مشكلة فكرية ـ اجتماعية، ولم يكن يهدف إلى الإلغاء.

والانغلاق الفكري[١٢].

حل هذا المعضل الفكري ـ الاجتماعي لا يكون بتأزيم قضية المثقف الإسلامي وشدّه ضدّ الحوزة، كما لا يكون بدفع الحوزة للدخول في أزمة مع المـثقفين. الشـدّ والتأزيم وتسعير نار الفتنة بين الطرفين لا يكون حلاًّ، كما أنّ الإلغاء لا يحل المشكلة أيضاً، بل يعود بأفدح الأضرار على البناء الاجتماعي والمسار الفكري، وإنما يكمن الحل ـ كما سنراه مع مطهري ـ بإعادة تأسيس العلاقة بين الطرفين، على أساس أن يتمتع كلّ منهما بمشروعية وجوده ودوره في إطار الدائرة التي يعمل بها[١٣].

آل أحمد وتعميق أزمة المثقف

لا أحد يسعه أن يمر على المشهد الثقافي في إيران خلال العقود الأخيرة، مـن دون أن يقف عند المرحوم جلال آل أحمد. فجلال الذي انحدر من عائلة علمائية، مال مبكراً ـ كما حصل لنور الدين كيانوري حفيد الشيخ الشهيد فضل الله النوري (وزعيم حزب تودة فيما بعد) ـ إلى الماركسية. بيد أن يقظته من الداخل وتفتّح عقله

---

(١٢) أصدر الباحث الإيراني محسن آجيني دراسة تناول فيها النقد الذي عرض له مـطهري لظاهرتي الالتقاط والتحجر معاً، صدرت مترجمة بالعربية تحت عنوان: الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظر العلّامة مطهري.

(١٣) كدراسة تتحلىٰ بالتوازن إلىٰ حدٍّ بعيد، يمكن أن نشير إلىٰ كتاب رسول جعفريان: نـزاع سنّت وتجدّد، بحثي دربارهٔ مناسبات فكري دكتر شريعتي وأستاد مطهري [الصـراع بـين التقليد والتجديد: بحث في العلاقة الفكرية بين شريعتي ومطهري] إذ وضع فيه نقد مطهري للمثقفين في إطار الحرص على صحّة المسار الفكري والاجتماعي.

في حين جنح دارس آخر للتطرف في النقد، ينظر: مذهب روشنفكري، مـحمد دشـتي، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٤.

ومنحدره الأسري الصالح قاده إلى الميل بعيداً عنها، والتحوّل إلىٰ ممارسة النقد لها. ثم عاد جلال ليدفع إلىٰ ساحة التداول الثقافي في إيران مصطلحَ «غربزدگي» (التغرّب أو التغريب) عبْر كتابه الشهير بهذا الاسم(١٤). وبعدها تحوّل لنقد النخبة المثقفة في البلد في إطار أهمّ ثاني كتاب من مجموعة مؤلفاته(١٥).

لقد أنشأ آل أحمد أطروحة في هذا المجال حول نشأة النخبة المثقفة في إيران ودورها، نالت إعجاب قطاعات واسعة من علماء الحوزة العلمية، وأوساط المثقفين الإسلاميين، ثم عاد بعض المثقفين لانتقادها بعنف(١٦)، بل تجاوز بعضهم النقد إلى اتهام آل أحمد نفسه بالتغرّب، في حين تجاوز بعضهم الآخر ذلك إلى التساؤل عن الذي قدّمه آل أحمد للثقافة والميراث الثقافي في إيران حتىٰ يستحق لقب المثقف، كما فعلت إحدى المجلّات في ملفّ حول المثقف، حيث تساءل كاتب الدراسة الأساسية فيه: «هل كان جلال آل أحمد مثقفاً فاعلاً حقّاً؟ مع كامل إعجابي الشخصي وتقديري لبعض ما كتبه هذا الإنسان السليم، فإني لا أعرف لماذا يذهب بعض أهل القلم لوصف جلال بالمثقف المناضل؟ إذا كان مناضلاً حقّاً، فما هو حاصل نضاله في

---

(١٤) غرب زدگي [التغريب] جلال آل أحمد، طبعة سنة ١٩٦٠، وقد طبع الكتاب منذ ذلك الوقت سرّاً (في زمن الشاه) وعلناً ما لا يحصىٰ عدداً، ومع ذلك من الغريب أن لا أحد في العالم العربي يعرف عن آل أحمد شيئاً يذكر!

(١٥) در خدمت وخيانت روشنفكران [المثقفون بين الخدمة والخيانة] جلال آل أحمد، طبعة سنة ١٩٧٩.

(١٦) كمثال على نقد آل أحمد، أو في الواقع ممارسة قراءة نقدية في فكره وتأثيره ينظر: جلال آل أحمد، حسين قاضيان، مجلة كيان، العدد ٨.

وعن موقفه من الغرب بالذات ينظر للكاتب نفسه: آل أحمد ومسألة غرب [آل أحمد والغرب] مجلة كيان، العدد ١١. والجدير بالإشارة أنّ حسين قاضيان قدّم أطروحته في الدراسات العليا حول حياة آل أحمد وفكره ودوره.

إنضاج وعي المثقفين في الوقت الراهن، وتطوير هويتهم؟»[١٧].

ليس هذا وحده، فجلال الذي خرج على الماركسية ، تعرّض لنقد شديد من مشايعيها، ولنقدٍ آخر من أوساط النخبة المثقفة، ونقد ثالث من بعض المثقفين الإسلاميين. وفي المقابل مازالت كتاباته تجد رواجاً وترحيباً في الأوساط الحوزوية والعلمائية تقديراً لتحوّله بعيداً عن الماركسية، ودفاعه عن العلماء والحوزات ، وأهم من ذلك كلّه، للأداة النقدية الرصينة التي وضعها بين يدي الحوزويين في نقد النخب المثقفة المتغربة في إيران. فقد استفاد آل أحمد من ثقافته الواسعة ودرايته بالفكر الغربي في شقّيه الرأسمالي والماركسي، ووظفها إلىٰ حدٍّ كبير في نقد النخب في كتابيه الأساسيين.

قبول أفكار آل أحمد أو نقدها يدلّل كلاهما على أهميته وحضوره واستمرار ظلاله في الوسط الفكري الإيراني.

نعود إلى السياق الذي نحن فيه، لنجد أن بعض الناقدين يعزو بعض أسباب أزمة المثقف في إيران، إلى التحليل الذي ساقه آل أحمد في هذا المجال. فآل أحمد بشَّر بأطروحة مؤدّاها القول بالتعارض المطلق بين الوسطين الديني والثقافي، فالإنسان في مفترق طريق؛ بين أن يكون متديناً ويعزف عن الثقافة وبين أن يكون مثقفاً ويعزف عن الدين!

والجذر الفلسفي الذي تقوم عليه رؤية آل أحمد أن التدين يقوم على أساس

---

(١٧) مجلة كزارش، روشنفكر: ترس، سكوت وسازش، همين!، العدد ٥٤، السنة الخامسة صيف ١٩٩٤ [المثقف: الخوف.. السكوت والاستسلام فقط!] وقد أثار مقال المجلة ردود فعل واسعة في نطاق المطبوعات الداخلية .

الطاعة والتعبّد، فيما يقوم الميل الثقافي للمثقف على أساس النقد والتمرّد على ما هو موجود . ومن جميل تعابيره في هذا المضمار أنّ فئتين لا يسعهما أبداً أن تكونا من فئات المثقفين، هما : العلماء الدينيون والعسكريون، لكون حياة العالم الديني تقوم على التعبّد، فيما تقوم حياة العسكري على الانضباط والطاعة، والتعبّد والطاعة هما ـ برأيه ـ يقعان في القطب المعارض للروح النقدية التي يتحلىٰ بها المثقف.

أحد الناقدين في الساحة الإيرانية رأىٰ أنّ أطروحة آل أحمد هذه دقّت أسفين الافتراق المطلق بين مسارين، بالاعتماد على أساس خاطئ. ثم تحوّل الناقد بعد ذلك لضرب الأساس الفكري الذي تقوم عليه رؤية آل أحمد، وكان ذلك سهلاً عليه[١٨]، لأن آل أحمد افترض التعبّد في تعارض مطلق مع العقل والدليل، وكأن عبادة المتعبّد لا تقوم على أساس العقل والدليل، وبديهي أن هذا ما لا يقول به أحد من المتشرعة، فحتى العبادات المحضة وإن كانت لا تعلل عقلياً، إلّا أن قبولها وأداءها يكون على أساس قبول الإسلام بكلّه عن طريق البرهان والدليل.

ومن جهة ثانية، افترض آل أحمد، المثقفَ ـ دائماً ـ إنساناً جانحاً للرفض والتمرد، وهذه رؤية قديمة للمثقف انحدرت من بلد المنشأ. فحين انبثقت النخبة المثقفة في أوربا، كان وجودها يترافق مع الرفض ويقترن دورها بالتمرد.

لم يقف صاحب كتاب «روشنفكري و ديندارى» في حدود نقد آل أحمد، بل تجاوز ذلك للقول بعكس أطروحته تماماً، فآل أحمد رأى التعارض مطلقاً بين العالم الحوزوي والمثقف، أما ناقدنا فقال بإمكانية تأسيس معادلة جديدة يولد على أساسها المثقف الديني؛ أي المثقف المتواصل مع الحوزة[١٩]، والفقيه المثقف، أي

(١٨) رازداني و روشنفكري و ديندارى، مصدر سابق، ص١٥ فما بعد .

(١٩) تحول المثقف الديني إلى اصطلاح متداول في الساحة الفكرية الإيرانية، أراد له أصحابه

الفقيه المنفتح على آفاق الثقافة العصرية وحاجات مجتمعه، وقد ضرب مثالاً للصنف الأول أسماء من قبيل مهدي بازرگان، فيما وجد تجسيداً للشق الثاني من خلال أسماء من قبيل الطالقاني، الصدر، الطباطبائي ومطهري.

ضعف الالتزام والموقف من السلطة

نستعين بالتحليل الاجتماعي والتأريخي في البحث عن أسباب أزمة النخبة المثقفة في إيران، سيكون من السهل أن نكتشف بعض أسباب هذه الظاهرة في ضعف الالتزام الديني في حياة المثقف؛ وفي موقفه المهادن للسلطة. وبتعبير جلال آل أحمد ـ في رسالة كان قد بعث بها إلى الإمام الخميني[٢٠] ـ إن المثقف يختار في اللحظة الحسّاسة أن ينخرط في صفّ السلطة وينحاز إليها، تاركاً مجتمعه في اللحظة التي هو في أمسّ الحاجة إليه.

أما بالنسبة لضعف الالتزام الديني فيكفي أن نلقي نظرة سريعة على أسماء الروّاد الأوائل للنخبة في إيران، لنجد أنّ وجودهم تجاوز حدود ضعف الالتزام إلى التحلل واللادينية، وهذا الوصف ينطبق على أمثال ميرزا آقا خان وأحمد روحي وأفضل الملك، كما يسري على أمثال فرويد يستي وبورجوامنش ودشتي وغيرهم.

= أن يكون ضداً للمثقف غير الديني، فعلىٰ قدر ما يكون الثاني مرفوضاً فإنّ الأول مطلوب. وبشأن الآراء حول المصطلح وما يرتبط به، ينظر: المثقف الديني، خالد توفيق، كيهان العربي، ٢٤ أيار / ١٩٩٤.

(٢٠) يرتبط آل أحمد بعلاقة حبّ خاصة بالإمام الخميني، وقد بعث له برسالة من الحج حين خرج من المعتقل بعد انتفاضة خرداد، ذكر له فيها مشروع كتابه الجديد «المثقفون بين الخدمة والخيانة» وأن الباعث لتأليفه هو تحليل موقف المثقفين هذا إزاء السلطة.
يلاحظ نصّ الرسالة في: فصلية ١٥ خرداد، المزدوج ١٥ ـ ١٦، صيف ١٩٩٤، ص١٩٩.

بديهي أنّ ضعف الالتزام الديني في الصف النخبوي الثقافي وتحوُّل النخبة إلىٰ صفّ السلطة، يساهم في انحسار هذه النخب، ويقود إلىٰ ضآلة دورها الاجتماعي والفكري والسياسي. فوقوعها في الانحياز والانحياز المضاد (الانحياز للسلطة ضدّ الشعب) يقودها إلىٰ أن تقع في غربة مزدوجة مع نفسها وأهلها وثقافتها. وبتعبير أحد الناقدين: هؤلاء يعيشون في غربة مع الإسلام الذي اتحد منذ ألف عام مع ثقافة هذا الشعب (الإيراني) فهم لا يعرفون الإسلام ولا يعرفون آلام الناس ومعاناتهم، ليستطيعوا التحدّث بلغتهم ومواساتهم في معاناتهم. إنّهم يعيشون الاغتراب حتىٰ في بيوتهم ومع أطفالهم، وتطغىٰ علىٰ كتاباتهم خصوصيتهم المترفعة المستمدّة من محافلهم الخاصة[٢١].

طبيعي أنّ المثقف الديني لا يعيش مشكلة من هذا النوع، فهو لا يعاني ـ أو هكذا يفترض ـ من مشكلة في الالتزام الديني، كما أنّه على الأغلب ضحية لقمع السلطة المستبدة، بل إنّ له مشكلاته على صعيد آخر.

موقف مطهري

أشرنا مطلع البحث إلىٰ أنَّ العلاقة بين الفقهاء والمثقفين الإسلاميين، وبين الحوزة والجامعة، تعيش حالة إشكالية هي تعبير عن التباس سائد بين الطرفين، وحين تكون العلاقة ملتبسة، فمن الطبيعي أن تتعدّد القراءات لأسباب الالتباس ولكيفية تجاوزه والخروج منه.

---

(٢١) كنقد للنخبة في إيران يتجاوز التحليل الاجتماعي والوصف التأريخي ـ من دون أن يلغيهما ـ وهو يتوغل إلى الأسس الفلسفية والفكرية، ينظر: نقد ديندارى ومدرنيسم [نقد التدين والحداثة] د. محمد جواد لاريجاني، مؤسسة اطلاعات، طهران ١٩٩٣.

أخطر قراءة هي تلك التي تتحدّث بصراحة عن الإلغاء كحلٍ وحيد، ولا تقبل النزول على حلول وسط تبقي الطرفين في الساحة.

في هذه القراءة يريد المثقف إلغاء دور الفقيه، وتبغي الجامعة إلغاء دور الحوزة، وبالجهة المعاكسة يتحرك الفقيه لإلغاء دور المثقف، والحوزة للانقضاض على الجامعة.

ومشكلة هذه القراءة المتطرفة أنّها أخذت تتسلح بعدّة نظرية لإثبات منطق الإلغاء، وأنّ بقاء إحدىٰ المؤسستين (الحوزة والجامعة) لا يكون إلا بفناء الأخرىٰ والقضاء عليها.

وعندما نتابع الملفّ في الساحة الإيرانية، نجد أن العدّة النظرية لاتجاه القطيعة والإلغاء، ينتهي إلىٰ ثلاث نظريات هي:

١ ـ النظرية التأريخية.

٢ ـ النظرية المعرفية.

٣ ـ النظرية الآيديولوجية.

وملخص الدعوىٰ في النظرية التأريخية ـ في القول بالتعارض بين الحوزة والجامعة ـ هو أن الحوزة نشأت في أزمان تأريخية ماضية وأدّت دورها العلمي والمعرفي بما ينسجم مع شرائط زمانها. أما اليوم، ومع التحوّل الضخم في الأوضاع الفكرية والاجتماعية، فقد ولدت مؤسسة أضحت هي مصدر الإشعاع العلمي والمعرفي تتمثل بالجامعة، وفي المقابل أضحت الحوزة جزءاً من التاريخ الذي ينتمي إلى الماضي.

الطريف أنّ هذه الرؤية التاريخية تستخدم كسلاح مزدوج من الجانبين، فالتيار

الجامعي يسقط دور الحوزة باسم التأريخية، وتيار من الحوزويين يسقط الجامعة بالتأريخية نفسها، حين يذكر أن الجامعة في طرازها الراهن نشأت في بيئة غربية تأريخية لا صلة لها بأوضاع المجتمعات الإسلامية.

أما النظرية المعرفية، فهي تنطلق من طبيعة ونوع المعارف التي تشتغل عليها كلّ واحدة من المؤسستين وطبيعة المنهج الذي اختارته. وأصحاب هذه النظرية يذهبون إلىٰ تفارق ماهوي بين الاثنين، ينطلق من شأن معرفي ـ فالمؤسسة الأولىٰ (الحوزة) لها علاقة بالمسائل غير العلمية ـ بالمعنى التجريبي للعلم ـ وتشتغل على القضايا الذهنية المجردة، فيما ينهض البحث المعرفي في الثانية (الجامعة) على أساس أمور واقعية لها وجود حسّي يطالها النهج التجريبي.

أما ملخص النظرية الثالثة التي تسعىٰ لتكريس القطيعة فهو يفسّر العلاقة بينهما على أساس الصراع الآيديولوجي في الحيِّز الاجتماعي. فالحوزة والجامعة كلاهما مؤسستان وإن كانتا تشتغلان بالعلوم والمعارف، إلّا أن لهما تمثيلهما الاجتماعي، وبالتالي لهما رؤيتها في قيادة المجتمع وبنائه وتوجيهه(٢٢).

إزاء هذا الواقع الذي دخلت فيه المعرفة والتعليل النظري طرفاً في العلاقة، تحتاج الساحة إلىٰ جهود مثابرة نظرياً وعملياً.

وبشهادة الجميع، كان مطهري أحد الأركان الأساسية في هذا الجهد. فهذا الشيخ هاشمي رفسنجاني نراه حين يريد أن يقرأ إنجاز مطهري الأهم، يتحدّث أوّلاً

---

(٢٢) يلاحظ بشأن ذلك: وحدت حوزه وجامعه .. معنى ومفهوم [وحدة الحوزة والجامعة: المعنىٰ والمفهوم] حسين كجوئيان، فصلية «حوزة ودانشگاه» العدد الثاني ربيع ١٩٩٥. وهذه المجلة التي تصدر بجهد نظري حوزوي ـ جامعي مشترك تتحدّث عن مشكلات الواقع وعن آفاق الحل بشيء كبير من الصراحة والموضوعية.

عن المساحة المفزعة التي كانت تفصل بين الجامعة والحوزة وبين المثقفين والعلماء، ثم يشير إلىٰ أن مطهري سعىٰ إلىٰ تجسير العلاقة بين الطرفين عبر العلوم الدينية التي تمثل عنصراً ثابتاً ومشتركاً بين الاثنين(٢٣).

وحينما يجعل مطهري العِلم الديني أساساً للجسر بين الطرفين، فهو في الواقع يهدم عملياً نظرية الاختلاف على أساس التفارق المعرفي، من دون أن يُسقط الخصوصية المنهجية لكلّ معرفة.

عن هذه النقطة بالذات، يتحدّث أحدهم عن مشكلة عرضتْ في كلية الإلهيات التابعة لجامعة مشهد، فقرّر المعنيون من الإسلاميين استشارة مطهري الذي فصَل بالمشكلة بقوله: «ابذلوا ما تستطيعون كي لا تخلو الجامعة، في أي وقت من الأوقات، من الصبغة الإسلامية.. اسعوا لكي تكونوا مقبولين في الجامعة بأية طريقة كانت.. امكثوا في الجامعة وحافظوا علىٰ وجودكم في أكثر المواقع حساسية، وحاولوا أن تجذبوا إليكم الجامعيين ومن ورائهم المجتمع، ولا تتركوا الإسلام والعلوم الإسلامية والشعائر الإسلامية فريسة للنسيان، خصوصاً في مدينة كمشهد؛ تُعدّ مركزاً للتشيّع، ولها دور مؤثر يمتد خلال ألف سنة»(٢٤).

بناء المثقف على أساس العلم الديني

لا يتعامل مطهري مع واقع الفكر الإسلامي على أساس النوايا. فالفكر حين ينطلق موضوعياً، يمارس تأثيره في دنيا الناس بعيداً عن نوايا كاتبه وفيما اذا كان

---

(٢٣) يادنامة أستاد شهيد مرتضى مطهري، ج٢، ص ٤ ـ ٥ ، لقاء مع الشيخ هاشمي رفسنجاني.
(٢٤) المصدر السابق، ص٢١٨.

مدفوعاً بنوايا حسنة أم سيئة.

من هذا الموقع، يوجّه مطهري تحذيراً كبيراً لقادة النهضة الإسلامية، مما تشهده الساحة من فكر يُكتب ويُطبع ويُروَّج في المجتمع على أساس كونه فكراً إسلامياً، وهو لا يتحلى بالأصالة، بل قد ينطوي على الانحراف. يقول في تحذيره: «من منطلق كوني إنساناً تقع عليّ مسؤولية إلهية، أُحذِّر قادة النهضة الإسلامية ـ كي تتمّ الحجّة بيني وبين الله ـ من الأفكار الأجنبية التي تتسلل باسم الفكر الإسلامي وبماركة إسلامية، وهي تهدّد كيان الإسلام، لا فرق في أن تكون صادرة عن سوء نية أم لم تكن»[٢٥].

ولكي يتلمّس الحل الصحيح، تراه لا يلغي دور المثقف ولا يطالب بغلق الجامعات، بل تتأكد أطروحته في إعادة بناء المثقف الديني على أساس العلم الإسلامي، وفي جعل العلم الديني أحد الثوابت الحاضرة في الجامعة، وفي تجسير العلاقة بين ضربين من المعرفة، كما سنتابع ذلك في استقراء عناصر أطروحته.

نبدأ بمثال من مشروع حسينية الإرشاد في طهران، حيث دبَّ الخلاف فيها، وأخذ أبعاداً مختلفة؛ من بينها الموقف من مشاركة المثقفين في نشاطها وعدم اقتصار مهمة التوجيه الإسلامي على الحوزويين وحدهم. بهذا الشأن يكتب مطهري: «من حسن الحظ أن توجد في الوقت الحاضر طبقة جديدة، تربت ـ من جهة ـ من خلال الثقافة الغربية المعاصرة، ولها ـ من جهة ثانية ـ قراءات إسلامية وعلائق مع الإسلام، وهي تعرض الإسلام وتدعو إليه عبر المعايير الجديدة. والشيء الطبيعي أن يَلقَ نشاط هذه الفئة الجديدة ترحاب جيل الشباب الذي يقع بين شدّ فطرته

---

(٢٥) الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، ص ٧٤.

المسلمة من جهة، إذ هو مسلم بالفطرة، وبين جذب المعايير الغربية من جهة ثانية.

الموقف من هذه الطبقة التي تنمو وتتزايد في الوقت الحاضر، يقع بين حدّي الإفراط والتفريط. وبالنسبة لي، فقد طلبوا معرفة رأيي مراراً في الموضوع. والذي أراه أنّه يجب أن أُبدي رأيي انطلاقاً من علاقة هذه الطبقة بحسينية الإرشاد، وسبب ذلك أن هذه الطبقة اكتسبت في الوقت الراهن شكل المسألة الاجتماعية.

أوافق شخصياً على الاستفادة من هذه الفئة ولكن بشرط؛ ففي السابق بادرتْ مؤسسة حسينية الإرشاد للاستفادة من وجود هذه الفئة باقتراحٍ منّي وبموافقتي الشخصية. فهذه الطبقة بمقدورها أن تكون حلقة ارتباط بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، ولكن مرّة أُخرىٰ بشرط أن يخضع برنامجها [الثقافي ـ الفكري] إلىٰ إشراف ويكون تحت رقابة دقيقة تُبذل من قبل أفراد تربّوا في كنف الثقافة الإسلامية، ولهم بالإضافة إلى ذلك تخصص في العلوم الإسلامية؛ من قبيل التفسير والفقه والأصول والكلام والفلسفة والأدب. وإذا لم تمارَسْ هذه الرقابة بشكل دقيق وجادّ، فإنَّ ضرر أمثال هؤلاء الأفراد ونشاطاتهم، سيكون أكثر من نفعهم»[٢٦].

العناصر الأساسية التي ينطوي عليها هذا النصّ الطويل، يمكن إجمالها كما يلي:

١ ـ نمت إثر مناهج التعليم الحديثة والاحتكاك مع أوربا، فئة تعرف الثقافة الأوربية، ولها مع الإسلام علاقة.

٢ ـ تسعىٰ هذه الفئة لخدمة الإسلام انطلاقاً من تسخير موقعها في معرفتها للثقافة الغربية، مؤكدة بالذات على طبقة الشباب التي تنجذب للأساليب الحديثة التي تخبرها هذه الفئة.

---

(٢٦) أستاد مطهري و روشنفكران، ص١١ ـ ١٢.

٣ ـ المشكلة الأساسية في سلوك هذه الفئة لا تصدر من نوايا سيئة تـضمرها للاسلام أو مسعىً تخفيه لتخريبه، بل تتمثل في واقع اجتماعي ـ موضوعي، وفي خلل منهجي، أشرنا لهما فيما مرّ.

٤ ـ وجود هذه الفئة مهم في تجسير العلاقة ما بين الثقافة الغربية والإسلامية، بما يحوّل الأولىٰ في خدمة الثانية، وفي إشباع حاجات الجيل وتطلعات الشباب خاصة، ولكن بشرط أن تتجاوز الخلل المنهجي الذي تنطوي عليه.

٥ ـ يتمّ تجاوز الخلل في تكوين المثقف من هذا النوع على أساس تأصيل ثقافته الإسلامية بخضوعه لإشراف المختصين في المعارف الإسلامية، أو من خلال إعـادة بناء معرفته بالإسلام على أساس العلوم الدينية.

الذي يعود إلىٰ نصوص مطهري يجد أنها وافية في التدليل بعمق ووضوح علىٰ عناصر هذه الأطروحة، وبالتالي من الخطأ الاستنتاج أن مطهري كان بصدد إلغاء دور المتعلمين والمثقفين الإسلاميين. ومسعىٰ مطهري في هذا السبيل يعود إلىٰ حوالي ثلاثة عقود قبل استشهاده، أي مع بداية مغادرته قم ومجيئه إلىٰ طهران، واحتكاكه بالوسط الشبابي والجامعي.

هو نفسه يشير إلىٰ هذا المنحىٰ بنصّ لا لبس فيه، حين يكتب: «ماتمّ خلال الـ (٢٣) سنة الأخيرة، حيث كان كتاب «المرجعية والعلماء»[٢٧] مظهراً من مظاهره،

---

(٢٧) يشير مطهري الى التلاقي الذي حصل في طهران بين الإسلاميين من أسـاتذة الجـامعة والناشطين ثقافياً وبين العلماء والحوزويين، والذي كان من مظاهره الاجتماعات التداولية التي تمت بين (١٨) شخصاً من هؤلاء، عقب وفاة السيد البروجردي، حيث تم التداول في وضع المرجعية والحوزة العلمية، وكان من ثمار هذا المسعى الكتاب الذي صدر سنة ١٩٦١

هو السعي لإيجاد جسر بين الثقافة القديمة (التقليدية) والثقافة الجديدة.. بين الفئة المتعلمة القديمة والفئة المتعلمة الجديدة.. بين الفكر الغربي والفكر الشرقي، وأخيراً بين الجامعي والحوزوي»[٢٨].

وفي مكان آخر يتحدّث عن النهضة الاجتماعية واحتياجات المسلمين في هذا القرن، ثم ينعطف للقول: «ألمس اليوم تياراً يبعث وميض الأمل في قلبي، أكثر فأكثر، هذا التيار يتمثل بوجود فئة من الشباب المؤمن الذي أنهى دراسته الجامعية، أو مايزال في مراحل الدراسة الأخيرة، وسيتخرج من الجامعة عن قريب، لقد قرّر هؤلاء ـ بعد أن استشاروني ـ التحول إلى سلك الطلبة [الحوزويين] كي يتوفروا على دراسة العلوم الإسلامية. وقد بلغ حماس بعضهم أنّه يريد أن يترك دراسته الجامعية ويتحوّل لدراسة العلوم الإسلامية. طبيعي؛ لقد نهيتهم عن فعل ذلك، وسأبقىٰ كذلك، إذ قلت لهم إنّ عليهم أن ينهوا الدراسة الجامعية أوّلاً ثم يتحولوا إلى الحوزة»[٢٩].

وكموقف عام يتجاوز هذه الظاهرة يرىٰ مطهري أنّ على الطالب الجامعي أن يصرف جزءاً من وقته بعد التخرّج بالاشتغال في الاختصاص الذي درسه، وأن يصرف «الجزء الثاني من وقته في تحصيل العلوم الإسلامية، لأني لا أحبّ لهم أن يكونوا بحاجة في معاشهم إلىٰ ميزانية الحوزة»[٣٠].

= ميلادية بعنوان «بحث دربارهٔ مرجعيت وروحانيت» بحث حول المرجعية والعلماء، [وبشكل أدقّ الحوزة].

(٢٨) أستاد مطهري و روشنفكران، ص٦٢. وللدقة نشير إلىٰ أن مطهري استخدم مصطلح «پل» ويعني الجسر في التدليل على مراده من العلاقة بين الحوزوي والجامعي، والثقافتين القديمة والجديدة.

(٢٩) مطهري و روشنفكران، ص٨٧.

(٣٠) المصدر السابق، ص٨٧ ـ ٨٨.

لقد كان مطهري يتحدّث بهذه الكلمات في مجلس كان من بين حضّاره عدد من أصحاب الرأي كما يقول، وقد كان محور الحديث هو مشكلات الثقافة الإسلامية المعاصرة، وطبيعة العلاقة بين العلوم القديمة والجديدة، وبين الحوزوي والجامعي. وبعد أن انتهىٰ من ذكر المقدّمات التي أشرنا لبعضها، عاد ليستخلص: «كان من حصيلة النهج المشار اليه، أن أتجه اليوم عدد من الجامعيين نحو تحصيل العلوم الإسلامية [الحوزوية]. وهؤلاء في الحقيقة هم حلقة ارتباط بين العلوم الإسلامية والعلوم العصرية، وهذا الارتباط المبارك سيكون سبباً لغنى الثقافة الإسلامية الثرية أكثر»(٣١).

هناك مسافة إذن بين ما يدل عليه هذا المنحىٰ وهذه النصوص، وبين لغة المصادرة والإلغاء. بعضهم يحتج في تبرير الإلغاء بأن أعمال مطهري الفكرية تتضمن نقداً لبعض المفكرين الإسلاميين من خارج الحوزة، كما فعل مع إقبال اللاهوري ومهدي بازرگان وعلي شريعتي وحبيب الله پيمان وأبو الحسن بني صدر.

والحقيقة أن من وظيفة المفكّر أن يمارس النقد الفكري. والمسار النقدي لمطهري شمل الكثيرين؛ من بينهم العلماء والحوزويين، وبالتالي يجب أن نلتزم النظرة العلمية المعرفية في التعاطي مع هذا النقد، بدلاً من أن ننطلق في تعليله من موقف آيديولوجي يقول بالإلغاء.

أجل، يصدر مطهري عن موقف آيديولوجي حين يتحدّث عن مشروعية التوجيه الديني في المجتمع، إذ يتحدّث في أنّ موقع التوجيه بيد العلماء لا المثقفين. ومع ذلك لا يحوّل هذه القناعة المبدئية إلىٰ موقف عدائي للمتعلمين والمثقفين الإسلاميين،

---

(٣١) المصدر السابق، والجلسة المشار اليها عقدت بتاريخ ١٢ محرم ١٣٩٧ هـ.

ولا إلىٰ معركة اجتماعية ضدّهم. بل يعلل هذا الموقف على أسس موضوعية ومنهجية ناهضة.

إنّ مشروعية القيادة في الإحياء الديني والتوجيه الإسلامي تنصرف ـ حسب الشهيد مطهري ـ إلى الحوزة والعلماء، وما دام المثقف الإسلامي يمارس دوره في غير إخلال أو منافسة لتلك الشرعية، فلا معنىٰ لمواجهته وإلغاء دوره على أساس آيديولوجي (مبدئي)؛ ذلك أنّ القول بشرعية القيادة الحوزوية والعلمائية لا تعني إلغاء جهود الغير إذا كانت تتحرّك في ظلّ موازين الشرعية. وإنّما الخلل في مسار عمل المثقفين يبرز على أسس موضوعية يلخصها المنهج التعليمي الذي خضعوا له والموقع الاجتماعي الذي نشأوا فيه. وكذلك يبرز خلل المثقف منهجياً في قصور مكوناته المعرفية، بالعدة العلمية الكافية التي يستطيع أن يؤصّل من خلالها مدارات نشاطه الاجتماعي والثقافي، لأن المثقف ليس عالماً ـ كما يقول مطهري ـ في معايير العلم الديني وإذا شاء أن يتحوّل إلىٰ موقع العلم الديني، أو يمارس مسؤولية العالِم الإسلامي، فعليه أن يدرس ويجتهد ويثابر.

في حالة واحدة يهاجم مطهري المثقف هجوماً عنيفاً يصل إلىٰ حدّ الطرد والإلغاء، وذلك حين يواجه دعوة تسعىٰ لإلغاء الحوزة والعلماء أو تجهد لوضع المثقف في الموقع المقابل للعلماء.

هنا تدور المعركة حول الشرعية، وعندئذٍ يكون من الطبيعي أن يصعّد مطهري اللهجة في رفض هذا المنحى الذي يتحدث عن القيادة الثقافية للمسار الديني وللنهضة الاجتماعية، على حساب إلغاء الحوزة والعلماء.

وهكذا علينا أن نميّز بين منطلقين في دور المثقفين والمتعلمين، يرفض الأول

العلماء ويواجههم على أساس نفي شرعيتهم، في حين يتحرّك الثاني في إطار القبول بالشرعية العلمائية، ولكنّه يخطئ. الأوّل هو الذي يرفضه مطهري على أسس دينية، أما الثاني فيستوعبه بالتشديد والتوجيه وإعادة البناء، وفقاً للأسس التي تضمنتها نصوصه المارّة.

تحليل الموقف اجتماعياً

الصورة المشهورة عن مطهري تكاد تُجمع على دوره في احتضان المثقفين والمتعلمين والجامعيين؛ وإلىٰ نشاطه الفكري تعزىٰ بذور الأطروحة السائدة اليوم في الساحة الإيرانية، وهي تتحدّث عن وحدة الحوزة والجامعة، وعن دور المثقف الديني.

وفي الحقيقة حين نعود إلى نصوصه وممارساته الفكرية والسلوكية، نجدها دالة على هذا المنحىٰ، مع الأخذ بنظر الاعتبار التميز الذي أقمناه بين منطلقين في عمل المثقف، منطلق ينافس الشرعية العلمائية بل يسعىٰ لإلغائها، وآخر يعمل من خلالها ولكنه قد يخطئ.

ولكن ـ مع ذلك ـ هناك من يحاول أن يخترق هذه الصورة بمنهج ارتدادي، علينا أن نكون حذرين منه. القراءات التي يقدمها هذا المنهج تعود إلى نصوص مطهري وأنشطته الواسعة، بيدَ أنّها تقرأها قراءة أُحادية تطمس من خلالها جميع العناصر التي يطويها فكر مطهري في استيعاب المثقفين وتوجيههم وإعادة بنائهم، لتعكسه عالماً رافضاً لجميع ضروب النشاط الثقافي الصادر من خارج الحوزة العلمية، لا يعرف في حياته سوىٰ منطق الإلغاء والإقصاء والحذف!

هذه القراءات مسكونة بالحقيقة بهواجس طارئة ومعاشة من أزمات الواقع الراهن ومشكلاته بعد انتصار الثورة الإسلامية، وهي تعتمد التأويل وتتسلح بأدوات الصراع الآيديولوجي أكثر من أي شيء آخر.

تبقىٰ إشارة ترتبط بمعرفة دوافع هذا الموقف المنفتح على الشاب الجامعي والمثقفين والمتعلمين، والقائم في التعامل مع فعالياتهم الفكرية على أساس نقدي تسديدي غير إلغائي، أي لماذا التزم مطهري مثل هذا الخيار الصعب بدلاً من الانحياز إلىٰ تيار الإلغاء فيلتزمه ويرتاح؟

عندما عدنا إلىٰ أوسع دراسة كان قد أنجزها عن مطهري زميله ومواطنه الشيخ واعظ زادة خراساني[٣٢]، وجدناه يقرأ إنجاز مطهري الفكري والاجتماعي، في ستة أبعاد؛ من بينها: دوره في «توجيه الفئات المثقفة»[٣٣] وقد تمثل المكسب الذي حقّقه في هذا المضمار «بتوجيه هذه الفئات نحو الإسلام الثوري، وهدايتها إلى الصراط المستقيم، ووقايتها من الانحرافات والاستنتاجات الخاطئة، ومن الوقوع ضحية الميل الى الغرب والشرق»[٣٤].

وفي بعد آخر برز دور مطهري في «إيجاد الصلة بين المثقفين المسلمين والعلماء المجاهدين»[٣٥]، إذ يرىٰ الباحث أنّه أحرز نجاحاً في هذه الدائرة فاق بقية زملائه

---

(٣٢) سيري در زندگي علمي وانقلابي أستاد مطهري، محمد واعظ زادة خراساني، يادنامه أستاد شهيد مرتضىٰ مطهري، ج١، ٣١٩ ـ ٣٨٠. كما أُعيد طبع الدراسة في كتاب صدر بعنوان: سيماي أستاد در آينهٔ نگاه ياران، ص٩٩ ـ ١٩١، وسنحيل في الصفحات إلى الكتاب الثاني.

(٣٣) سيماي أُستاد، دراسة الشيخ واعظ زادة، ص١٧٩.

(٣٤) المصدر السابق، ص١٧٩.

(٣٥) المصدر السابق، ص١٨٠.

الذين اهتموا بالتجسير.

وفي تفسير حماس مطهري للعمل في هذين البعدين، نرى الباحث يعزي دوافع ذلك إلىٰ وعيه الاجتماعي والسياسي ومنحاه التجديدي[٣٦]، ثم يشير بالخصوص إلىٰ أهمية مغادرته لقم ومكوثه في طهران في إذكاء هذه الحالة، حيث يكتب بالنص: «لقد تعلّم في طهران أشياء كثيرة، واتّسعت معلوماته وأضحت أكثر عمقاً وتجذّراً، وأكثر انسجاماً وتنظيماً. والشيء الطبيعي أنّه أعاد النظر في الكثير من المسائل العلمية خصوصاً المسائل الاجتماعية في الإسلام، بل يمكن القول أنّ التغير طال أيضاً حتىٰ طريقة سلوكه الاجتماعي»[٣٧].

ومع أنّه يعزي استعداداته العلمية التي تفتحت من خلال محاضراته وكتاباته إلىٰ تحصيله الحوزوي، إلّا أنه يعود للقول: «بيد أنّ المُسلَّم أنها أضحت أعمق وأوصل بالواقع، وأكثر فائدة في المجتمع»[٣٨] عندما انتقل إلىٰ طهران وعاش فيها.

ثم ينعطف للقول في إشارة إلىٰ منهجه الاستقطابي غير الطارد: «ما تعلمه أيام كان طالباً ـ في الحوزة ـ كان لنفسه. أما كسبه في هذا العهد ـ في طهران ـ فقد كان من أجل أن يعرضه للآخرين؛ لجيل الشباب، وللمتعلمين في أوربا وأمريكا، وللطبقة المثقفة المأخوذة بالحضارة الغربية، المملوءة أذهانها في العادة بالفلسفات الغربية المختلفة، وبالشبهات حول الإسلام»[٣٩].

باحث آخر يتحدّث في الشروط التي يراها للمثقف الإسلامي، عن هجرة

---

(٣٦) سيري در زندگي علمي وانقلابي استاد مطهري، ص١٣٧.
(٣٧) المصدر السابق، ص١٣٧.
(٣٨) المصدر السابق، ص١٣٧.
(٣٩) المصدر السابق، ص١٣٧.

باتجاهين، عمودي تمثلها الهجرة بل قل الانطلاق الفكري من أُفق إلىٰ أفق أرحب، وعمودية يدخل فيها المكان والحيّز الاجتماعي.

في تطبيق هذه الهجرة ببعديها على واقع مطهري وانفتاحه، يكتب هذا الباحث ما نصّه. «لم يتحوّل مطهري إلىٰ مطهري [أي لم يبلغ الذي بلغه] حتىٰ وسَّع في آفاق رؤيته وشبكة علاقاته، التي أضحت أكثر تعقيداً مما كانت عليه. ولم يبلغ الذي بلغه حتىٰ زاد انفتاحاً في مشاهداته ومسموعاته، وتحوّل من عالَم ليضع قدمه في عالَم آخر. لقد تحوّل من الحوزة إلى الجامعة، وأصبح علىٰ تماس مع الاتحاد الإسلامي للأطباء والمهندسين، ودخل حسينية الإرشاد واختلط مع الطلبة الجامعيين، وواجه الاتجاهات المنحرفة والإلحادية والالتقاطية، واختلف مع جماعة تودة [الحزب الشيوعي الإيراني] ومجاهدي خلق، ومجموعة فرقان، وحتى مع شريعتي نفسه»[٤٠]. ثم يشير إلىٰ أنّ مجموع هذه العوامل التي تدخل في هجرة المفكّر هي التي حوّلته «من عالِم ديني إلىٰ مثقف ديني»[٤١].

والذي نراه في غير تقاطع مع هذه الأسباب أنّ المنطلق الإحياني في شخصية مطهري، بدءاً من الهمّ الديني كعنصر أوّل فيه، هو الإطار الذي دفع مطهري للانفتاح على الجامعيين والشباب، والتفكير بحل مشكلات المثقف الإسلامي إيجابياً على أساس استيعاب الظاهرة ودمْجها في البنية الدينية بعد التسديد وإعادة البناء بدلاً من التجاوز والإلغاء.

---

(٤٠) رازداني وروشنفكري وديناداري، عبد الكريم سروش، ص٤١ ـ ٤٢.

(٤١) المصدر السابق، ص٤٢. والأجدىٰ ـ فيما نرىٰ ـ أن يُطلق على العالم من هذا الطراز، وصْف الفقيه المثقف في دلالة على بصيرته ووعيه.

الوضع الراهن

ننتهز فرصة هذا البحث للإشارة إلىٰ ملامح الوضع الراهن في الساحة الإيرانية إزاء قضية المثقف والنخبة المثقفة، وما يطلق عليه في هذه الساحة بالمثقف الديني، كي تتاح لنا خلال ذلك فرصة المقارنة بين الاتجاه الذي تحرّك فيه الشهيد مطهري وما آل اليه الواقع فعلاً.

والذي يجب أن نعرفه بدايةً أنّ ملف هذه القضية يعدّ أكثر الملفات سخونة في الساحة الفكرية الإيرانية، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار العوامل الواسعة التي تتجاذبه في إطار التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي يمر بها البلد، وبتأثير الوضع الاقتصادي أيضاً.

نحاول أن نبدأ من ملفٍ مثير افتتحته إحدىٰ مجلات طهران بمقالٍ ساخن ذي عنوان مثير هو «المثقف: الخوف.. السكوت والاستسلام فقط!»[٤٢] أثار الكثير من ردود الفعل الشديدة، بحيث كادت الرؤية تتفق أن هذا المقال سقط في هوة التطرّف، ولم يعنَ في الوقت نفسه بدراسة مشكلة المثقف والتيار الثقافي من خلال منهجية هادفة، بل استعان بلغة الهجوم ومارس خلطاً بين المثقف الملتزم وغير الملتزم، وبين نشأة التيار الثقافي للمثقفين وبين تطوّر المسار الثقافي بعدئذ.

في مقالٍ نقدي حمل عنوان «المثقف: الخبز، الاسم، الوعي والحرية»[٤٣]

---

(٤٢) مجلة گزارش، السنة الخامسة، العدد ٥٤، آب ١٩٩٥، مقال: روشنفكر: ترس، سكوت وسازش، همين! سيد علي صالحي، ص٥١.

(٤٣) مجلة گزارش، العدد (٥٥) تشرين الأول ١٩٩٥، مقال: روشنفكر: نان، نام، آزادي وآگاهي، عزيز الله أفشار، ص٦٩.

هاجم الكاتب مقال المجلة السابق وعاد لتأسيس الموضوع في إطار رؤية منهجية واضحة ومفيدة، دون أن ينحدر إلىٰ هوة التطرّف أو يستعين بقاموس الكلمات الحماسية والخطابة الإنشائية.

نقرأ في المقال مما له دلالة على الوضع الراهن : «انتهت مقولة المثقف في المجتمع الإيراني إلىٰ مصير مؤلم يبعث على الأسف. ومردّ ذلك أنَّ بعضهم توسّل بمختلف الذرائع لكي يشوّه مركز الإنسان الذي يحمل لقب المثقف، إذ حاول أن يصوّر هذا الإنسان لجمهور الناس، على انه شخص متحلل منفلت، يخالف الآداب الدينية والعادات الوطنية، وهو إلىٰ ذلك عميل للأجنبي خائن. وبمثل هذا الأسلوب، حاول أصحاب هذا التيار، أن يحذفوا من الساحة ـ بحقٍّ أو بغير حق ـ من يختلف معهم فكرياً وسياسياً واجتماعياً .

وفي مقابل هؤلاء، ثمَّ تيار اختار بعضهم فيه لقب المثقف ليأخذ منه ذريعة يتخفىٰ بها على مواطن ضعفه ويبرّر به عجزه. وهذا التيار من الحاملين للقب المثقف، اجتهد في أن يتحوّل إلىٰ داعية لأفكار وعقائد لا يمكن أن تنمو في مثل البيئة الإيرانية.

ولكن ثمّة بين هاتين الفئتين اللتين أساءتا استخدام لقب المثقف، فئة ثالثة حملته بجدارة وعن حقّ، وأدّت ما عليها من واجب بأمانة دون أن تهتمّ بكلمات الذم أو الثناء» .

إلىٰ جوار هذه الإثارات يمكن أن نتحدّث عن تيار من المثقفين النخبويين أُعلن عن إطاره النظري في مقال تأسيسي نشرته مجلة نخبوية هي مجلة «كيان»(٤٤)

---

(٤٤) مجلة كيان، سنت روشنفكري جديد [المنهج الثقافي الجديد] بيجن عبد الكريم، العدد ٨.

التي يندر أن يخلو عدد من أعدادها الـ(٢٩) من مقال أو بحث حول هذا التيار.

عندما نقرأ الصياغات النظرية لمثقفي هذا التيار، نجد أن عناصره تحاول أن تتحرّر على صعيد واحدٍ من الخلفية التغريبية للنخبة في إيران، كما من مساوئها الأخرىٰ، ومن القضايا الساخنة التي فرضتها تحوّلات مرحلة ما بعد الانتصار. وعبر هذا الحياد تطمح عناصر هذا التيار أن تمارس مهمة مستحيلة، إذ لا مجال لمثل هذا الحياد البارد في مجتمع ديني آيديولوجي، وهذا ما يفسّر لنا إحباطها وفشلها واضطرابها، والتنافر الذي يسود رؤيتها(١).

هذا التيار يسعىٰ لأن يرسم للمثقف دائرة عمل لا تمسّ الدين، وبالتالي يحاول أن ينأىٰ به عن دائرة النقاش المحتدم، وهذا الموقف يشير في حقيقته إلىٰ محاولة

= تشرين الأول / ١٩٩٤.

(١) كمثال علىٰ هذا الاضطراب والتنافر يمكن ملاحظة ما تنشره مجلة «كيان» التي تحاول أن تنتهج مساراً وسطاً يرفض المساوئ التاريخية للنخبة، ويأخذ منها مكوناتها في العقلانية والنقدية والتحليلية. ولكنّها فشلت فشلاً ذريعاً دفعها إما للتحليق في المجردات النظرية والإبحار بعيداً عن الواقع، أو التطرف في معالجة بعض مشكلاته. كمثال على هذا المنحىٰ يلاحظ:

ـ بي پناهي روشنفكران [المثقفون بلا ملاذ أو غربة المثقف] العدد ١١، نيسان ١٩٩٣.

ـ توسعه، مدرنيته ومشاركت روشنفكران [التنمية، الحداثة ومساهمة المثقفين] العدد ١٣، تموز / ١٩٩٣.

ـ روشنفكران وكنش هاي ضدّ روشنفكري [المثقفون والسلوكيات المضادّة للثقافة] العدد ١٦، ديسمبر ١٩٩٣.

ـ محمد أركون وفرايند روشنفكران ديني [أركون وظاهرة المثقفين الدينيين] العدد ٢٠، آب ١٩٩٤.

ـ روشنفكر سنتى وسنت روشنفكري [المثقف المنهجي (التقليدي) والمنهج الثقافي] العدد ٢٠.

ـ روشنفكر كيست ؟ [من هو المثقف؟] العدد ٢٩، آذار ١٩٩٦.

للهرب من المشكلة، وهو مضطر للوقوع في «دين» آخر هو العلمانية، برغم ما يساق من تفسيرات لإثبات حياد الأخيرة إزاء الدين(٤٦).

إذا شئنا أن نصل إلىٰ خلاصة مفيدة للنقاش الدائر في إيران حول مسألة المثقف والنخبة، علينا أن نستعين بمدخلٍ منهجي تميز الساحة الفكرية من خلاله بين تيارين أو وجودين للمثقف، يتمثل التيار الأول بالمثقف غير الديني، في حين يتمثل الثاني بالمثقف الديني، الذي يؤمن بالإسلام ويعتقد به، ويفسّر نشاطه الثقافي بكونه دفاعاً عن الإسلام ودعوة في سبيله.

ومهمة المثقف الديني في الاتجاه الثاني يشبّهها البعض بمهمة المبلّغ أو أنّه يراها تتكامل مع مهمة المبلّغ إذا توفر المثقف على الأدوات الكافية التي تؤهله لممارسة الدعوة والتبليغ.

بديهي أن لكلّ مسار من المسارين قضاياه ومشكلاته في الساحة الإيرانية(٤٧)، وإذا أردنا أن نهمل الحديث عن التيار الأول الذي يحمل اسم المثقف من دون قيد(٤٨)، فإنَّ الموقف من التيار الثاني يمكن تلخيصه بثلاثة اتجاهات

---

(٤٦) نحيل مرةً أخرىٰ إلىٰ مجلة «كيان» ونشير بالتحديد إلىٰ كثرة دراساتها عن العلمانية في محاولة لإثبات حيادها إزاء الدين. وفي كلّ الأحوال تعدّ هذه المجلة وما ينشر فيها مادّة خصبة لدراسة تيار من أبرز التيارات النخبوية في الساحة الإيرانية خلال السنوات الست الماضية.

(٤٧) لقد بلغ من سخونة هذا الملف أن تحوّل إلىٰ موضوع للدراسة لدى الباحثين الغربيين المعنيين بشؤون التجربة الإسلامية في إيران. يلاحظ علىٰ سبيل المثال: المثقف والمناضل في الإسلام المعاصر، فصل «المثقفون والمثقفون الدينيون في جمهورية إيران الإسلامية»، جيل كيبيل وبان ريشار، الترجمة العربية، دار الساقي ١٩٩٤، ص٢٥ فما بعد.

(٤٨) يلاحظ بشأن ذلك جلال آل أحمد في «غرب زدگي» و «در خدمت وخيانت روشنفكران»، كما يلاحظ ـ كعمل نقدي حديث وسهل ـ: تهاجم فرهنگي ونقش تاريخي روشنفكران، إسماعيل شفيعي سروستاني، مؤسسة كيهان الصحفية.

أساسية، وهي:

١ ـ تيار ينادي بإعادة بناء العلاقة بين الفقيه والمثقف علىٰ أساس حاجة المجتمع إلى الفقيه والمثقف.

٢ ـ تيار ينادي بإعادة بناء العلاقة بين المثقف والفقيه علىٰ أساس حاجة المجتمع إلىٰ ولادة المثقف الديني المتفقه.

٣ ـ ثمّ تيار ثالث لا يرىٰ ضرورة لوجود المثقف الديني أصلاً. فالعالم الديني هو الذي يتماسّ مع الدين بأوثق العرىٰ؛ وهو الذي يضطلع بحاجات المجتمع في هذا المضمار(٤٩).

تيار الإلغاء

يدعو أنصار الاتجاه الثالث في الساحة الإيرانية إلى إلغاء وجود المثقف الديني معللين رأيهم بالنواقص والمشكلات التي تظهر في كتابات هؤلاء، وتدلل في الوقت نفسه على تشوّه بنائهم الفكري(٥٠).

وأصحاب هذا الاتجاه وإن كانوا يبررون دعوتهم على أسس تأريخية اجتماعية

---

(٤٩) بشأن هذه الاتجاهات ينظر بالعربية: المثقف والنخبة المثقفة راهناً.. أطروحات ثلاث تتراوح الموقف في الساحة الإيرانية، خالد توفيق، كيهان العربي، ١٤ تشرين الأول ١٩٩٥.

(٥٠) كمثال علىٰ ذلك ينظر إلىٰ كتابين صدرا بهذا الشأن وهما يسوغان الإلغاء على أسس نصوص الشهيد مطهري:

ـ التقاط وتحجر أز ديدگاه شهيد مطهري، محسن آجيني، مؤسسة الإعلام الإسلامي، وقد ترجم الكتاب إلى العربية بعنوان: الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظرة العلّامة المطهري.

ـ أستاد مطهري و روشنفكران [مطهري والمثقفون] الطبعة الثالثة، شتاء ١٩٩٥.

بالإضافة إلى الخلل المنهجي المنظور في عمل المثقفين الدينيين، إلا أنّ موقفهم ـ في الأغلب ـ يعود إلىٰ أساس آيديولوجي ـ أو لنقل مبدئي (شرعي وفكري) ـ بحيث يسوقهم مقتضىٰ فهمهم للإسلام إلىٰ إلغاء أي دور يمكن أن يؤثّر علىٰ أصالة دور العلماء في الدين والاجتماع [٥١].

وبعض أصحاب هذا الاتجاه يستدل برأيه ـ كما أشرنا ـ في رفض مهمة المثقف الديني على أساس الآثار الفكرية لهؤلاء. فكاتب مثل محمد دشتي، هاجم في كتاب له صدر حديثاً [٥٢]، المثقف الديني، ووجد أن اتجاهات بارزة في الفكر الالتقاطي، وحالة الاضطراب التي سادت الساحة الثقافية الإيرانية ومازالت تمدّ بخيوطها حتىٰ اللحظة، تعود إلى الأطروحات التي بشّر بها المثقفون الدينيون، سواء في المرحلة التي سبقت انتصار الثورة الإسلامية أو السنوات التي تلتها.

والجانب الذي يؤكد عليه صاحب كتاب «مذهب روشنفكري» [المذهب الثقافي] في نقد المثقف الديني، هو دعوة بعض المثقفين الإسلاميين في إيران، لإعادة بناء الفهم الديني وفق أطروحة مثيرة، احتدم حولها الكثير من الجدل ـ ومايزال ـ تشتهر بعنوان «تكامل المعرفة الدينية» [٥٣].

---

(٥١) أشهر قراءة آيديولوجية أثارت ردود فعل عاصفة في الساحة الفكرية الإيرانية، هي التي قدّمها السيد حميد روحاني زيارتي في المجلد الثالث من كتابه: نهضت إمام خميني [نهضة الإمام الخميني] فهذا الكتاب الذي يقع في (١٣٦٣) صفحة من القطع الكبير، والذي أضحت طبعته الأولىٰ أندر من الكبريت الأحمر خصّص مدخلاً واسعاً جاء بعنوان «نهضت إمام ونقش روشنفكران» [نهضة الإمام ودور المثقفين] ينظر المصدر، ص٣٧ ـ ٤٢٤.

(٥٢) مذهب روشنفكري: نقدي بر تفكر ضرورت باز سازي دين [المذهب الثقافي: رؤية نقدية في نظرية إعادة بناء الفهم الديني] محمد دشتي، الطبعة الأولىٰ شتاء ١٩٩٤.

(٥٣) المقصود بذلك نظرية د. عبد الكريم سروش في كتابه: «قبض وبسط تئوريك شريعت:

نصل إلى التيار الذي يحاول أن ينطلق من رؤية وسطية تدعو فكرياً واجتماعياً إلىٰ تبلور وانطلاق الفقيه المثقف والمثقف الديني المتفقّه.

ينطلق دعاة أطروحة الفقيه المثقف من موقعين للتدليل على أهمية اختيارهم، الموقع الأول يمثّله التأريخ الاجتماعي والفكري لإيران منذ أواسط ونهاية العصر القاجاري، حيث بدأت الإرهاصات الأولىٰ لنشأة النخبة المثقفة المتأثرة بالغرب. فهؤلاء يرون أن عوامل نشأة هذه النخبة لا يمكن أن تعلل بطبيعة الوضع السياسي في البلد وعلاقات إيران مع الغرب وحسب، وإنّما هناك حيثية أخرىٰ ساهمت في نشأة النخبة المثقفة، متغربة، تتمثل بلون الفكر الذي كانت تفرزه فئة العلماء وطبيعة

ا نظرية تكامل معرفت ديني». وقد وُجهت هذه النظرية بردود فعل عاصفة بين رافضٍ ومؤيد، وما تزال تعكس واحدة من محاور الاهتمام الفكري في الساحة الإيرانية. أشهر الردود التي كتبت حولها، هي:

- حسين غفاري، نقد نظرية شريعت صامت [نقد نظرية الشريعة الصامتة]، طهران ١٩٨٩، ٣٣٧ صفحة.
- عطاء الله كريمي، فقر تاريخ نگري [بؤس التأريخانية] طهران، ١٩٩٠، ٤١٤ صفحة.
- صادق لاريجاني، معرفت ديني: نقدي بر نظرية قبض وبسط تئوريك شريعت [المعرفة الدينية: رؤية نقدية في نظرية القبض والبسط في الشريعة] طهران، ١٩٩١، ٣١١ صفحة.
- صادق لاريجاني، قبض وبسط در قبض وبسطي ديگر [نقد آخر لنظرية سروش] طهران، ١٩٩٣، ١٠٢ صفحة.
- عبدالله جوادي آملي، شريعت در آينهٔ معرفت [الشريعة في مرآة المعرفة] طهران، ١٩٩٣، ٤٥٦ صفحة.
- سيد محمد حسين حسيني طهراني، نگرشي بر مقالهٔ بسط و قبض تئوريك شريعت دكتر عبد الكريم سروش [نقد لنظرية سروش] الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ ٤٠٣ صفحة.

خطابهم والقضايا التي يهتمون بها. فحينما قصر الوعي الإسلامي آنذاك عن إشباع تطلعات المثقف، استدار الأخير ميمماً وجهه نحو الغرب، لكي يستلهم منه المنهج والآمال وبرامج التغيير الاجتماعي وعوامل النهوض. ولو كان العلماء ـ حسب هذه الرؤية ـ قد توفروا على تقديم لون من الوعي يغذي تطلعات تلك الفئات ، لما انخرطت في المشروع الغربي .

بل يذهب بعضهم أكثر من ذلك ليستدلّ على أنّ فئة مؤثرة من روّاد التغريب في إيران، كانت إما تنحدر من عوائل علمائية أو أنها قضت المرحلة الأولى من حياتها في السلك العلمائي. فأحمد كسروي ـ مثلاً ـ ولد ونشأ في عائلة علمائية، وربما تلمس طريقه إلى التغريب من مفارقة في محيطه الأسري والعائلي. أما السيد حسن تقي زادة، وهو رمز كبير من رموز التغريب في إيران، فقد بدأ نشأته الأولىٰ وسط الحوزة العلمية، ولبس العمامة وقطع شوطاً غير قصير في دراسة العلوم الدينية، ثم انكفأ ليتحوّل إلىٰ داعية من أكبر دعاة التغريب في البلد، حيث اشتهرت عنه مقولته في ضرورة أن تتغرب إيران ظاهراً وباطناً، في المخبر والمظهر والفكر واللباس، وكلّ شيء حتىٰ تشقّ طريقها للنهوض والتقدّم!

يرىٰ روّاد التحليل الاجتماعي في هذه الظواهر وغيرها دلالة على وجود خللٍ مّا في طبيعة الخطاب الديني (الخطاب هنا بمعنىٰ نظام الفكر) الذي عجز آنذاك عن تلبية الأشواق، أو كانت فيه ثغرات ساهمت في ولادة النخب المتغربة(٥٤).

من هذا الموقع يستنتج هؤلاء أنّ الوضع الفكري والاجتماعي يتطلب بروز فئة من العلماء الفقهاء لا تقصر في مكوناتها المعرفية وضروب نشاطها على القديم

(٥٤) ينظر كمثال: روشنفكري و ديندارى، مصدر سابق ، ص٣٦ .

وحده، بل تدخل في لجة الجديد، وهذا ما ينهض به «الفقيه المثقف» وليس محض الفقيه أو الفقيه التقليدي.

وإذا كان هذا المنحىٰ يسلك وجهة سلبية في التحليل، فإنَّ المنادين بأطروحة الفقيه المثقف ينطلقون هذه المرّة من موقع آخر يتّسم بالإيجابية. هؤلاء يقولون إنّ حاجات الوعي الاجتماعي قبل الثورة، وبعدها خصوصاً، تشكّل ضاغطاً كبيراً وملحّاً لوجود الفقيه المستبصر الواعي (المثقف بحسب تعبيرهم) من دون أن يلغي وجودُه، وجودَ الفقيه العادي أو يؤثر على حيّز عمله، فللفقيه وجوده ودوره وحيّزه في العمل الفكري والاجتماعي وللفقيه المثقف دوره غير المتقاطع مع دور زميله السابق.

من أمثال الفقهاء المثقفين المستنيرين ـ حسب صاحب بحث «روشنفكري و ديندارى» ـ السيد الطالقاني والشهيد مطهري والشهيد الصدر(٥٥).

أهم نقطة في دعوة هؤلاء أنّ وجود الفقيه المستبصر المثقف المستنير، لا يلغي وجود الفقيه العادي (التقليدي). فالحاجات الفكرية والاجتماعية، هي من الكثافة بحيث تستوعب الفئتين، وتحتاج إلى الدورين معاً.

نصل الآن إلى الطرف الآخر في صيغة هذا الحل المتمثلة بالدعوة لوجود المثقف الديني المتفقه. يؤمن المنادون بأطروحة الفقيه المثقف، بوجود المثقف الديني، ويرون أن دوره يتكامل ـ اجتماعياً وثقافياً ـ مع دور الفقيه المثقف.

ومن حسن الحظ، يكاد يمثّل دعاة أطروحة المثقف الديني تياراً غالباً في إيران، وهم يرون في هذا الوجود مفصلاً حيوياً يرمز إلىٰ حاجة ماسّة يفرضها الوضع

---

(٥٥) روشنفكري و ديندارى، ص ٤٠.

الراهن للمجتمع الإيراني بعد التحوّل الذي طرأ على البلد إثر انتصار الثورة الإسلامية. بل وجدنا باحثة من وزن د. زهراء رهنورد ترى في وجود النخبة المثقفة الإسلامية ضرورة لديمومة الثورة وإنجاز عملية التحوّل الاجتماعي(٥٦).

وقد يعكس الإلحاح على هذه النقطة في الكتابات الثقافية والفكرية داخل إيران ـ في أحد وجوهه ـ مخرجاً لما يطل عليه الأستاذ الجامعي محمد علي رفيعي بأزمة الهوية التي تكتنف المثقف الإيراني اليوم(٥٧). فلا مخرج من هذه الأزمة إلا بأطروحة المثقف الديني، وإن هذه الأطروحة تساهم إلىٰ حدٍّ بعيد في حلّ مشكلة الهوية في الوسط الثقافي، وتمنح هذا الوسط مناراً منقذاً من الحيرة والشك والاضطراب.

الذي يُعزِّز هذه الرؤية هي الدراسات الخصبة التي تصدر من أوساط حوزوية ـ جامعية متعاونة فيما بنيها، وهي في مسعاها تهدف إلىٰ تجاوز التوتر والأزمة، بتوظيف جميع الطاقات في عملية التغيير والبناء الاجتماعي والثقافي(٥٨).

---

(٥٦) ينظر بحثها الذي قدمته لمؤتمر الإمام الخميني وثقافة عاشوراء، بعنوان: بازتاب فرهنك عاشورا در أنديشه ورفتار سياسى إمام خميني با تكيهٔ بر بررسي مردم ونخبگان در دو حركت [أثر ثقافة عاشوراء في فكر الإمام الخميني وسلوكه السياسي انطلاقاً من بحث علاقة الأمة والنخبة في حركتين]، چشمه خورشيد، المجلد الأول، ص ٢٧١ فما بعد. ويذكر أن زهراء رهنورد هي عقيلة السيد مير حسين الموسوي رئيس الوزراء السابق.

(٥٧) يلاحظ مقاله عن أزمة الهوية لدىٰ المثقف الإيراني، مجلة گزارش، العدد ٥٥، ص٦٨، وربما أيضاً بدا العمل الذي قدمه الباحث الإيراني المغترب في باريس داريوش شايغان في كتابه «النفس المبتورة: هاجس الغرب في مجتمعاتنا» لوناً آخر، ولكنه صارخ يحكي أزمة الهوية بل ضياع المثقف دون التزام وانتماء.

(٥٨) يلاحظ بحث: روشنفكر كيست؟ [من هو المثقف؟]، مجلة معرفت، العدد ١٤ خريف =

الأكثر من ذلك، يستدلّ السيّد محمد خاتمي في كتاب أصدره ـ يعتبر هو الأهم في مشكلات البلد الثقافية[٥٩]، وفي ضرورة تبلور تيار قوي وناشط يمثّله المثقفون الدينيون ـ أنّ الامام الخميني رفض ما أشار عليه البعض من حصر التوجيه في الأمور السياسية والاجتماعية في البلد بدائرة العلماء والفقهاء وحدهم، مما يعني إسقاط دور المتعلمين والطبقات الجامعية عن حقل الممارسة العامة .

والذي يبدو لنا من متابعة ملفّ الموضوع، أنّ كاتبين أجادا التنظير لأطروحة المثقف الديني ودوره الثقافي والاجتماعي، أحدهما السيّد محمد خاتمي في كتابه الذي جاء أشبه بالقراءة النقدية لبعض أهم القضايا في المجتمع الإيراني بعد انتصار الثورة.

هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة لكونه قراءة تصدر من داخل التجربة، ومن شخص معنيّ بالشأن الثقافي، بل تسنّم هرم المسؤولية الثقافية خلال عقد من السنوات أمضاها وزيراً للثقافة والإرشاد الإسلامي[٦٠].

أثناء تحليل د . خاتمي لأزمة التحوّل الاجتماعي داخل إيران، أشار المؤلف إلى أن أحد وجوه الأزمة هو المثقف غير الديني، كما أثبتت ذلك وقائع المئة عام

= ١٩٩٥. هذه الدراسة تنحو إلى الائتلاف والمصالحة بين العالم الديني والمثقف على أساس أن يكون المثقف متفقهاً، وأهميتها أنّها تصدر من قم، وتحت إشراف الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي بالذات. كما تلاحظ في الاتجاه نفسه: عالم ديني، روشنفكر ديني [العالم الديني، المثقف الديني] مجلة نامهٔ فرهنك شريف، المزدوج ٢ ـ ٣، صيف ١٩٩٤ .

(٥٩) عنوان الكتاب: بيم موج، سيد محمد خاتمي، طهران ١٩٩٤، وأحسب أن ترجمة هذا الكتاب جميعه ـ والفصل الأخير منه بالذات ـ ينطوي على أهمية بالغة للقارئ العربي بشأن المسار الثقافي في إيران بعد الثورة.

(٦٠) قدّمنا قراءة في أبرز محتويات الكتاب عبر مقالين بعنوان «الحالة الثقافية في إيران: مرافعات نقدية صريحة حول المشكلات والآفاق» كيهان العربي، العدد الصادر في ١٨ / حزيران / ١٩٩٤، ٢ / تموز ١٩٩٤ .

الأخيرة (قبيل الحركة الدستورية بقليل حتى الآن) وفي مقابله ساهم في الأزمة ما أطلق عليه بالمتدين ضيّق الأفق (المتحجّر بحسب الاصطلاح الإيراني). وفي ضوء ذلك فإنّ ما يحتاج إليه المجتمع في البرهة الراهنة، ليس المثقف كمقولة مطلقة، وإنّما المثقف الديني، وبنصّ تعبير الباحث: «أعتقد أن النقص الأساسي الذي نعاني منه في المجال الفكري؛ والفكري الاجتماعي ، هو فقدان أو ضعف تيار المثقف الديني مع أنّ الأرضية مناسبة بالكامل لظهوره في الوقت الراهن»(٦١).

يبقىٰ أن نشير إلىٰ أنّ هذا المنحىٰ في التحليل والتنظير يستند ـ في الأغلب ـ إلى أطروحة مطهري، ويحاول مواصلتها وتطويرها من خلال استيعاب المتغيرات الجديدة. هذه العودة إلىٰ مطهري نراها واضحة في كتابات خاتمي وسروش، كما في بقية الكتابات الوسطية التي تؤسس لمفهوم المثقف المتفقه وتدعو إليه .

أما بشأن تيار الرفض والإلغاء فنلحظ أن دعاة رفض مقولة المثقف الديني قد يستطيعون غلق الملف نظرياً، بيد أن رفضهم يزيد في أزمة الواقع عملياً، لأن موضع المثقف يتلابس مع واقع اجتماعي عملي ولا يقتصر موضوعه على التصوّر الذهني. وبذلك فإنَّ الحذف قد يُعبِّر عن حلٍ نظري ولكنه يزيد في تأزيم المشكلة اجتماعياً.

كيف يعمل المثقف الديني ؟

ما دام البحث قد ساقنا إلىٰ هذه التخوم، فمن المفيد أن نبقىٰ مع الثغر الأخير الذي يثيره السؤال المصاغ في العنوان: كيف يعمل المثقف الديني؟

---

(٦١) خلأ روشنفكر ديني [غياب المثقف الديني] بيم موج، سيد محمد خاتمي، ص٢٠٢ فما بعد

ببساطة شديدة، يمكن أن نعطي مستويات ثلاثة للعمل التنظيري في الدائرة الإسلامية؛ تأتي كما يلي :

١ ـ استنباط الأحكام الشرعية في المسألة، ولنفترض هنا أنَّ الموضوع المثار للبحث هو الفقه السياسي، في مفردة من مفرداته كالشورىٰ مثلاً.

٢ ـ بناء النظرية وتأسيس الموقف الإسلامي بالعودة إلى المرتكزات العقائدية والأحكام الشرعية ذات الصلة بالموضوع.

٣ ـ كتابة مفاهيم عامة تأتي لتكون مستمدة من النظرية الإسلامية.

الذي يبدو واضحاً من هذا التصنيف البسيط، أن المثقف الإسلامي لا يسعه ممارسة التنظير في الدائرة الأولىٰ، إلا إذا توفّر على مؤهلات فقهية جزئية أو كليّة، وإلا يُحرم عليه شرعاً أن يتحدّث هكذا، وبمحض الاستناد إلى الاجتهاد الثقافي والاستحسانات وبعض المرجّحات والقرائن، ليزعم أن هذا هو موقف الإسلام من هذه القضية أو تلك .

موقف الإسلام الفقهي يعود فيه المثقف إلى القواعد الفقهية الشرعية إذا كان مؤهلاً ، وإلى الاستنباط الذي يمارسه الفقيه المستبصر العارف بموضوعه، كما يعود في الموقف العقائدي إلى المتخصص في هذا المجال.

أما في الدائرتين الثانية والثالثة، فيبدو أن يد المثقف الإسلامي مفتوحة، إذ بمقدوره إذا تحلّىٰ بمؤهلات كافية أن يمارس بناء النظرية الإسلامية حول القضية المثارة (الشورىٰ أو شكل الدولة الإسلامية مثلاً) بالعودة إلى الثروة التي يضعها الفقيه بين يديه، خصوصاً وإنَّ الفقهاء لا يمارسون ـ في العادة ـ عملية بناء النظريات من مجموعة ما يستخلصونه من أحكام شرعية، وإنما يكتفون باستنباط الأحكام.

وعندئذٍ يكون بمقدور العمل الثقافي ـ بما أُوتي صاحبه من وعي بحاجات الواقع ـ أن يصوغ الموقف الإسلامي علىٰ شكل نظرية في الموضوع بالاستناد إلى الموقف الفقهي المستمد من استنباط الفقيه العارف.

وفي الدائرة الثالثة تبدو المهمة أسهل ، فالمفاهيم هي إشعاعات وقبس مستمد إما من أصول عقائدية ثابتة أو مرتكزات فقهية مبلورة، أو مبادئ أخلاقية واضحة، أو من الثلاث معاً.

هذا مسار في العمل الثقافي تبدأ فيه مهمة المثقف من حيث ينتهي الفقيه، فهو يأخذ معطيات الفقيه في الدائرة الأولىٰ ليعمل عليها في الدائرتين الثانية والثالثة، مادام الموضوع مرتبطاً بأحكام فقهية. أما إذا كان ذا صلة بمرتكزات عقائدية من أصول العقيدة، فينبغي للمثقف الإسلامي إما أن يتأهل من خلال المسار المعرفي المتداول في هذا المجال ، أو يعود إلى المختص علىٰ شاكلة عودته إلى الفقيه.

ثمّ مسار آخر في عمل المثقف الديني لا يقلّ أهمية عن المسار الأول، إذ بمقدور المثقف الإسلامي الذي يعايش الواقع في قضاياه وأسئلته ومشكلاته أن يكون شريكاً في بلورة موضوع المسألة للفقيه. فالفقيه يملك آلية الاستنباط، وما ينقصه هو الاهتمام بموضوع المسألة أو الاطّلاع الكافي عليه. والمثقف يستطيع أن يكون من موقعه كخبير بالواقع، أفضل من يحمل إلى الفقيه صورة تفصيلية تغذي خبرة الفقيه وتمدّ في معرفته للموضوع وللواقع بما يجعله أقدر على الاستنباط الفقهي المجدي.

وتصوّر هذا الدور سهل جدّاً، ينبع أساساً من مقولة عودة الفقيه إلى أهل الخبرة في كلّ حقل، والمثقف الإسلامي خبير في العادة بواقعه، عارف بمواطن الابتلاء في القضايا المثارة.

بديهي أنّ للمثقف المسلم دوراً يؤديه بعيداً عن هذين المسارين، فدائرة العمل في المجتمع مفتوحة، وهي تمتص أدنى الجهود وجميع الطاقات ، من دون أن تكون هناك حاجة لإلغاء دور هذا أو ذاك من العاملين للإسلام ، لكن بشرط أن يتمّ الحفاظ على الأدوار بدقة، إذ لكلٍّ دوره الذي يؤديه[٦٢].

(٦٢) أتحفظ شخصياً على مصطلح المثقف الديني أو الإسلامي لحساسية مصطلح «المثقف» والإيحاءات التأريخية السلبية التي يحملها، بيد أني مدفوع لاستخدامه لشيوعه وتداوله في الوسط الفكري والاجتماعي، بانتظار أن نعثر على صياغة أدقّ وأفضل.
وبشأن عمل المثقف الإسلامي، ينظر: مقدّمات في واقعنا الثقافي الراهن، خالد توفيق، كيهان العربي، ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٥، حيث عرضنا لدوائر ممكنة في عمل المثقف الإسلامي راهناً .

الحوزة ـ المرجعية
معالم المشروع التجديدي عند الشهيد مطهري

ليس السبق الزمني هو السمة الوحيدة التي يمكن أن نصف بها أفكار الشهيد مرتضىٰ مطهري في الإصلاح الحوزوي والمرجعي، وفي تجديد النظرة إلى الاجتهاد والمجتهد، وإنّما نستطيع أن نصفها ـ دون مبالغة ـ بأنّها تشكّل ـ بما تحلّت به من جرأة وصراحة ـ خرقاً للمألوف وتحدّياً كبيراً لحالة الصمت التي تلفّ هذا المجال[1].

وأعمال مطهري على هذا الصعيد تعكس فعلاً مشروعاً متكاملاً يستوعب ما يكتنزه مصطلح الإصلاح والتجديد من دلالات[2]. وقد يكون من المفيد أن

---

(١) تعود أولى كتابات مطهري المنشورة حول الموضوع إلىٰ ما قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة من الآن، تحديداً إلىٰ أوائل سنة ١٩٦٠. يُنظر في هذا المجال: بحثي دربارۀ مرجعيت وروحانيت [بحث حول المرجعية والعلماء] الذي صدرت طبعته الأولىٰ قبل (٣٥) سنة وضم ثلاث دراسات لمطهري.

(٢) ينظر في هذا المجال :

ـ اجتهاد در اسلام [الاجتهاد في الإسلام] .

ـ مشكل أساسي در سازمان روحانيت [المشكلة الأساسية في المؤسسة العلمائية ـ الحوزة].

ـ مزايا وخدمات مرحوم آية الله بروجردي، وهذه البحوث الثلاثة نشرت في كتاب «بحثي

=

يتصدىٰ باحث لتقصّي أفكار مطهري المبثوثة عن الموضوع، في كتبه ومحاضراته المختلفة، ليخرج بحصيلة ثرية تتجاوز في عمقها وسعتها مستوى الإشارات السريعة التي سنقتصر عليها في هذا البحث الموجز.

تجديد طاقة الاجتهاد

ثمّة نظرة مبهورة بالماضي تقابل ـ في جنوحها نحو التطرّف ـ تلك النظرة التي تتنصل لكلّ شيء في الماضي وتدعو إلى القطيعة معه كسبيل للنهضة.

هذه النظرة تسود الوسط الحوزوي وتعيقه عن التجديد وتعطله عن الإبداع والابتكار، كما أنّها تقود موضوعياً، إلى الشعور بوهم الاكتفاء بذريعة الامتلاء بما أنتجه السلف. يكتب مطهري: «ليس صحيحاً أنّ جميع المشاكل قد حلّها العلماء، ولم تعد لدينا مشكلة ما. إنّنا نجد آلاف الألغاز والمشاكل في الكلام والتفسير والفقه وسائر العلوم الإسلامية، مما قام العلماء العظام السابقون بحلّ الكثير منها، ولكن بقي منها الكثير الذي يتطلّب الحل»(٣).

لذلك لا مناص من أن يتحرّك الجهد الحوزوي مواصلاً إنجاز الماضين، بدلاً من أن يجمد عليه. فالمسلمون «يواجهون كلَّ يوم مسائل جديدة في الحياة لا يعرفون موقفهم منها، وهذا يتطلب فقهاء أحياء ذوي أفكار حيّة حتىٰ يجيبوا على

= دربارهٔ مرجعيت و روحانيت». ثم واصل مطهري طرق موضوع الحوزة والاجتهاد والمرجعية في عشرات البحوث والمقالات والمحاضرات الأُخرىٰ.

ـ مبدأ الاجتهاد في الإسلام، الأُستاذ الشهيد مرتضىٰ مطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي.

(٣) الاجتهاد في الاسلام، مرتضىٰ مطهري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، ص ٢٥.

المسائل»[٤].

والحاصل الآن هو انحسار حادّ في اتجـاهين ؛ في اتجـاه تـضاؤل الاهـتمامات المعرفية للحوزة واقتصارها على الفقه وحده، فقد كانت «الحوزة العلمية في الماضي تشمل فروعاً من العلم تضمّ التفسير والتاريخ والحديث والفقه والأصول والفلسفة والكلام والآداب، وحتىٰ الطب والرياضيات وغيرها، ولكـنها أخـذت تـتقلص بالتدريج وتتحدّد ، أي أنها كانت جامعة عامة شاملة، وغدت الآن كلية للفقه»[٥]. وفي اتجاه تقلص الاهتمام بفروع الفقه المختلفة واقتصارها على العبادات، بل ضرب محدود من فقه العبادات الفردية، وبذلك أخذ الفقه مكان العلوم الأخرىٰ، ثم انحدر إلى اهتمامات جزئية في العبادات الفردية، وبتعبير مطهري: «تضاءلت فروع العلوم الدينية كثيراً في الأيام الأخيرة، فأُدخل أكثر الفروع ضمن الفقه، والفقه نفسه غدا بحيث إنّه توقف عن التكامل منذ مئة سنة»[٦].

طبيعي أن هذه الحالة لا يمكن تبسيطها عبر تعليلها بالانبهار النفسي بـإنجاز السلف والانكماش عليه وحسب، بل هي تعود إلى الأوضاع التي مرَّ بهـا العـالم الإسلامي عموماً. فالحوزة جزء من البنية العامة، تتأثر بما يتأثر به الوضع الإسلامي العام. ومع ذلك يبقىٰ مطهري معتقداً أن جمود الفقه وغياب الحركية عنه هو سبب من أهم أسباب هذه الحالة، مما يدعو الىٰ هزّة كبيرة في العقلية الفقهية تقود إلىٰ ثـورة تشريعية منشودة، وبحسب تعبيره: «لقد ساعد عدم تحرّك الاجتهاد علىٰ مرِّ القرون

---

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥ .
(٥) الاجتهاد في الإسلام، الترجمة العربية، ص٣٨.
(٦) المصدر السابق، ص ٤٥ .

على هذه التصورات الخاطئة» .

ثم يقول : «لا تخفىٰ أسباب هذه الحالة وعواملها على أحد، والذي لا ينبغي كتمانه أن الجمود والركود الفكريين اللذين حكما العالم الإسلامي خلال القرون الأخيرة، وخاصة توقف الفقه الإسلامي عن التحرّك ، وظهور روح الميل إلى الماضي والنظر إليه، والامتناع عن مواجهة روح العصر، تعدّ من أسباب هذه الهزيمة. واليوم يحتاج العالم الإسلامي، أكثر من أي وقتٍ مضىٰ ، إلىٰ نهضة تشريعية تنبع من رؤية جديدة، شاملة وواسعة وعميقة، إلى التعاليم الإسلامية من أجل أن نفك قيود الاستعمار الفكري الغربي التي تكبّل المسلمين»[٧].

لقد تأثّر مطهري إلىٰ حدٍ كبير بصيحة إقبال الذي اعتبر الاجتهاد الطاقة أو الجهاز المحرّك للإسلام، بحيث دأب على تكرار مقولة إقبال هذه مرّات عديدة في كتبه ومحاضراته، وبالتالي اعتمدها أساساً في دعوته إلىٰ تحريك الوضع الإسلامي الراكد عبر إشعال جهاز الطاقة فيه.

ولكن مطهري تجاوز دعوة إقبال ولم يقف عندها، حين أخذ يدرس الجوانب الأخرىٰ في المشكلة ويتحدَّث عن الاجتهاد المطلوب، ومواصفات المجتهد الذي يشغل الجهاز الحركي في الإسلام، ويجدِّد طاقاته، كما سيتضح عبر بقية الفقرات.

الخلفية الفكرية والإجتماعية

تبدأ اشارات مطهري النقدية من الاجتهاد وما تراه من شروط للمجتهد «فعمل الفقيه والمجتهد هو استنباط الأحكام، إلّا أن معرفته وإحاطته وطراز نظرته

---

(٧) ختم النبوة، مرتضىٰ مطهري، ترجمة عبد الكريم محمود، ١٤٠٩ هـ ص ٤٩.

إلى العالَم تؤثر تأثيراً كبيراً في فتاواه». ثم يضيف: «على الفـقيه أن يكـون محـيطاً إحاطة كاملة بالموضوع المطلوب منه إصدار فتوىً فيه»[٨].

حركة الفقيه في الاستنباط تتأثّر إذن ـ بين ما تتأثر به من عوامل ـ بخـلفيته الثقافية والاجتماعية بل تتأثر أيضاً بخلفيته المكانية ـ على ما سيشير إليه مطهري في نصٍّ آخر ـ كما أنّ الحكم يتأثر مباشرة بطبيعة استيعاب الفقيه لموضوع المسألة، كما يتأثر أيضاً بطبيعة متابعة المجتهد واستيعابه للتدرّج الزمني لتأريخ دخول المسـائل الفقهية في الفقه.

«إن دراسة الكتب الفقهية وتتبعها خلال قرون مختلفة يكشف أن الكثير مـن احتياجات الناس الجديدة أدخلت مسائل جديدة في الفقه» ثم «إن البحث الزمني يمكن أن يكشف عن المسائل الجديدة، وتاريخ دخـولها الفـقه، وسـبب دخـولها، والحاجة التي استدعتها»[٩].

وبمناسبة مرور الحديث علىٰ أهمية إدراك الفقيه لموضوع الحُكم، نجد أن مطهري يشدِّد علىٰ هذه المسألة ويعتقد أن قسطاً مهمّاً من مهارة المجتهد وجهده يتجلّيان فيه. وهو يستعين في هذا التشديد بمعنى الاجتهاد نفسه، ذلك «أنّ معنى الاجتهاد نفسه يصحّ في تطبيق السنن الكلية عليا لجديد من الحوادث المتغيِّرة، والمجتهد الحقيقي هو الذي أدرك هذا المعنىٰ، وعرف كيف أنّ المواضيع تتغيّر مما يستتبع تغيّر أحكامها. أما مجرّد إعمال النظر في القديم، الذي سبق للآخرين أن أعملوا فيه نظرهم، ثمّ تبديل حكمٍ من «على الأقوىٰ» إلىٰ «على الأحوط» أو بالعكس لا يسـتحقّ كـلّ هـذا

(٨) الاجتهاد في الإسلام، العربية، ص٢٧ .

(٩) المصدر السابق، ص٢٦ .

الصخب والجدل»[١٠].

ماهو مطلوب من حركة الاجتهاد أن تمتصّ المستجدات عبر توفير الصيغ الشرعية للمسائل الجديدة المستحدثة، لأنَّ «المسلمين يواجهون كلّ يوم مسائل جديدة في الحياة لا يعرفون موقفهم منها، وهذا يتطلّب فقهاء أحياء ذوي أفكار حيّة، حتىٰ يجيبوا علىٰ هذه المسائل» وإلّا إذا بقيت الحركة الاجتهادية تكرّر نفسها عبر تكرار مسائل الماضين، وإذا بقي «النظام الفقهي ميالاً بشكل واضح إلىٰ طرح المسائل بطريقة ما قبل سبعة قرون والهرب من مواجهة المسائل التي نحتاج إليها اليوم»[١١] فلا فرق إذن بين تقليد الحي والميت «بل قد يفضَّل بعض الأموات على بعض الأحياء»[١٢] كما يقول مطهري.

لذلك ثمّة فرق بين فقه منعزل عن حركة الحياة، وآخر منفتح علىٰ وقائعها، وهذا الفرق ينعكس علىٰ طبيعة الحكم الشرعي المستنبط. فرغم أن الأدلة الشرعية واحدة، إلّا أن خلفية وعي الفقيه عامة، وطبيعة وعيه بموضوع الحكم خاصة، لهما دخل في مسار الاستنباط. على أساس ذلك يميّز مطهري بين الفقيه المنزوي في البيت، والفقيه المواكب لوقائع الحياة: «فإذا افترضنا فقيهاً دائم الانزواء في بيته أو مدرسته، ثم قارنّاه بفقيه آخر يعايش جريان أمور الحياة، نجد أن كليهما يرجعان إلى الأدلة الشرعية لاستنباط الحكم، ولكن كلاً منهما يستنبط حكمه علىٰ أساس وجهة نظره الخاصة»[١٣].

---

(١٠) الاجتهاد في الإسلام، ص٢٦.
(١١) ختم النبوة، مصدر سابق، ص٤٨ ـ ٤٩.
(١٢) الاجتهاد في الإسلام، ص٢٦.
(١٣) المصدر السابق، ص٢٧.

بل يذهب مطهري إلىٰ أكثر من ذلك حين يتحدّث عن تأثير المنظور الاجتماعي والخلفية الفكرية، وكذلك المكان في وعي الفقيه ومسار استنباطه. فالفقيه جزء لا ينفك من البنية الاجتماعية التي ينتمي إليها، وليست الحوزة العلمية في نهاية المطاف وجوداً مجرّداً فوق التأريخ وخارج البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية. يكتب الأستاذ مطهري بوضوح لا لبس فيه: «لو أنَّ أحداً أجرىٰ مقارنة بين فتاوى الفقهاء، وتعرّف في الوقت نفسه علىٰ ظروف حياة كلّ فرد منهم وطريقة تفكيرهم في مسائل الحياة، لعرف كيف أنّ المنظورات الفكرية لكلّ فقيه ومعلوماته عن العالم الخارجي المحيط به تؤثر في فتاواه، بحيث إن فتوى العربي تفوح منها رائحة العرب، ومن فتوى العجمي رائحة العجم؛ من فتوى القروي رائحة القرية ومن فتوى المدني رائحة المدينة»(١٤).

من هذا المنطلق يتحدّث مطهري عن دور تغيّر طريقة التفكير والمنظور الخاص في تكامل الاجتهاد تأريخياً، واستمراره في نفس الخط راهناً. فطهري يعتقد بنسبية الاجتهاد زمنياً وتأريخياً، مأخوذة بعاملين، هما :

الأول : تقدّم العلوم وتكاملها وتطور الأفكار البشرية، فكلما تقدّمت «العلوم الحقوقية والنفسية والاجتماعية في العصر الحالي، أمكن التعمّق أكثر في المسائل الفقهية» .

الثاني: تكمن في قابلية المدارك الإسلامية غير المتناهية للكشف والبحث والتحقيق.

وبتعبير مطهري نفسه: «من هنا يمكننا أن نفهم جيّداً أنّ الاجتهاد مفهوم

---

(١٤) الاجتهاد في الإسلام، ص٢٨.

«نسبي» [بالمعنىٰ الزمني والتأريخي] ومتطوّر ومتكامل، وإنّ كلّ عصر وزمان يستوجب نظرةً وإدراكاً خاصين. وهذه النسبية تنشأ من أمرين: القابلية اللامتناهية للمصادر الإسلامية [المدارك والنصوص] والتكامل الطبيعي للعلوم والأفكار البشرية»(١٥).

تجزئة التقليد والمجلس الفقهي

على الصعيد الفني تحدّث مطهري عن إمكانية تجزئة التقليد من خلال انصراف عدد من الفقهاء للتخصص بما يحتاج إليه الناس من فروع الفقه. وقد كان في ذلك يجاري ويؤيد اقتراح طرحه للتداول المرحوم الشيخ عبد الكريم اليزدي، مؤدّاه ـ حسب مطهري ـ: «ما من ضرورة تدعو إلىٰ أن يقلّد الناس شخصاً واحداً في جميع المسائل، بل الأفضل أن يقسّم الفقه إلىٰ أقسام متخصصة. أي أنّ مجموعة من العلماء يعيّنون لأنفسهم، بعد أن يتفقهوا في دورة فقهية عامة، جانباً معيناً يختصون فيه، ويقلّدهم الناس في ذلك القسم التخصصي وحده».

يضيف موضّحاً: «كأن يتخصص بعضٌ بالعبادات، وبعض آخر يتخصص بالمعاملات، وآخرون في السياسات، وبعض بالأحكام الفقهية»(١٦).

ولا نريد هنا أن نناقش إمكانية تنفيذ مثل هذا الاقتراح عملياً وعلىٰ مستوىً شعبي عام، وهل بالإمكان أن ينصرف الإنسان المقلِّد، إلىٰ تقليد أكثر من فقيه في

---

(١٥) النسبية في الاجتهاد، ختم النبوة، ص٥٢. كما تنظر: أستاد مطهري عالم به زمان خويش و نياز عصر ما [الأستاذ مطهري عالم بزمانه وباحتياجات عصرنا]، صحيفة عصر ما، العدد ١٤، أيار / ١٩٩٥.

(١٦) الاجتهاد في الإسلام، ص٢٩.

المسائل الشرعية التي يواجهها في حياته، أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون محض أمنية واقتراح. وإنّما يعنينا التأكيد أن الدعوة للاختصاص ـ بحيث يشتغل كلّ فقيه على فرع من الفروع الفقهية، ويعود المكلّف إلىٰ أكثر من مرجع في التقليد ـ هي واحدة من العناصر الأساسية في مشروع مطهري للإصلاح المرجعي.

ولا يخفىٰ أن هذا المسلك أخذ يتحوّل إلىٰ واقع عملي في سلوك الأفراد الآن، بضغط تزايد الحاجة إلى التفقيه في كلّ مجال، وبفعل غياب المرجعيات الكبيرة، ولكن نشكّ في إمكان تحوّلها ـ بسهولة ـ إلىٰ ظاهرة اجتماعية عامة.

ويبدو أنّ باعث الأستاذ مطهري للتأكيد على هذه النقطة، هي ضرورة الاختصاص وتشعب فروع الفقه في حركة الحياة الراهنة، بل وصل إصرار مطهري على اقتراحه إلىٰ أن يضع الآخرين أمام خيارين: «فإما أن يقوم علماء هذا الزمان وفقهاؤه بسدّ الباب أمام تقدّم الفقه وتطوّره ومنع نموّه، وإمّا أن يحققوا هذا الاقتراح المتين والتقدّمي،» وذلك بإيجاد فروع تخصصية ويسمحوا للناس بالتميّز في التقليد بمثل ما هو عليه الحال في الرجوع إلى الطبيب»[17].

وعلى صعيد آخر، كان مطهري يدعو إلى «المجلس الفقهي» الذي يكون محضناً للعقول الفردية التي تتكامل خبراتها في إطار هذا المجلس. في عالم اليوم «لم يعد لفكر الفرد وللتفكير الفردي قيمة تذكر، والعمل الفردي لا يوصل إلىٰ نتيجة»[18].

هل يكون المجلس الفقهي هذا، بديلاً عن المرجعية الفردية، أم أنّه يكون ملهماً لعمل المرجعية الفردية يضع بين يديها ما تحتاج إليه من خبرات في الموضوع والأحكام؟

---

(١٧) الاجتهاد في الإسلام، ص ٣١.

(١٨) الإجتهاد في الإسلام، ص ٣١.

يبدو من سياق كلام الشهيد مطهري أنّ المجلس الفقهي الذي يدعو إليه هو هيئة تنبثق داخل الحوزة العلمية، تضمّ فقهاء مراجع وغير مراجع، هدفها دفع مسار التفقيه داخل الأمة إلى الأمام عبر مواجهة معضلات الحياة ومواكبة تطوراتها، دون أن نفهم أنّها تكون بديلاً عن المرجعية الفردية، وإن كان يمكن أن تكون عضيداً يؤازر المرجعية.

إنّها أشبه ما تكون بالعقل الفقهي الأعلىٰ في الحوزة والمجتمع، فهي تتصل بمركز التوجيه الفقهي في الحوزة، فتبلور الموقف الفقهي الذي تمليه حاجات المجتمع المتكاثرة. وبالتالي هذا المجلس أكثر فاعلية مما يتبلور في عمل بعض المرجعيات بعنوان «لجنة الإفتاء» وأقرب ما يكون إلى الصيغة الراهنة التي يعمل من خلالها قائد الجمهورية الإسلامية آية الله السيد علي الخامنئي[١٩].

المشكلة المالية

في بحثٍ لمطهري عن المشكلة الأساسية للحوزة العلمية، يُرجع الكثير من النواقص والسلبيات إلى المسألة المالية. يكتب : «إنّ السبب الرئيسي والأساسي

---

(١٩) ثمة الآن لجنة من المجتهدين تعمل في مدار وقيادة آية الله الخامنئي، وهي أشبه ما تكون بالعقل الفقهي الأعلىٰ في البلد، تتألّف من الفقهاء الستة في مجلس حماية الدستور بالإضافة إلىٰ رئيس القوّة القضائية وبعض فقهاء قم.

بشأن هذه اللجنة يلاحظ: فصلية «فقه أهل بيت» (بالفارسية) العدد الثاني السنة الأولىٰ، صيف ١٩٩٥، ص٢٥٢ .

وبالعربية ينظر :

ـ كيف تحلّ المعضلات الفقهية في حركة النظام الإسلامي؟ خالد توفيق، كيهان العربي ذو الحجة ١٤١٦ هـ.

ـ كيف يعمل العقل الفقهي الأعلىٰ في البلد، خالد توفيق، كيهان العربي، محرم ١٤١٧ هـ.

لهذه النواقص والمشاكل في المسلك العلماني هو النظام المالي وطريقة ارتزاق علماء الدين»[٢٠]. وفي مكان آخهر يقول: «إنّ كل المفاسد ناشئة من كون رجال الدين يتناولون المال مباشرة من الناس»[٢١].

ويبدو أنّ ثمّة مبالغة في تحليل الشهيد مطهري لدور النظام المالي، الذي وإن كان سبباً في بعض النواقص والسلبيات إلّا انّه لا يمكن أن يُلغي دور العوامل الأخرىٰ.

ولكي نكون في صورة التقييم الذي يتبنّاه مطهري للحوزة والمرجعية نقتبس النصّ التالي الطويل نسبياً، والذي يضمّ جملة من الأسئلة التي تعكس المسار الذي ينبغي أن يتحرّك الإصلاح من خلاله؛ يقول: «في ليلة من الليالي قبل سنوات عديدة كنت أحضر مجلساً في قم يضمّ عدداً من الفضلاء جرىٰ فيه الحديث عن مشكلات الحوزة ونواقصها، وطُرح السؤال التالي: لماذا كانت الحوزة العلمية في الماضي تشمل فروعاً من العلم تضمّ التفسير والتأريخ والحديث والفقه والأصول والفلسفة والكلام والآداب ، وحتى الطب والرياضيات وغيرها، ولكنها أخذت تتقلّص بالتدريج. أي أن الحوزة كانت جامعة عامة شاملة وغدت الآن بصورة كلية للفقه دون باقي الفروع ؟ لماذا يكثر في محيط العلماء المقدّس العاطلون والطفيليون بحيث أنّ الزعيم الديني (المرجع) لكي يسقي وردة واحدة يضطر إلىٰ سقي كلّ ما هناك من أشواك وأعشاب؟ لماذا يسودنا الصمت والسكوت والتماوت بدل الحرية والحركة، حتىٰ أنّ من يريد المحافظة على مركزه ومقامه يضطر إلىٰ إطباق شفتيه والتقوقع في مكانه؟ لماذا لا تُنظم برامجنا التعليمية وفق احتياجاتنا؟ لماذا نفتقر إلى

---

(٢٠) الاجتهاد في الإسلام ، ص٣٩.

(٢١) المصدر السابق، ص٥٩ .

المقدار الكافي من التأليف والتصنيف والنشر؟ لماذا تروّج في أوساطنا الألقاب والعناوين والمظاهر وتزداد يوماً بعد يوم، مع الأسف؟ ما السرّ في أنّ الزعماء (المراجع) الصالحين المتفتحين عندما يتسنمون مراكز الرئاسة (المرجعية) يفقدون قدرتهم على الإصلاح ويبدون كما لو أنّهم قد نسوا آراءهم السابقة؟»[٢٢].

إن النص على طوله يكشف ما سبق أن ذكرناه من أن مشروع مطهري الإصلاحي يتسم بالكثير من الصراحة والجرأة في النقد، وفي تسمية الأشياء بأسمائها دون مواربة[٢٣]. فهذه الأسئلة التي طرحها الشهيد مطهري قبل ما يزيد على (٣٥) سنة ما يزال البعض يخشىٰ طرحها الآن، ويخاف من أن يرمىٰ من ورائها بشتىٰ التهم.

ولكن مع ذلك تقضي الأمانة أن نشير إلىٰ أن الواقع الحوزوي يشهد ـ في حوزة قم ـ تقدّماً في بعض المجالات والمشكلات التي يشير إليها النص. وما يعنينا من ذكر النصوص هو توفير رؤية كافية بالمشروع الإصلاحي لمطهري تنظره في إطاره التأريخي، وما كان يكتنف بيئة النص من عوامل وظروف، وإن كانت بعض الأجواء مازالت تفرض عناصرها داخل الحوزة حتىٰ مع التحوّلات الكبيرة التي حصلت.

---

(٢٢) الاجتهاد في الإسلام، ص٣٨ ـ ٣٩ بتصرف يسير ببعض الكلمات.

(٢٣) بشأن مشروع الإصلاح الحوزوي لدىٰ مطهري يمكن مراجعة:

ـ أستاد حوزة و دانشگاه، صابر أكبري جدّي، نگاه حوزه، ملحق خاص بمجلة «حوزة» يحمل العدد (٩ ـ ٨) ومحوره وحدة الحوزة والجامعة، ص١٧ فما بعد.

ـ سيري در زندگي علمي وانقلابي أستاد مطهري، واعظ زاده خراساني، سيماي أستاد، ص١٢٠ فما بعد.

ـ الحوزة والمرجعية: استعراض سريع في جوانب المشروع الإصلاحي للشهيد مطهري، خالد توفيق، كيهان العربي، ١٨ / كانون الأول / ١٩٩٣.

علىٰ أي حال، ما نريد أن نخلص إليه هو أنّ مطهري كان ينظر إلى النظام المالي، كونه العنصر الأساسي في تلك المشكلات، وبرأيه فإنّ «النقص المهم الحاصل حالياً في جهاز القيادة الدينية (المرجعية) يتعلق بالميزانية وبالنظام المالي وطريقة ارتزاق رجال الدين».

فالشهيد مطهري يرىٰ خطأ أن يستلم العلماء الأموال والحقوق الشرعية مباشرة. فالناس وإن كانت تدفع هذه الأموال طواعية وبحافز الواجب الديني، إلّا أنّها تحاول أن تفرض آراءها من وراء هذا المال، وتسلب العلماء الحرية في القرار وقدرة التحرّك في الإصلاح.

ما يهدف إليه مطهري ليس سدّ باب الحقوق الشرعية وتعطيلها، بل اعتماد نظام يستند إلىٰ ميزانية صحيحة وسجّلات قائمة في الصرف، بحيث لا يكون دافعو الحقوق الشرعية والأموال طرفاً مع العلماء مباشرة، بل طرفاً مع النظام المالي الموجود في المؤسسة، وبهذا لا تتحوّل الأموال والحقوق الشرعية إلىٰ قيد على عمل المراجع والحوزات والعلماء.

آفة العوام!

النظام المالي القائم الذي يدع العلماء يستلمون الأموال من الناس مباشرة، يكون باعثاً لإيجاد ما يطلق عليها مطهري بـ«آفة العوام»، أي تأثير الإرادة السطحية للناس، وبالذات لذوي الأموال، في القرار الحوزوي، وفي وجهة المشاريع التي تتبناها وتنفق عليها، بحيث لا يسع المصلحون أن يتحرّكوا بحرية كاملة، بل ربما عادت هذه الآفة بالضرر على الكيان العلمائي برمّته، فيبقىٰ مشدوداً إلى الوراء بدلاً

من التطلع إلى الأمام. يقول في هذا المضمار: «إنّ الآفة التي أصابت مجتمعنا الديني بالشلل وأقعدته عن العمل هي (آفة العوام) وهي أشدّ بلاءً من الإصابة بالسيول أو الزلازل أو لسع العقارب والحيات.. إنّ منظومتنا الدينية على أثر إصابتها بهذه الآفة، لا تستطيع أن تكون طليعية فتتحرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلة بالمعنى الصحيح للهداية. إنّها مضطرة للتحرّك وراء القافلة».

ثم يضيف: «من سمات العامة أنّهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه، بل يتمسكون به دون تمييز بين حق وباطل. إنّهم يعتبرون كلّ جديد بدعة أو اتباعاً للأهواء.. ويحافظون على الوضع القديم دائماً».

ومن نتائج إذعان المؤسسة الحوزوية لآفة العوام، انقلاب المقاييس، وبالتالي انقلاب المواقف إلى ضدّها «فليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في موضع الإثبات، لأن ذلك ينسجم مع طبيعة العامة».

عند هذه النقطة بالذات، يطلق مطهري صيحة مدوية ربما لا يجرؤ عليها الكثيرون حتىٰ بعد مرور حوالي أربعة عقود علىٰ زمانها. يقول: «إن سلطة العوام هي منشأ رواج الرياء، والمجاملة والتظاهر، وكتمان الحقائق، والاهتمام بالمظاهر، وشيوع الألقاب والمناصب، والتطلع إلى المراكز العليا في مجتمعنا الديني مما لا نظير له في العالم»[٢٤].

يتحدث بعد ذلك عن تأثير نزعة العوام وسلطتهم على الكيان العلماني بكلام قاسٍ لا مجال لذكره، بل هو يتجاوز في حدته ووضوحه كلّ ما قيل ويقال الآن من

(٢٤) الاجتهاد في الإسلام، ص ٥٤ ـ ٥٥.

دعاة الإصلاح في الوسط الحوزوي والمرجعي.

ينصرف نقد مطهري أكثر ما ينصرف في تعبيره «آفة العوام» إلىٰ ذوي الأموال، من مجموعات الضغط البازارية والتجارية وأصحاب الأراضي والعقارات، ممّن لا يفقهون من الدين شيئاً، بل يسعون إلى الهيمنة والوجاهة من وراء الأموال التي يدفعونها، وربما أغراهم جهلهم وعدم تفقههم بالدين. وإلا فليس لمطهري عداوة مع جماهير الناس وهم مادته في العمل والحركة وممارسة التوعية والفعل النهضوي. بل أكثر من ذلك تراه يسلّح القاعدة الشعبية بوعي مناهض لبعض الاعتقادات الخاطئة التي تحوط العلماء والمراجع، ويهاجم «مبدأ عصمة العلماء» ـ كما يسمّيه ـ الذي يروّج إليه البعض، فتأثير الذنوب واحد بين عامة الناس والعلماء، فكما تسقط عدالة أي إنسان عادي باقتراف الذنب، كذلك تسقط عدالة العالِم، لأن الإسلام لم يقل بعصمة أحد، إلا من ثبتت لهم العصمة بالدليل.

ومن منطلق تحذير المجتمع من الوقوع في هذا الفخ، تراه يرفض أن ينقاد الناس للتقليد في أي شيء، يقول: «نسمع أحياناً من بعض الذين يبحثون عن مرجع يرجعون إليه في التقليد، قولهم: نريد العثور على مرجع نسلّم إليه جميع أمورنا! والذي أريد أن أقوله هو أن التقليد الذي أمر به الإسلام ليس هو هذا النوع من «التسليم»، بل هو تقليد يفتح العيون ويبقيها مفتوحة. إن التقليد الذي يتخذ شكل التسليم المطلق يورث آلاف المفاسد»[٢٥].

وبصدد التدليل على رأيه في خطورة «آفة العوام» وما تمثله من سلطة تتجاوز تقييد المرجعية إلى إفشال خططها، يتحدّث مطهري عن فشل ثلاث تجارب في

---

(٢٥) الاجتهاد في الإسلام: ٢٠.

الإصلاح قادها ثلاثة مراجع كبار هم الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية في قم، والسيد أبو الحسن الإصفهاني والسيد البروجردي. وسر الفشل في تجارب هؤلاء الثلاثة يعود إلى النظام المالي السائد وضغط العوام من ورائه وتأثيرسم على قرارات الإصلاح ومشاريعه.

دور الحاشية ومسألة التبليغ

نقرأ في مشروع مطهري الإصلاحي تأكيداً علىٰ نقد دور الحواشي وأسرة المرجع، إذ يحصل أحياناً أن يكون هؤلاء مصدراً لبعض الأخطاء، مما يثير حفيظة الناس ويعود بالتشويه على سمعة المرجعية عامة.

ومادامت المرجعية تدور مع الشخص ومن حوله ولا تتحرّك في إطار مؤسّسي، فإنّ وقوع هذه السلبيات هو أمر متوقع لا يفاجئ أحداً. بيد أن ما يصرّ عليه الشهيد مطهري هو ربط أمثال هذه الأخطاء بالخلل القائم في النظام المالي أيضاً. يقول: «وإنّه لما يدعو إلى الأسف الشديد أن يرى الناس بأعينهم أن أبناء بعض مراجع التقليد وأحفادهم وحاشيتهم يستغلون الفوضىٰ السائدة في تنظيم مالية الحوزة الدينية فيختلسون ويصرفون في بذخ وإسراف دون أن تصل اختلاساتهم إلىٰ نهاية»(٢٦).

المشكلة الأخرىٰ التي يربطها الشهيد مطهري بالخلل القائم في النظام المالي، تنصرف إلىٰ مهمة الوعظ والتبليغ، فمع تحليله لدور المنبر ولما يقوم به المبلّغون والخطباء والوعّاظ من دور نبوي فاعل في نشر الهدىٰ، يرىٰ أن المسألة تحوّلت في

---

(٢٦) الاجتهاد في الإسلام، ص٦٣.

سلوك البعض إلىٰ «مهنة رسمية وحرفة للتكسب يطلب فيها الأجرة»[٢٧]. وبالتالي أضحى الواعظ والمبلِّغ كأي تاجر آخر يراعي في بضاعته رغبات المستهلك.

لا ينكر مطهري وجود الخطباء والمبلِّغين الصالحين، وما يؤدونه من خدمات جليلة، بيد أنّه يدفع المسؤولين عن الشأن الديني للتفكير بأمرين في التبليغ:

١ ـ وضع برنامج ينظر لمصالح الإسلام والمسلمين، أكثر مما يخضع لرغبات الناس ودافعي الأموال.

٢ ـ أن تؤمّن معيشة الخطباء والوعّاظ كي يمتنعوا عن أخذ الأجر علىٰ تبليغ رسالتهم.

وهاتان فكرتان ما تزالان حتىٰ الآن في طور الأمنية رغم التحولات الكبيرة والإمكانات الأكبر.

مسائل فنية

ثمة مسائل فنية أخرىٰ يثيرها مطهري على صعيد الإصلاح الحوزوي والمرجعي ترتبط بضرورة ترتيب امتحانات قبول تفرز المؤهل عن غير المؤهل، للانخراط في السلك الحوزوي.

ثم يتحدّث عن ضرورة تنظيم المناهج التعليمية في الحوزة ومراعاة ميول الطلبة ومؤهلاتهم، وينتقد المنحى الذي انتهىٰ باختزال الحوزة من جامعة إسلامية عامة إلىٰ مجرّد كليّة في الفقه «والفقه غدا بحيث إنّه توافق عن التكامل منذ مئة سنة».

ثم يتحدّث عن الزي وسهولة اندساس الجهلة والعملاء في السلك العلمائي دون

---

(٢٧) المصدر السابق، ص ٦٤.

أن يكون هناك رادع لأمثال هؤلاء.

وبشأن منهج الدرس الحوزوي يؤكد مطهري على ضرورة أن يأخذ القرآن الكريم ونهج البلاغة موقعهما اللائق، حتىٰ إنّه يطلق صيحة متوجعة لغربة كتاب الله، وما يصير إليه الأستاذ الحوزوي لو فكر بالتفسير، وما يلقيه من صدود في إطار المقاييس السائدة.

يقول: «في موقع هو أكثر مواقعنا الدينية أهمية وحساسية [الحوزة العلمية] إذا أراد الإنسان أن يبذل عمره للقرآن، تراه يصطدم بآلاف المشاكل والعقبات، إذ عليه أن يتخلىٰ عن معاشه وشخصيته واحترامه وكلّ شيء. أما إذا صرف عمره في كتاب كالكفاية، فهو ينال الحظوة ويحصل علىٰ كلّ شيء. نتيجة لهذاالمقياس ـ أصبحنا ـ وهناك من يتقن الكفاية على أربعة ضروب؛ أي أتقن الكفاية والردّ عليها، وردّ الرد، وردّ ردّ الرد، في حين لا يوجد شخصان يتقنان القرآن على ما يرام».

في ضوء هذا الواقع يتساءل: «إذا كان هذا الجيل يتعامل مع القرآن على هذه الشاكلة، فهل نتوقع من الجيل الجديد أن يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به؟»[٢٨]

ثلاث خلاصات

يخلص مطهري للتأكيد علىٰ ثلاث نقاط، هي:

أوّلاً: يفخر الشهيد مطهري بانتسابه للحوزة وانخراطه في سلك العلماء، وهو يؤمن أن بداية طريق الإصلاح والصلاح يتحقق بالنسبة للمسلمين عن طريق

---

(٢٨) ده گفتار، مقالة رهبري نسل جوان [قيادة الجيل الشاب]، ص ١٩٠.

الحوزة التي تمثّل صفة القيادة الشرعية الطبيعية. يكتب : «إنَّ الذين يتمنون رفعة الدين الإسلامي المبين، ويفكرون في أسباب رقي المسلمين وعوامل انحطاطهم في الماضي والحاضر، لا مندوحة لهم من التفكير في جهاز القيادة، أعني حوزة علماء الدين المقدّسة، لأن من المسلَّم أنّ أي صلاح وإصلاح لأمور المسلمين يجب أن يتحقق إما بواسطة هذه المؤسسة ومن قِبلها مباشرة، أو أن يتمّ على الأقل بتعاون هذه المؤسسة مع تيار الإصلاح»(٢٩).

ثانياً : يبرّر الأستاذ مطهري نقده المسؤول وما يذهب إليه من آراء، بأنَّ العلماء غير معصومين، وأنَّ الذنوب تسقطهم كسائر الناس عن مركز العدالة والتقوىٰ، وإذا زالت صفة العصمة فمن الضروري أن يكون هناك مجال للنقد والإصلاح والبناء الفاعل. يقول (البناء الفاعل) ، لأن بعضهم يريد من النقد أن يتحوّل إلىٰ ذريعة للإلغاء. في حين يقول الشهيد مطهري : «كررت ذلك مرّات ومرّات، وقلت عن الكيان العلمائي إن مثلها مثل الشجرة المصابة بآفة، فما ينبغي هو مكافحة آفتها، أمّا إذا استؤصل هذا الكيان واجتث من الجذور، فلن يستطيع أي أحد أن يغرس البذرة البديلة له»(٣٠).

ثالثاً : لا ينكر الشهيد مطهري ما لعاملي الإيمان والتقوىٰ من آثار فاعلة في تصحيح الكثير من الأخطاء ، بيد أنّه يرىٰ «أن النظام والمؤسسات التنظيمية مبدأ مقدّس» لا يصطدم مع التقوىٰ والإيمان.

لذلك يرىٰ أن الإيمان والتقوىٰ وإن «قضيا على بعض مفاسد حالة اللانظام

---

(٢٩) مشكل أساسي در سازمان روحانيت، مرتضىٰ مطهري، مرجعيت و روحانيت، ١٦٥، ١٦٦
(٣٠) پيرامون انقلاب إسلامي [حول الثورة الإسلامية] مرتضىٰ مطهري، ص ١٨٤ .

وعدم الانضباط، إلا أنّ اللا نظام وافتقاد وجود المؤسسات التنظيمية في حياة علماء الدين قد زلزلا أركان الإيمان والمعنويات»[٣١] وكانا باعثاً لبعض الأخطاء والمفاسد.

أخيراً، لا ننسىٰ أن ننظر لأفكار الشهيد مطهري الإصلاحية في إطار ظرفها التأريخي الخاص قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة[٣٢]، أي قبل أن تحلّ التحوّلات الأخيرة التي أسهمت بمعالجة بعض النواقص.

على أن الهدف في كلّ الأحوال، هو استعراض أكبر حصيلة من الأفكار والإصغاء إلى ما تقول.

---

(٣١) الاجتهاد في الإسلام، ص٦٣.

(٣٢) يُنظر في هذا الجانب من حياة مطهري: روشني انديشه وشكوه ديانت [بصيرة الفكر وجلال الديانة]، بيم موج، سيد محمد خاتمي، ص٤٧ فما بعد.

الهمّ الديني .. وقائع دالة

وقائع دالة

لكل وسط ابتلاءاته، وربما كان من أبرز ابتلاءات الوسط الديني هو إصابته بالارتخاء، بحيث يفقد العمل خاصية السعي الديني، ويسقط في التكرار، فيتحوّل إلىٰ مجرّد نشاط رتيب لرفع الكلفة .

ومن مظاهر هذا الابتلاء الاحتراف، فالكتابة قد تتحوَّل إلىٰ عادة، وكذلك الدرس والتبليغ والمنبر، وحينئذٍ يضيع الهمّ الديني أو يتراجع مراتب إلى الوراء وبه تتضاءل الغيرة الدينية ويخبو أوارها.

التذكير بالأُسوات المرموقة له دوره في بعث الهمّ الديني إلىٰ واجهة العمل في الوسط الإسلامي، وإن كانت المسألة أكثر ما تتوقف علىٰ طبيعة التربية واليقظة الدائمة للإنسان الذي يمارس العمل الديني. ولكن على أيّة حال، فإن للعظة دورها، وللذكرىٰ نفعها، وغاية ما أتمناه أن يتحملنا القارئ في أن نطوف في حياة علمائنا علىٰ بعض مواقف تحكي غيرة الأبرار وحميتهم، ثم ننعطف إلىٰ عالَم الشهيد مطهري.

نبدأ بواقعة من حياة الملّا أحمد النراقي (١١٨٥ ـ ١٢٤٥ هـ) إذ اشتد في زمانه نشاط الإنجليز التبشيري في إيران، وكان من جملته سفر أحد المسيحيين من الهند

إلى شيراز، وهو يحمل اسم هنري مارتين، ويشتهر في إيران بلقب بادري.

وصل مارتين إلىٰ شيراز سنة ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) وأظهر ميله إلى الإسلام، ثم اعتنقه ـ ظاهراً ـ وبدّل اسمه إلىٰ يوسف.

دخل مارتن ـ بعد إعلان إسلامه الظاهري ـ إلى المدارس الدينية، وانكبّ على تعلّم العربية والفارسية وثابر علىٰ ذلك. ثم درس أطرافاً من العلوم الإسلامية المعروفة في الحوزات، حتىٰ إذا تمكّن في ذلك، شرع بوضع رسالة في نقض القرآن والردّ علىٰ نبوّة نبيّنا محمّد (صلّى الله عليه وآله).

أثارت رسالة مارتين الذي عادَ إلىٰ بلده التبشيري، ضجّة في الوسط الإسلامي، ويبدو أنّها جاءت علىٰ شكل دراسة مقارنة استفاد فيها الرجل من نصوص أهل الكتاب في الردّ علىٰ المسلمين في القرآن والنبوّة.

أراد الملّا أحمد النراقي أن يكشف زيف مارتين من الجذور استناداً إلىٰ نصوص أهل الكتاب. فذهب إلىٰ «موشه» وهو رجل دين يهودي في كاشان، وثابر بشكل عجيب على تعلّم العبرية، حتىٰ استطاع أن يقرأ التوراة بها. ثم ردَّ علىٰ مارتين بكتاب ألّفه يحمل اسم «سيف الأمة» عاد فيه إلىٰ نصوص أهل الكتاب بلغاتها، وأهمّها العبرية التي تعلّمها لهذا الغرض.

لم يكتفِ بذلك بل دعا عشرة من علماء اليهود في كاشان إلىٰ جلسة حوار وردَّ أمامهم مزاعم هنري مارتين من خلال العودة إلى النصوص العبرية[1].

شواهد كثيرة للهمّ الديني ودوره في تحفيز الطاقات تبرز في حياة الفقيه والمفكّر

---

(١) زندگينامه أستاد الفقهاء شيخ أنصاري [حياة الشيخ الأنصاري]، ص ١٢٤ فما بعد. كما ذكر الواقعة أيضاً حامد الغار في: نقش روحانيت بيشرو [دور العلماء التقدميين]،ص ١٤٤.

الشهيد محمد باقر الصدر، نذكر منها ما يذكره بنفسه، من أنّه أنجز الحلقات الثلاث (أربعة كتب في حوالي ١٥٠٠ صفحة من القطع الكبير) في تجديد منهج علم الأصول، خلال زمن لا يزيد على الشهرين[٢]، في حين نجد أن الكثير من الناس يسوق لك عشرات الحجج والأدلة على ضرورة التجديد في الدرس الحوزوي، أو في وضع رسالة في منهجٍ معيّن، أو الردّ علىٰ ظاهرة خاطئة في الفكر والعقيدة، ولكنّه في العمل يتباطأ ويتكاسل، بل يختلق المعاذير. وهذا الكلام ينصرف لأصحاب الكفاءات، لا الادّعاءات، وهم كثير بيدَ أنّهم في استرخاء وتبرير.

إنّ من يريد لوجدانه أن يهتزّ ولضميره الديني أن يلتهب حماساً ويمتلئ باليقظة، له أن يعود في حياة الشهيد الصدر إلىٰ محاضرتيه في كراسة «المحنة» وحديثه عن الألم الذي أخذ يقضّ مضجعه لما ألمَّ بالعراق خلال المدّ الشيوعي، وكذلك إلىٰ محاضرته الأخيرة في دروسه القرآنية[٣].

شاب انفتح علىٰ الفكر الآخر المشحون بالشُبَه والإشكالات فقرأه دون قاعدة صلبة، فكانت النتيجة أنه أُصيب بالانحراف في إيمانه والشكّ في اعتقاده. أرشدوه في قم إلىٰ الإمام الخميني (قبل نفيه إلى النجف الأشرف)، فما كان من الإمام آنئذ إلا أن عطّل درسه ثلاثة أيام وتفرّغ للشاب حين رأىٰ خطورة حاله، خصوصاً في مسألة الشكّ العقائدي.

---

(٢) دروس في علم الأصول، السيد محمد باقر الصدر، الحلقة الأولىٰ، ص٦.

(٣) المحنة، آية الله العظمىٰ الشهيد السيد محمدباقر الصدر، ص٤٩ ومواضع أخرىٰ. وكذلك تنظر: المدرسة القرآنية، محاضرات سماحة الإمام محمد باقر الصدر، الدرس الرابع عشر، ص٢٣٩ فما بعد.

ترك الدرس وتفرّغ للشاب، حتىٰ عادَ به عقائدياً إلىٰ برّ الأمان(٤). ويقيناً إنّ الإمام كان يفكّر وهو يتخلّىٰ عن الدروس ويعطي وقته جميعه لهذا الشاب، بما يروىٰ من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): يا علي لئن هدىٰ الله بك شخصاً خير مما طلعت عليه الشمس.

ومن مواقف الإمام الخميني أيضاً تصديه لمؤلف كتاب «أسرار هزار ساله» (أسرار عمرها ألف عام) بالردّ عليه في كتاب كامل ومستقل حمل عنوان «كشف الأسرار». يقول السيد أحمد نجل الإمام: قلت للإمام: إنّك كنت عنيفاً في ردّك على الكتاب؟ أجاب الإمام: لم تكن موجوداً لتنظر الهجوم الشرس والإهانة الكبيرة التي كان يتعرّض لها الإسلام من خلال هذا الكتاب.

ومحل الشاهد أنَّ الإمام الخميني يذكر إنّه حين عزم على الردّ، عطّل درسه ـ وهو مجتهد فقيه ـ شهرين كاملين وانقطع للكتابة(٥).

أجل، فالدرس ليس صنماً ولا يراد لنفسه، وكذا القلم والكتابة والمحاضرة والمنبر، والمجلّة والصحيفة والمذياع، إنّما هي وغيرها جميعاً وسائل لخدمة الدين والمنافحة عن كلمة الله، فحينما يكون ما هو أهم منها تُترك لينهض الإنسان بالأهم.

والمسألة بعد ذلك هي مسألة الهمّ الديني والتحرّق على الإسلام. وليست هذه الوقائع سوىٰ إشارات ثمة الكثير مثلها في حياة الأبرار من ذوي الغيرة والحمية الدينية، حيث بمقدورنا أن نرجع من المتأخرين إلىٰ حياة محمد جواد البلاغي وكاشف الغطاء وشرف الدين والأميني ومحمد جواد مغنية لنتلمس في وجودهم

---

(٤) دور الإمام الخميني في إحياء الفكر الفلسفي، علي أكبر ضيائي، الترجمة العربية ص ١٧، ١٨.
(٥) مقام علمي إمام خميني، بقلم نجله السيد أحمد الخميني، صحيفة همشهري، ٢٧ نيسان ١٩٩٥.

عمق الهمّ الديني وحضوره الدائم في حياتهم حتىٰ أضحىٰ في الأغلب هو المسيِّر لنشاطهم الفكري والعلمي .

البلاغي مثلاً لم يكتف بتعلّم العبرية ـ على تعقيد هذه اللغة ـ بل تعلّم الإنجليزية في مثل ظروف النجف قبل أكثر من سبعين عاماً، لكي يردّ على أضاليل المبشّرين وبواكير العقائد المنحرفة التي أطلّت برأسها علىٰ ديار المسلمين.

وحين لم يجد المال لنشر ما يكتب، باع بيته من أجل أن يطبع الردود، ومع ذلك كان يبتعد عن الشهرة ويهرب بعنف عن الألقاب التي يتراكض وراءها بعضهم، وتخلّىٰ عن الطريق الذي يقوده إلى الرئاسة الدينية، وبقي هكذا إلىٰ آخر أيام حياته.

وقائع من حياة مطهري

نبدأ بمثال من حياة الشهيد مطهري يذكّرنا بحمية الأبرار وغيرتهم. إذ يذكر الشهيد محمد جواد باهنر (رئيس الوزراء في رئاسة الشهيد محمد علي رجائي للجمهورية) إن كتاباً صدر ـ قبل انتصار الثورة ـ يكيد للإسلام باسم الإسلام ومن خلال التاريخ الإسلامي. فما كان من مطهري إلّا أن ألحّ علىٰ باهنر في أن يعثر له علىٰ نسخة من الكتاب.

يذكر الشهيد باهُنر أنه بذل جهوداً مضنية حتىٰ عثر علىٰ نسخة، قام بتصوير نسختين منها، أعطىٰ واحدة لمطهري، واحتفظ بالثانية لنفسه، كي يقوم بمطالعتها وتهيئة الردود عليها .

يقول باهُنر: مضىٰ على الواقعة أقل من عشرين يوماً، ثم سألني مطهري عمّا فعلت بالكتاب؟ أجبته: تركته جانباً بانتظار أن تسنح الفرصة لمطالعته إن شاء الله. فما كان من مطهري، إلا أن ذكر لباهنر أنه قرأ الكتاب كاملاً (٤٠٠ صفحة) وكتب

عليه (٣٥٠) ملاحظة نقدية![٦]

إنّ كتب الضلال والشبهات والإشكالات تأخذنا اليوم من كلّ جانب؛ بل هي تنزل علينا في عقر دارنا كما ينزل المطر من السماء، ومع ذلك ترىٰ أصحاب الهمة والهمّ الديني قليلين. وربما بمقدور كلّ قارئ لهذه السطور أن يتذكر واقعة أو أكثر على إهمال ذوي الشأن العلمي لمسؤوليتهم الدينية. فرسالة بعث بها أحدهم بمعية مبحث عقائدي، ظلّت سنوات تمر من يد إلىٰ أخرىٰ، دون أن تجد الهمة للتعاطي الجاد المسؤول معها[٧].

وثمة في هذا المجال عشرات الأمثلة إن لم يكن المئات وأكثر!

عودة إلىٰ مطهري الذي أخذ يصرخ وهو يشهد كثرة الفكر الذي تكتبه بعض الأقلام بعنوان كونه فكراً إسلامياً، أو تشيعه بـ«ماركة» إسلامية: «باعتباري فرداً تقع عليه مسؤولية إلهية، أُحذّر قادة النهضة الإسلامية الأجلّاء، من نفوذ الأفكار الأجنبية وانتشارها تحت عنوان الفكر الإسلامي، وبماركة إسلامية. فهذه أفكار خطيرة تهدّد كيان الإسلام سواء صدرت بسوء نيّة أم بحسن نيّة. وبذلك أُتمّ الحجّة بيني وبين الله»[٨].

وواقعة أخرى ينقلها هذه المرّة زميله في كلية الإلهيات، الشهيد محمد مفتح،

---

(٦) سيماي أستاد، ص ٢٤٧.

(٧) يقول الإمام سيّد الشهداء ـ عليه السلام ـ «ثم أنتم أيتها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة....» إلىٰ أن يقول: «أليس كلّ ذلك إنّما نلتموه بما يرجىٰ عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون فاستخففتم بحق الأئمة، فأما حقّ الضعفاء فضيعتم، وأما حقّكم بزعمكم فطلبتم» ويقول: «وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون». تحف العقول، ص ١٦٩.

(٨) الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، ص ٨٩.

وهو يقول: كان الوقت بعد الظهر، حين دخلت على الشهيد مطهري في غرفته. قال وملامح القلق تسيطر عليه: علينا أن نفكّر بحلّ، فالاتجاه المادي يهيمن بشكل عجيب على أذهان شبابنا وعقولهم.. ماذا يجب أن نعمل؟

أخذ يريني بعض الكتابات ممّا كان قد وضع خطوط تحتها، وهو يقول بحزن وانفعال: انظر! هذه الجماعة تعمل لضرب التوحيد باسم التوحيد، وتواجه الدين وتشوّه معارف الإسلام باسم التوحيد.

يضيف مفتح: والله، كان يقول ذلك وهو يرتجف من شدّة التأثر والأذى[٩].

في رسالة تاريخية ـ هي تأريخية بمعنى الكلمة ـ نشرت للتو، كان قد بعث بها الشهيد مطهري إلى الإمام الخميني عندما كان الإمام في النجف الأشرف. نجد أن محتوياتها مملوءة غيرة على الإسلام، وحمية على ما يؤذي المسيرة.

في هذه الرسالة التي كان قد بعث بها مطهري إلى الإمام الخميني في النجف سنة ١٩٧٨، تحدّث بشكل منهجي ومفصّل عن الاتجاهات التي تضرب الإسلام أو تضرّ به، وقد حصرها في أربعة اتجاهات، ثم تحدَّث عن معاناته وما يتجشمه من أذىً من هؤلاء وهم يحملون عليه بتهمٍ متعددة (رجعي وبعضهم يصفه أنّه وهابي وسنّي!)، وهو يقول: هذه المجموعات الأربع تهاجمني بعنف وتبثّ حولي الشائعات، لكوني ـ وإلى حدٍّ ما ـ من أهل الفكر والنظر والبيان ومن حملة القلم، ويرمونني بالأكاذيب والافتراءات.. بيدَ أني بحمد الله وعناية الأئمة لن أدع للخوف مسرباً إلى نفسي. وإذا كنت أقول هذا الكلام، فإني لا أشتكي إلا لمثل جنابك وأنت أستاذي الجليل وبمثابة أبي. إنّ هجوم هؤلاء المكثّف يحوطني من كلّ جانب، فإذا كنت تأمرني أن أثبت

(٩) سيماي أستاد در آينة نگاه ياران، ص٢٢٧ .

وأصمد فسأفعل ذلك، وإذا أمرتني بأن أمضي جانباً فسأمتثل أمرك»(١٠).

لقد دفع ثمن مواجهته لهذه الجماعات المنحرفة التي تأتي على قواعد الفكر التوحيدي باسم التوحيد، باهضاً. يقول تلميذه الشهيد محلاتي: قال يوماً لعدد من أصدقائه في بيته: سأبقى أواجه هؤلاء، وربما قتلوني، ولكني لن أحيد عن قولي فيهم، لأنّهم يمثلون خطراً على الدين(١١).

كان يعني جماعة «فرقان» التي يقول في وصفها نصاً: هذه الجماعة خطرة لأنّها تعبث بالقرآن. وليس من يتجاوز على الأموال، أو يتطاول على العلم، كمن الذي يعتدي على حرمة الوحي(١٢).

أخيراً آل الأمر إلى ما توقع، حين دبَّرت له «فرقان» حادث الاغتيال وأردته مضمخاً بدمه.

لماذا أكتب؟

سنقتصر في هذه الفقرة على نصّين، يشير الأول إلى المثابرة التي كان يتحلّى بها الشهيد مطهري في الدراسة، وعدم الاقتصار على مقررات المنهج الحوزوي، حيث امتد اهتمامه إلى ما يشغل الساحة الإيرانية وما يهدِّد الفكر الإسلامي، فوجد أنه يتمثل بالمدرسة المادية في اتجاهاتها المختلفة. درس الفكر المادي وأحاط به، بما يقدر عليه دون توانٍ وارتخاء، حتى إذا ما اختمرت لديه محصلة نقدية، أخذ يدفع

(١٠) يُلاحظ نصّ هذه الرسالة التأريخية التي نشرت للمرّة الأولى في: نهضت امام خميني [نهضة الإمام الخميني]، سيد حميد روحاني زيارتي، المجلد الثالث، ص٤٠٨ ـ ٤١٥، الطبعة الثانية ١٩٩٥.

(١١) سيماي استاذ، ص٢٥٥.

(١٢) المصدر السابق، ص٢٥٥.

موجات هذا الفكر وأباطيله بالبيان والقلم، ومن خلال المحاضرة والكتاب. أما النص الثاني، فيحدِّد فيه مطهري أهداف رسالته ككاتب يمسك القلم بين يديه.

نبدأ بالنّص الأول الذي يقول فيه: بدأت دراستي للعلوم العقلية وأنا في سن (٢٣). كنت أُحسّ أن هناك ميلاً في داخلي يحملني دائماً إلى التعرّف عن قرب على منطق الماديين وفكرهم، وأن أقرأ عقائدهم من خلال كتبهم مباشرة.

لا أتذكر متىٰ كانت البداية بدقة. ولكن ربما كانت وأنا في سن الخامسة والعشرين من عمري حين تعرفت للمرّة الأولىٰ على الفكر المادي باللغة الفارسية من خلال ما كان ينشره حزب تودة [الحزب الشيوعي الإيراني] أو باللغة العربية من خلال ما كان يطبع في مصر. قرأت بدقة كلّ ما كان يقع بيدي من كتب د. تقي آراني(١٣)، ولقد كانت تلك الكتابات صعبة عليّ وقتئذ بسبب عدم معرفتي بالمصطلحات الفلسفية الجديدة، لذلك كنت أقرأ هذه الكتب مرّات وأُسجّل عليها الملاحظات وأعود [فيما يغمض عليّ] إلىٰ مراجعة كتب أخرىٰ.

لقد كرّرت قراءة بعض كتب «آراني» حتىٰ نقشت عبائرها في ذهني.

كنت في التاسعة والعشرين أو الثلاثين من عمري، حين وقع بيدي كتاب «أصول مقدّمات الفلسفة» لجورج بولتيزر أستاذ الكلية العمالية في باريس. ولكي تبقىٰ أفكار الكاتب في ذهني، بادرت إلىٰ تلخيصها وتدوينها، ومازلت أحتفظ حتى اللحظة بملخصاتي لهذا الكتاب، وكتاب «آراني» المسمّىٰ «المادية الديالكتيكية».

في اتجاه تعزيز معرفتي بهذا اللون من الفكر، حضرت درساً خاصاً عند العلامة الطباطبائي، كرّسه لدراسة وتحليل الفلسفة المادية. وكانت الحصيلة كتاب «أصول

---

(١٣) أبرز ناقل للفكر الماركسي في إيران، وعلى مترجماته تعتمد أغلب كتابات مطهري النقدية للماركسية.

الفلسفة والمذهب الواقعي» الذي كان له في العشرين سنة الأخيرة دور حاسم في الكشف عن خواء الفلسفة المادية للمجتمع الإيراني، وأنها لا تقوم على أسس رصينة»(١٤).

على هدا المنوال، يواصل مطهري حديثه عن الجهود التي بذلها لمعرفة أخطر فكر يهدِّد مجتمعه آنذاك، وكيف بذل مساعٍ حثيثة لمعرفته ودراسته، وبموازاته درس الفلسفة الإسلامية ثم تحوّل إلىٰ موقع النقد، من موقع معرفته لأُصول الفلسفتين المادية والإلهية.

والآن نعود لتكرار المكررات، ونحن نؤكد أن هناك عشرات المدارس الخطيرة التي تهدِّد المسلمين في عقولهم ووعيهم، وإلىٰ جوارها مشاريع لا تنتهي تغطي الساحة الإسلامية، من دون أن نشهد ـ إلّا ما ندر ـ هماً عالية لمواجهة ذلك كلّه والمنافحة عن كلمة الله.

في النص الثاني الذي يحدِّد فيه أهداف رسالته ككاتب إسلامي يحركه المبدأ، نجد معالم الغيرة والهمّ الديني تنتشر بظلالها على جوانب هذا النص، الذي يقول فيه: «أحمل القلم منذ حوالي عشرين عاماً، والهدف الوحيد الذي أتوخاه من أي بحث أو كتاب ألّفته، ومن مجموع كتاباتي، هو حل المشكلات والإجابة عن الأسئلة التي تطرح في عصرنا، في مجال المسائل الإسلامية.

لقد كتبت في مجالات متعددة، فبعض كتاباتي له طابع فلسفي وبعضها اجتماعي وقسم منها أخلاقي وقسم آخر فقهي وبعضها تأريخي. لقد كتبت في مجالات يتغاير بعضها مع الآخر بشكل تام، بيد أنّ الهدف منها جميعاً، هو فقط الإجابة عن الأسئلة

---

(١٤) علل گرايش به ماديگرى [الدوافع نحو المادية] مقدّمة الطبعة العاشرة.

والمعضلات التي تُثار في عصرنا في مجال القضايا الإسلامية.

لقد أشرت في بعض كتاباتي إلىٰ أنّ نشر كتاباتنا الدينية ينطوي على الارتباك وعدم النظم. فلو أردنا أن نتجاوز ما يكتب [باسم الفكر الديني] وهو ينطوي على إلحاق الضرر وهتك الحرمة، فإنَّ لكتاباتنا المفيدة النافعة مشكلاتها أيضاً، فهي لم تصدر عن حساب دقيق للاحتياجات والأولويات. وإنّما كل شخص يكتب وفق مزاجه وينشر ما يقدِّر أنّه مفيد، مما أدّى إلىٰ أن تأتي الحصيلة أن لا يكتب عن بعض المسائل المهمة حتى كتاب واحد، في حين كتب عن بعض المسائل الأخرىٰ ما يتجاوز الحاجة، حيث يصدر حولها الكتاب تلو الآخر.

شخصياً لا أدّعي أبداً أن ما أختاره وأكتب حوله يعكس أشد الأولويات حاجة، بل أزعم فقط أني لم أتجاوز هذا الأصل ـ المعيار بحسب تشخيصي. فأنا أسعىٰ حتىٰ المقدور إلىٰ حلّ المعضلات في المسائل الإسلامية، وأن أعكس الحقائق الإسلامية وأبيّنها كما هي قدر الإمكان. ولو افترضنا عدم إمكان التصدي للانحرافات العملية، فيجب بذل السعي لمواجهة الانحرافات الفكرية حتىٰ المقدور، وأن ينصبّ الجهد على تلك المسائل التي يتخذها المخالفون للإسلام ذريعة.

وفي ذلك يجب مراعاة قاعدة الأهم فالمهم، على الأقل في مستوى الكاتب نفسه»[١٥].

نظرة واحدة إلىٰ واقع المكتبة الإسلامية ، وما يكتب بعنوان كونه فكراً إسلامياً، تدلنا على أنّ الواقع مازال يراوح في مكانه، إلّا من استثناءات قليلة.

---

(١٥) عدل إلهي، مرتضىٰ مطهري، المقدمة .

الفهرست

الحرية الفكرية والمنطلق الإحيائي في شخصية مطهري

الفقيه ـ المثقف خلفية الأزمة وتأسيس الحل

الحوزة ـ المرجعية: معالم المشروع التجديدي عند الشهيد مطهري

الهمّ الديني .. وقائع دالة